غيوم ميسو

أنقذني



رواية



غيوم ميسو



أنقذني

رواية

ترجمة: محمد التهامي العمّاري

سما للنشر

المركز الثقافي العربي



غيوم ميسو

أنقذني

العنوان الأصلي للرواية:

Sauve-moi

By: Guillaume Musso

الكتاب

أنقذني

تأليف

غيوم ميسو

ترجمة

محمد التهامي العمّاري

الطبعة

الأولى، 2014

الترقيم الدولي:

ISBN: 978-9953-68-692-9

الناشر

المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء ـ المغرب

ص.ب: 4006 (سيدنا)

42 الشارع الملكي (الأحباس)

هاتف: 0522 303339 ـ 0522 307651

فاكس: 305726 522 212+

Email: markaz.casablanca@gmail.com

بيروت ـ لبنان

ص.ب: 5158 ـ 113 الحمراء

شارع جاندارك ـ بناية المقدسي

هاتف: 750507 01 ـ 352826 01

فاكس: 343701 1 961+

Email: cca_casa_bey@yahoo.com

«التفكير فيك يسرّع من خفقان قلبي، وهذا هو الشيء الوحيد المهمّ بالنسبة إليّ».




أهم جروبات علي تليجرام
باحثون
هنا سور الازبكية
غواص في بحر الكتب
قناة مصر الثقافية و الفنية



1

هذا اليوم هو اليوم الأول ممّا تبقى من حياتك.
جملة نقشها أحدهم على أحد مقاعد
سانترال بارك.

إنه صباح من صباحات كانون الثاني/ يناير بخليج نيويورك، ساعة زحف النهار على الليل...

نحلّق عالياً وسط السحب الراكضة نحو الشمال فوق جزيرة إليس وتمثال الحرية. الجوّ بارد، والعاصفة الثلجية تشلّ المدينة بكاملها.

وفجأة يخترق السحب طائر فضيّ الريش، ويهبّ نازلاً بشكل عمودي باتجاه صفّ ناطحات السحاب المرتسم في الأفق، تاركاً نفسه ينقاد بقوة غامضة تسحبه نحو شمال مانهاتن، متجاهلاً ندائف الثلج. يحلّق فوق غرينيتش فيلاج وتايمز سكوير وآبر ويست سايد بسرعة مذهلة مصدِراً صرخات إثارة خافتة، لينتهي به المطاف إلى النزول عند باب مدخل حديقة عمومية.

نحن نوجد عند طرف حديقة مورنينغ سايد، على مقربة من جامعة كولومبيا.

في أقل من دقيقة سيُضاء الطابق الأخير من عمارة صغيرة بالحي.

في هذه الأثناء تستمتع شابة فرنسية تدعى جولييت بومان بالثواني الثلاث الأخيرة من النوم.

6:59:57

:58

:59

7:00:00



*

لما رنّ الجرس، أرسلت جولييت ذراعها بشكل عشوائي نحو منضدة السرير فطوّحت بالراديو - المنبّه على الأرض موقفة بذلك فوراً «صفارته» المزعجة.

خرجت من فراشها وهي تفرك عينيها، ووضعت رجليها فوق الأرضية الخشبية اللامعة، وسارت بضع خطوات على غير هدى قبل أن تتعثّر قدماها بالسجاد الذي زلق فوق الشرائح الخشبية المصقولة. قامت مسرعة والتقطت نظارتها التي كانت تبغضها، لكن قصر نظرها يضطرها إليها، ذلك أنّها لم تطق قطّ العدسات اللاصقة.

عكست لها مجموعة المرايا غير المتجانسة، المُقتناة من متاجر الأثاث القديم، صورة امرأة في الثامنة والعشرين من عمرها، بشعر متوسط الطول ونظرة لعوب. قامت بتكشيرة عابسة في المرآة، ثمّ حاولت على عجل إعادة تصفيف شعرها وترتيب بعض خصلاته الذهبية التي كانت مفتولة حول رأسها. كان قميصها المفتوح وسروالها القصير المخرّم يجعلانها تبدو مثيرة وجامحة. غير أنّ هذا المشهد اللطيف لم يكن ليدوم: إذ سرعان ما التفّت في غطاء صوفي سميك، وضغطت إلى بطنها السخانة التي كانت لا تزال تحتفظ ببعض الدفء؛

ذلك أن نظام التدفئة لم يكن يوماً مزيّة من مزايا هذه الشقّة التي تكتريها مع كولين منذ ثلاث سنوات.

تنهدت وهي تقول بحسرة: «هذا ونحن ندفع ألفي دولار في الكراء!».

نزلت درجات السلم بقدمين مضمومتين وهي مدثّرة، ثمّ دفعت بخاصرتها باب المطبخ دفعة خفيفة. قفز القط الرمادي المخطّط السمين الذي كان يراقبها منذ دقائق إلى ذراعيها ثمّ فوق كتفها معرّضاً بذلك عنقها للخدش.

صاحت وهي تمسكه بإحكام وتعيده إلى الأرض:

- توقّف يا جان كامي!

ماء الهرّ تعبيراً عن سخطه ثمّ قصد سلّته وتكوّم.

وضعت جولييت في هذه الأثناء وعاء ماء على النار وأدارت زرّ المذياع:

«... واصلت العاصفة الثلجيّة التي شلّت واشنطن وفيلاديلفيا منذ 48 ساعة زحفها باتجاه الشمال الشرقي من البلاد، لتصيب نيويورك وبوسطن.

هكذا استيقظت مانهاتن هذا الصباح تحت طبقة سميكة من الثلج شلّت حركة السير وبطّأت من إيقاع الحياة في المدينة.

هذا وسيؤثّر سوء الأحوال الجوية على حركة النقل الجوي: فقد ألغيت كلّ الرحلات المنطلقة من مطارَيْ JFK ولاغوارديا، أو أُجّلت.

كما أنّ حالة الطرق سيّئة للغاية، وتنصح السلطات بتفادي التنقّل بالسيارات قدر الإمكان.

وإذا كان المترو سيشتغل بشكل طبيعي، فإن حركة الأتوبيسات

ستعرف الكثير من الاضطراب. وتعلن شركة أمتراك (Amtrack) للقطارات أنّها ستقلّص خدماتها. كما أنّ متاحف المدينة ستغلق أبوابها لأوّل مرّة منذ سبع سنوات، وكذلك الشأن بالنسبة إلى حديقة الحيوان والمعالم السياحية الرئيسة.

وستواصل هذه العاصفة الناتجة من التقاء كتلة هوائية رطبة قادمة من خليج المكسيك وأخرى باردة آتية من كندا، تقدّمها خلال اليوم باتّجاه إنجلترا–الجديدة (New England).

لهذا ننصحكم بتوخي أقصى درجات الحذر.

أنتم تنصتون لإذاعتكم مانهاتن على الموجة 4 . 101.

إذا أعطيتمونا عشر دقائق على مانهاتن 4 . 101، سنضع العالم بين أيديكم...»

شعرت جولييت بقشعريرة وهي تنصت لهذه الأخبار. عليها أن تتناول شيئاً بسرعة لكي تستدفئ. بحثت في الدولاب: لا لقهوة ذائبة ولا شاي. اضطرت وهي تشعر بالخجل إلى التقاط كيس الشاي الذي استعملته كولين الليلة السابقة.

ثم وقفت عند حافة النافذة وهي لا تزال نعسانة لتلقي نظرة من خلال الزجاج على المدينة المكسوة بمعطفها الأبيض.

كانت الفرنسية الشابة مفعمة بالحنين لعلمها بأنّها ستترك مانهاتن قبل نهاية الأسبوع. ولم يكن هذا بالقرار اليسير. فقد كان عليها أن تخضع للأمر الواقع: فهي إن كانت أحبّت نيويورك، فنيويورك لم تبادلها الحب نفسه، ذلك أن هذه المدينة لم تحقّق أيّاً من آمالها وأحلامها.

فبعد المرحلة الثانوية، درست بالأقسام التحضيرية الأدبية ثم

حصلت على ماجستير من السوربون دون أن تنقطع عن التمثيل في نوادي المسرح الجامعي. بعد ذلك جرى قبولها للدراسة بمدرسة فلوران لتكوين الممثلين، حيث اعتُبرت من بين الطلاب الواعدين. وبالموازاة مع ذلك واصلت اجتياز اختبارات أداء الممثلين، وشاركت في التمثيل بثلاث وصلات إشهارية أو أربع، كما مثّلت أدوار كومبارس في بعض الأفلام التلفزية، لكن كلّ هذه الجهود لم تثمر شيئاً. هكذا أخذت تتخلّى شيئاً فشيئاً عن طموحاتها، راضية بأدوار في عروض بالأسواق الممتازة ومجالس الشركات، وفي مسرحيات تعرض في حفلات الميلاد، أو التنشيط بيوروديزني عبر التنكر في شخصيّة الدبدوبويني.

ورغم أنّ أفقها كان يبدو مسدوداً، فإن ذلك لم يثبط من همّتها، بل واجهت الأمر بجرأة واختارت السفر إلى الولايات المتّحدة وكلّها أمل بأن تجد موقعاً لها ببرودواي. كان وضعها لمّا حلّت بنيويورك وضع شابة ستستفيد من الإيواء والإطعام مقابل الخدمة. ألم يقولوا إنّ من ينجح في نيويورك يستطيع النجاح في أي مكان آخر؟!

ترك لها اشتغالها برعاية الأطفال خلال السنة الأولى وقتاً فارغاً استغلّته في تحسين إنجليزيتها، والتخلُّص من لكنتها، ومتابعة دروس في الفن الدرامي، لكن كل اختبارات الأداء التي اجتازتها لم تسفر إلا عن أدوار صغيرة في مسرحيات تجريبية أو طليعية، تُعرض في مسارح صغيرة أو في أحد المخازن أو قاعات الكنائس.

ولكي تكسب قوتها، اشتغلت فيما بعد في عدد من الأعمال الصغيرة: أمينة صندوق لدوام جزئي بسوبر ماركت، منظّفة بفندق حقير بشارع أمستردام، نادلة في مقهى...

واتّخذت قرار العودة إلى فرنسا قبل شهر. ذلك أن كولين ستترك

الشقّة لتقيم مع صديقها، فلم تعد لها الشجاعة ولا الرغبة في البحث عن امرأة أخرى تقتسم معها الكراء. لقد حان الوقت لكي تعترف بفشلها، ذلك أنّها لعبت لعبة فيها كثير من المجازفة، وخسرت. اعتقدت لفترة طويلة أنّها أذكى من الآخرين، مستخفّة بفخاخ الروتين والالتزامات، لكنّها تشعر اليوم بالضياع، بحيث فقدت كلّ المعالم والدعامات. يُضاف إلى هذا أنّ كلّ مدّخراتها نفدت، وتأشيرتها كفتاة تحظى بالإيواء والإطعام انتهت منذ مدّة طويلة، ممّا يجعلها أجنبيّة في وضع غير قانوني.

وقد كانت رحلتها إلى باريس مقرّرة بعد يومين، إذا سمحت الأحوال الجوية بذلك.

هيّا يا صغيرتي، كفاك أسى على حظّك العاثر!

بذلت جهداً لتقوم وتوجّهت إلى الحمام. تخلّصت من غطائها، ونزعت ملابسها الداخلية وقفزت داخل مخدع الاستحمام.

صاحت حين أحسّت بدفق الماء المثلج على بشرتها:

- آآآه!

فقد استحمّت قبلها كولين، ولم تترك قطرة ماء ساخن.

قالت جولييت في نفسها إنه أمر غير لطيف.

كان الاغتسال بالماء البارد حصّة تعذيب حقيقي، لكنّها، لطيبتها، سارعت إلى التماس الأعذار لصديقتها: فكولين أنهت مساراً دراسياً متألقاً في المحاماة، وهي تجتاز اليوم مقابلة تشغيل لدى مكتب مرموق بالمدينة.

لم تكن جولييت نرجسية ذلك الصباح رغم أنها قضت وقتاً أطول قليلاً من المعتاد أمام المرآة، لكن سؤالاً صار يقلق راحتها أكثر فأكثر:

أما زلت شابة؟

لقد أتمت الثامنة والعشرين. لا تزال شابة بالطبع، لكن ينبغي الاعتراف بأنّها لم تعُد كما كانت في العشرين.

اقتربت من المرآة وهي تجفّف شعرها، حدّقت في وجهها فأبصرت تجاعيد صغيرة عند زاويتي عينيها.

إنّ مهنة التمثيل التي تشقّ على الرجال هي أصعب بالنسبة إلى النساء: لا يُقبل منهنّ التقصير، في حين قد يعدّ علامة جاذبيّة وتميّز لدى الرجال، وهو أمر طالما ضايقها.

تراجعت إلي الوراء. كانت لا تزال تملك نهدين رائعين، لكنّهما لم يعودا ولا شكّ في انتصابهما نفسه قبل سنتين من ذلك.

كلا، إنك تتوهّمين.

لطالما رفضت جولييت إجراء «تعديلات» على جسدها: تعزيز ابتسامتها بالكولاجين، إزالة تجاعيد الجبين بواسطة توكسين البوتولينوم، إبراز عظام الوجنتين، إضافة نقرة في الخدّ أو الذقن أو تغيير الصدر... قد يكون ذلك سذاجة منها للأسف، لكنّها كانت ترغب في أن تفرض نفسها كما هي في الواقع: على الفطرة، بوصفها ذات حسّ وأحلام.

المشكلة هي أنّها فقدت الثقة في نفسها. ذلك أنّها اضطرت إلى التخلّي عن آمالها تدريجياً: في أن تصبح ممثلة مسرح وأن تعيش قصة حب حقيقية. قبل ثلاث سنوات، كانت تتخيّل كلّ هذا ممكناً. كان بالإمكان أن تصير جوليا روبيرتس أو جولييت بينوشيه. ثم أرهقتها الحياة اليومية شيئاً فشيئاً. كان كراء الشقّة يلتهم كلّ مالها. لقد مضى زمن طويل لم تشترِ فستاناً واحداً، واضطرّت إلى أن تقتات على المعلّبات والمعجّنات.

لم تصِرْ لا جوليا روبيرتس ولا جولييت بينوشيه، بل راحت تعمل نادلة بإحدى المقاهي مقابل خمسة دولارات للساعة، وبما أنّ هذا لم يكن يكفي لأداء الكراء، فقد اضطرت للقيام بشغل آخر في عطلة نهاية الأسبوع.

استمرّت تتحدّث إلى نفسها في المرآة وهي تقول:

أما زلت قادرة على الإغراء؟ على إثارة الشهوة؟ لا شك في ذلك، لكن حتّى متى؟

حدَّقت في عينيها وقالت محذّرة:

- سيأتي يوم غير بعيد لن يلتفت فيه رجل إليك...

وفي انتظار ذلك، ارتدي ملابسك بسرعة إن كنتِ لا ترغبين في التأخر عن العمل.

لبست باستعجال سروالاً طويلاً لاصقاً وزوجاً من الجوارب القصيرة، ثمّ سروال جينز أسود وقميصاً مخططاً أضافت إليه كنزة وسترة صوفية ذات أهداب.

وقع بصرها على الساعة الجدارية، فذُعرت من تأخُّرها. حريّ بها ألا تتأخر أكثر لأنّ مشغّلها ليس متساهلاً، وحتّى لو كان آخر يوم لها في الشغل، فإن سوء الأحوال الجوية لن يشفع لها.

نزلت السلم باندفاع، والتقطت قبّعة ووشاحاً ملوّناً كان معلّقاً بمشجب ثمّ صفعت الباب خلفها محاذرة ألا تجزّ رأس قطها المتهوّر الذي أطلّ بأنفه متطلّعاً إلى الثلج المتراكم خلال الليل.

وما كادت تتجاوز عتبة الباب حتّى لفحتها هبّة قارسة. لم يسبق لها أن رأت نيويورك بهذا الهدوء. فقد تحوّلت مانهاتن في غضون بضع ساعات إلى محطّة تزلّج ضخمة، وجعل الثلج شوارع المدينة العملاقة تبدو كمدينة شبح تتعذّر فيها حركة المرور. تراكم الثلج على

الأرصفة وفي ملتقيات الطرق والشوارع التي عادة ما تكون صاخبة ومزدحمة، لم يعُد يجوبها غير السيارات الرباعية الدفع وبعض سيارات الأجرة الصفراء وقليل من المارة الذين انتعلوا المزالج.

رفعت جولييت رأسها وقد استرجعت عطر الطفولة فالتقطت بفمها ندفة ثلج. كادت تسقط فباعدت بين يديها حتّى تستعيد توازنها، ومن حسن حظها لم تكن محطة المترو بعيدة، وكان يكفي أن تحاذر حتّى لا تنزلـ. . .

فات الأوان. هوت في رمشة عين ووجدت نفسها على الثلج الناعم. مرّ بجوارها طالبان دون أن يساعداها على الوقوف، بل راحا يضحكان منها بخبث، فساورها شعور بالخزي وكادت عيناها تدمعان.

لقد بدأت يومها على نحو سيئ بكل تأكيد.

2

وامتزج بعضنا ببعض تماماً،
هي نصف حيّة وأنا نصف ميت.

فيكتور هيغو

على بعد كيلومترات من هناك، عبرت سيارة لاند روفر رباعية الدفع موقف سيارات مقبرة بروكلين هيل الخالي.

على ركن الواقية الأمامية الأيمن، تكشف بطاقة مغلّفة بالبلاستيك عن هوية السائق ومهنته:

الدكتور سام غالواي
شارع مستشفى ماتيوس
مدينة نيويورك

رُكنت السيارة قرب المدخل، وترجّل منها شخص في الثلاثين من العمر. كانت بنيته الضخمة ومعطفه الطويل وبذلته المقدودة على المقاس توحي بالمتانة والأناقة، لكن نظرته الغريبة - إحدى عينيه زرقاء والأخرى خضراء - كانت تلفّها الكآبة.

كان الجو بارداً وقارساً. عقد سام غالواي الوشاح حول عنقه ونفخ في يديه ليدفئهما. خطا بضع خطوات في الثلج باتجاه المدخل.

كان الباب الحديدي لا يزال مقفلاً، لكن مبادرة سام بتقديم هبة في السنة الماضية للمقبرة مساهمة منه في العناية بالمقابر منحه الحقّ في الحصول على مفتاحه الخاص.

كان يواظب على زيارة المكان مرّة في الأسبوع صباحاً قبل الالتحاق بالعمل بالمستشفى. وقد غدا ذلك طقساً أشبه بمخدّر.

إنها الوسيلة الوحيدة ليستمرّ معها...

فتح سام الحاجز الحديدي الصغير المخصَّص عادة للحارس، وشغّل نظام الإنارة قبل أن يترك رجليه تقودانه آلياً عبر الممرّات.

كانت مقبرة شاسعة كثيرة التلال أشبه ما تكون بالحديقة، يقصدها العديد من المتنزهين في الصيف للاستمتاع بتنوع أشجارها وممراتها الظليلة، لكن سكونها هذا الصباح لا تشوّشه حركة ولا شدو عصفور باستثناء الثلج المتراكم على شكل طبقات صامتة.

بعد قطع ثلاثمائة متر، وصل إلى قبر زوجته.

كان الثلج قد غطى الشاهد الغرانيتي الوردي تماماً، فكشف سام بكمّه عن جزئه العلوي ليبرز ما كتب عليه:

فيديريكا غالواي

(2004-1974)

ترقد الآن في سلام

مشفوعة بصورة بالأبيض والأسود لامرأة في الثلاثين من عمرها، بشعرها البني المصفوف في شكل جدائل، ونظرتها الهاربة من التحديق في آلة التصوير.

نظرة يتعذَّر الإمساك بها.

قال بصوت ناعم:

- صباح الخير. البرد قارس هذا الصباح، أليس كذلك؟

رغم أن فيديريكا ماتت قبل سنة، فهو ما زال يكلّمها كما لو كانت لا تزال حيّة.

مع ذلك لم يكن سام متديّناً. لم يكن يؤمن بالرب ولا بحياة أخرى مفترضة. لم يكن يؤمن في الواقع بشيء آخر خارج الطب. كان طبيب أطفال ماهراً ورحيماً بمرضاه بحسب شهادة كلّ من يعرفونه. ورغم صغر سنّه، نشر العديد من المقالات في مجلات طبية، وتلقّى عروضاً من مؤسسات مرموقة وهو يُرسّم بعد في منصبه.

تخصّص سام في مجال الطب النفسي، وبالضبط في مجال «المرونة» النفسية التي تنطلق من مبدأ أنّ الناس، بما فيهم أولئك الذين حطمتهم أسوأ المآسي، يستطيعون أن يسترجعوا القوة لإعادة بناء أنفسهم دون أن يستسلموا للنكبات. كان جزء من عمله إذن يتمثل في معالجة الصدمات النفسية الخطيرة التي يتعرّض لها بعض الأطفال: كالمرض والاعتداء والاغتصاب وموت أحد الأقارب...

لكنّه إن كان يجد القوة لمساعدة مرضاه ليسترجعوا زمام حياتهم، فقد كان يبدو غير قادر على الامتثال لتلك النصائح التي كان يسديها لمرضاه، بعد أن رزئ بموت زوجته قبل عام من ذلك.

كانت قصة علاقته بفيديريكا بالغة التعقيد. تعارفا منذ بداية طور المراهقة، ونشآ معاً في بدفورد - ستويفيسنت، وهو حيّ بغيض في بروكلين، معروف بتجارة الكراك وبمعدل جرائم قتل قياسي.

رحل والدا فيديريكا اللذان ينحدران من كولومبيا من شوارع ميدلين وهي لا تزال في السادسة من عمرها، دون أن يعلما بأنّهما

يستجيران من الرمضاء بالنار. ولم يكد يمضي عام واحد على إقامتهم بأميركا حتّى أصيب والدها برصاصة طائشة خلال تبادل لإطلاق النار بين عصابتين متناحرتين بالحي. هكذا وجدت فيديريكا نفسها وحيدة مع أمّ غرقت شيئاً فشيئاً في الكحول والمرض والمخدرات...

تردّدت على مدرسة متداعية، تحيط بها القذارة وهياكل السيارات المتفحّمة. كان الهواء ملوّثاً، والجو مكهرباً ومروّجو المخدرات يترصّدون دائماً بزوايا الشوارع.

لمّا كانت في الحادية عشرة من عمرها، باعت هي نفسها، متنكّرة في ملابس الفتيان، المخدرات بمنزل حقير لتوزيع الكراك يقع بشارع بوشويك. كان ذلك لأنّها كانت تعيش ببروكلين وسط الثمانينيات، ولأنّه السبيل الوحيد للحصول على المخدرات التي كانت أمّها بحاجة إليها. علّمتها أمّها القاعدة الأساسية لإجراء الصفقة: ألا تسلّم البضاعة أبداً قبل قبض الدولارات من المشتري.

في الثانوية الإعدادية التقت بغلامين أصغر منها بقليل وجدتهما مختلفين عن الآخرين: سام غالواي وشايك باويل. كان سام يمثل مثقف الصفّ، إذ لم يكن الكتاب يفارق يده، وكان طفلاً وحيداً ربّته جدّته. كان أيضاً الطفل «الأبيض» الوحيد بالمدرسة، وهو ما كان يجرّ عليه كثيراً من العداوات في هذا المكان ذي الغالبية الأفرو أميركية.

أمّا شايك، فقد حبته الطبيعة بقوة خارقة. كان وهو في الثالثة عشرة ضخم الجثة شأن معظم راشدي الحي، لكنّه كان يخفي خلف مظهر الولد الشرير هذا حسّاً مرهفاً.

اتّحد الثلاثة لكي يتمكّنوا من العيش وسط الجنون المحيط بهم. ونشأت بينهم صداقة دعّمها ما بينهم من تكامل، وعثر كل واحد منهم

على توازنه بفضل الآخرين. الكولومبية والأبيض والأسود: القلب والذكاء والقوة.

نجحوا في البقاء بعيداً عن دوّامات الحي. كانوا قد عاينوا ما يكفي من الويلات التي جرّتها المخدرات الصلبة على محيطهم، وهو ما صرفهم عنها إلى الأبد.

لم يخطر ببال سام وفيديريكا بأنّهما سيغادران هذه البالوعة يوماً. كانت حياة الناس هناك معلّقة بخيط رفيع، وكان خطر الموت المحدّق بهم باستمرار يصرفهم عن التفكير في مشاريع طويلة المدى. لم تكن لهم إذن طموحات حقيقية لأنّ لا أحد من محيطهم كانت له طموحات.

لكن، وبخلاف كل التوقعات، وبفضل الظروف أيضاً، استطاعا تجاوز هذا الوضع معاً. ذلك أن سام ما كاد يتخرّج طبيباً حتّى اصطحب معه رفيقة صباه، وكان طبيعياً أن يتزوجها إذن.

استمرّ الثلج يسقط ندفاً ثخينة وكثيفة، ولم يحوّل سام بصره عن صورة زوجته. كانت فيديريكا تبدو في الصورة قد عقدت جدائل شعرها حول فرشاة طويلة، وهي ترتدي الوزرة التي اعتادت ارتدائها لمّا كانت تمشّط شعرها. وكان سام هو مَن التقط هذه الصورة. لم تكن واضحة تماماً، وهو أمر طبيعي، لأنّه لم يكن من السهل تصوير فيديريكا.

لا أحد في المستشفى مطّلع على أصل سام الاجتماعي، ولم يكن يتحدّث عن ذلك لأحد أبداً. حتّى لما كانت فيديريكا حيّة، لم يكن يعود لذلك العالم الذي تركه إلا نادراً. والحقيقة أنّ التواصل -

على وجه التحديد - لم يكن من مواهب زوجته. فلكي تحتمي من حلكة طفولتها بَنَت لنفسها مبكّراً بفضل الرسم عالماً لا شيء يمكن أن يزعجها فيه. كان ذلك أشبه بقوقعة واقية على قدر من السماكة بحيث إن حذرها لم يخفّ حتّى بعد مغادرتها بيد-سْتويْ بفترة طويلة. ومع مرور الزمن قال سام في نفسه إنه سينجح في «علاجها» مثلما عالج كثيراً من مرضاه، لكن الأمور لم تسِرْ على هذا النحو. ففي الشهور التي سبقت موتها، كثيراً ما كانت تلجأ إلى عالم الرسم والصمت.

وبذلك زاد التباعد بينهما.

إلى أن حلّ ذلك المساء المشؤوم الذي فتح فيه الطبيب الشاب باب البيت ليكتشف أن زوجته قرّرت مغادرة تلك الحياة التي لم تعُد قادرة على احتمالها.

شعر سام فجأة بحالة من الخدر. لم تصدر عن فيديريكا أي علامات واضحة توحي أنها مقدِمة على الانتحار، بل كانت تبدو خلال تلك الأيام الأخيرة أكثر هدوءاً. وهو يُدرك الآن مبعث ذلك الهدوء حيث إنها كانت قد حسمت أمرها، واستسلمت لهذا الحلّ كما لو أنه الخلاص.

مرّ سام بكل المراحل: اليأس، الخزي، التمرد... وهو ما زال حتّى الآن لا يكاد يمرّ يوم دون أن يتساءل:

ماذا كان عليّ أن أفعل ولم أفعله؟

كان الشعور بالذنب الذي ينهشه يمنعه من أن يسلّم بوفاتها. لا سبيل «لإعادة بناء حياته». احتفظ بخاتم الزواج في أصبعه، وواظب على العمل سبعين ساعة في الأسبوع، وكثيراً ما كان يقضي عدّة ليال متتالية في المستشفى. كان يشعر أحياناً بالغضب من فيديريكا، آخذاً عليها اختفاءها دون أن تترك له ما يتمسك به:

لم تترك له كلمة وداع ولا تفسيراً. لن يعرف قطّ على وجه التحديد ما الذي قادها إلى القيام بعمل شخصي وحميمي كهذا، لكن الأمور اتّخذت هذا المجرى. هناك أسئلة تظلّ بلا أجوبة هكذا، وينبغي أن يقبلها كما هي.

هو يعلم في قرارة نفسه بالطبع أنّ زوجته لم تُشفَ تماماً من طفولتها. ظلّت تعيش بذهنها في أجواء حي بيد-سْتويْ الفقيرة، محاصرة بالعنف والخوف وشظايا زجاجات الكراك.

هناك جروح لا تندمل ولا تشفى، وهي حقيقة عليه أن يتقبّلها حتّى وإن كان يصرّح يومياً لمرضاه بعكس ذلك.

تردّدت تحت ثقل الثلج في أقصى المقبرة طقطقة شجرة عجوز.

أشعل سام سيجارة، ومضى كعادته كلّ أسبوع يحكي لزوجته أهمّ الأحداث التي وقعت له في الأيام الأخيرة.

توقّف بعد هنيهة عن الكلام، واكتفى بوجوده هناك إلى جوارها مستسلماً للذكريات التي حاصرته. كان البرد القارس يلفح وجهه، وشعر بنفسه على خير ما يرام لمّا لفّته دوامة من ندائف الثلج فكست شعر رأسه ولحيته الناشئة. إنه بصحبتها.

تنتابه في بعض الليالي أحياناً، بعد فترات مداومة مرهقة، إحساسات غريبة أقرب إلى الهلوسة: يتهيّأ له سماع صوت فيديريكا، وتتراءى له في إحدى زاويا الغرفة أو في منعطف أحد ممرّات المستشفى. كان يعلم جازماً بأنّ كل هذا غير حقيقي، لكنّه كان يرتضي ذلك كما لو كان وسيلة ليشعر بأنها لا تزال برفقته.

ولمّا اشتدّ به البرد، قرّر أن يعود أدراجه إلى السيارة، لكنّه ما كاد يخطو بضع خطوات حتّى رجع على عقبيه فجأة.

- كنت أرغب منذ زمن طويل أن أقول لك شيئا يا فيديريكا...

وتقطّع صوته.

- شيء لم أبُح لكِ به قطّ... لم أبُح به لأحد...

توقّف لحظة كما لو أنه لم يكن قد حسم أمره بعد في الاسترسال في هذا البوح.

أيلزم البوح بكل شيء للمحبوب؟ لم يكن يؤمن بهذا، لكنّه واصل مع ذلك.

- لم أبح لكِ بهذا لأنّك... إن كنت فعلاً هناك في الأعلى، فلا شكّ أنك تعرفينه.

لم يشعر بقوة حضور زوجته مثلما شعر بها هذا الصباح. لعلّ مردّ ذلك لهذا المنظر الأخاذ، لكلّ هذا اللون الأبيض المحيط به، والذي يشعره هو أيضاً بأنّه موجود في وسط السماء.

تحدّث إذن دون انقطاع لمدّة طويلة، واعترف لها أخيراً بما كان يعصر قلبه منذ سنوات.

لم يكن الأمر يتعلّق بخيانة زوجية ولا بمشكل بينهما ولا بقضيّة مالية. كان الأمر يتعلّق بشيء آخر.

أمر أخطر بكثير.

حين فرغ من بَوْحه، شعر بالسلوى والإنهاك في آنٍ واحد.

وقبل أن يقفل راجعاً إلى السيارة، استجمع قواه وقال:

- كل ما أتمناه هو أن تكوني لا تزالين ثابتة على حبّي...

3

أن ينقذ المرء حياة إنسان أشبه بالوقوع في الحب: لا مخدّر أفضل من هذا. إثر ذلك يسير لأيام في الشوارع فيلاحظ أنّ كل شيء تغيّر. يتهيّأ له أنّه صار خالداً، كما لو أن حياته هي التي أُنقِذت.

مقتطف من فيلم «القبر المفتوح» لمارتن سكورسيسي

شارع مستشفى ماتيوس
الخامسة والربع مساء

أنهى سام جولته على مرضاه بزيارة الغرفتين نفسيهما. كان يترك هذين المريضين إلى نهاية الجولة، ربّما لأنّه يتابعهما منذ زمن بعيد، فانتهى به الأمر ربّما، من دون أن يُقرّ بذلك، إلى أن صار يعاملهما كما لو كانا من أقربائه.

دفع بلطف باب الغرفة 403 من مصلحة أمراض سرطان الأطفال.

- مساء الخير أنجيلا.

- مساء الخير دكتور غالواي.

إنها مراهقة في الرابعة عشرة من العمر، نحيلة وشاحبة، جالسة القرفصاء على السرير الوحيد الموجود في الغرفة وقد وضعت على ركبتيها حاسوباً بألوان فاتحة بهيجة.

- هل من جديد هذا اليوم؟

حكت له عن يومها بأسلوب ساخر. كانت في وضعية دفاع دائماً، وكانت تكره أن ينظر لها الآخرون بعين العطف، وتبغض أن يشفقوا من مرضها. لم تكن لها أسرة بالمعنى الحقيقي للكلمة. فقد تُخُليّ عنها عند ولادتها بمستشفى الولادة بمدينة صغيرة من مدن نيوجرسي. كانت طفلة متمرّدة وغير اجتماعية، تقاذفتها الملاجئ والأسر طويلاً، وقضى سام وقتاً طويلاً ليظفر بثقتها. وبما أنّها أقامت عدّة مرات بالمستشفى في الماضي، فقد كان يستدعيها أحياناً لتُطمئِن الأطفال الذين يصغرونها قبل خضوعهم لعلاج أو جراحة.

وكعادته لمّا كان يراها تضحك، فكّر أنه من الصعب تخيّل الخلايا السرطانية وهي بصدد اجتياح دمها.

فقد كانت الطفلة تعاني من نوع خطير من سرطان الدم، وسبق لها أن تعرّضت لعمليتي زرع، لكن جسدها كان يرفض النخاع المزروع.

- هل فكّرتِ فيما قلته لك؟

- بشأن العملية الجديدة؟

- نعم.

لقد بلغ بها المرض إلى مرحلة إن لم تخضع فيها لعملية أخرى، فستجتاح الخلايا الأرومية كبدها وطحالها، وتتسبّب في موتها.

- لست أدري ما إذا كنت أملك القوّة لتحمّل ذلك يا دكتور. هل يلزمني القيام بعلاج كيميائي آخر؟

- نعم، للأسف. ينبغي أيضاً عزلك في غرفة معقّمة.

كان بعض رفاق سام لا يوافقونه في إصراره على علاجها، ويرون أنّ من الحري به أن يتركها تعيش بسلام آخر لحظات حياتها.

فقد كان جسدها على قدرٍ كبير من الإنهاك بحيث إن نسبة نجاح عملية جديدة لا تتجاوز خمسة بالمئة، لكن سام كان متمسكاً بها بحيث لم يكن يتصوّر فقدانها.

قال في نفسه: حتّى لو كانت نسبة علاجها واحد على مليون، لن أتردّد في خوض التجربة.

- سأفكر في الأمر يا دكتور.

- بالطبع، تريّثي. أنت صاحبة القرار.

كان يلزم التأني. فقد كانت أنجيلا شجاعة، لكنّها لم تكن صلبة.

تفحّص سام بطاقة المتابعة الطبية اليومية وأشّر عليها، ثمّ همّ بالخروج لما بادرته قائلة:

- انتظر يا دكتور.

- ماذا؟

نقرت الفتاة على شاشة حاسوبها فشغّلت الطابعة التي أخرجت ورقة عليها رسم غريب. كان سام قد شجّعها لكي تنسى مرضها على ممارسة مختلف الأنشطة الفنية، فصار التصوير والرسم يساعدانها في الآونة الأخيرة على تحمّل كآبة حياتها اليومية.

نظرت إلى عملها باهتمام، ومدّته راضية إلى سام.

- خذْ، لقد رسمته لك.

تناول الورقة وتفحّصها باندهاش، إذ ذكّرته الدوامات الأرجوانية التي تكتسح فضاء الورقة ببعض رسومات فيديريكا. كانت تلك هي المرّة الأولى التي ترسم فيها حسب علمه رسوماً لاتصويرية. همّ بأن يسألها عمّا يمثّله ذلك، لكنّه تمالك نفسه لما تذكر أن زوجته كانت تكره أن يُطرح عليها هذا السؤال.

- شكراً لك، سأزيّن بها مكتبي.

طوى الورقة ووضعها في جيب وزرته. كان يعلم بأنّها لم تكن تحبّ الثناء عليها، فأعرض عن ذلك، واكتفى بأنْ قال وهو يتّجه نحو الباب:

- نامي جيداً.

- سأموت، أليس كذلك؟

توقّف عند عتبة الباب تماماً والتفت إليها. ها هي أنجيلا تناديه من جديد:

- إن لم يزرعوا لي هذا النخاع العظمي من جديد، سأموت؟

قفل راجعاً إليها بمهل وجلس على حافة السرير. راحت تنظر إليه بمزيج من التجاسر والوهن، وكان يعلم بأنّ مظهر التحدّي هذا يخفي كثيراً من الجزع.

فقال موافقاً:

- نعم، قد تموتين.

سكت هنيهة ثم أضاف:

- لكن ذلك لن يحدث.

ثم قال:

- أعدك بذلك.

*

مقهى ستاربكس - الشارع الخامس

الرابعة وتسع وخمسون دقيقة

- كوب كابوتشينو كبير وفطيرة بالتوت البري من فضلك.

- في الحال.

بينما كانت جولييت تلبّي طلب زبونها، مضت تنظر من خلال الزجاج: توقّف الثلج عن السقوط منذ الضحى، لكن البرد والريح ظلا يشلان المدينة.

- تفضّل.

- شكراً.

ألقت نظرة على ساعة المقهى الجدارية: لم يفضل لها غير دقيقة وتنهي الخدمة.

- أعطني إكسبرسو ماكياتو وزجاجة إيفيان.

- في الحال.

إنها آخر زبونة في آخر يوم عمل، وفي غضون يومين وداعاً نيويورك!

قدّمت لإحدى بنات الهوى الفاتنات ما طلبته من مشروبات، فاستدارت وانصرفت دون أن تشكرها.

لمّا كانت جولييت تصادف النساء النيويوركيات في المقهى أو في الشارع، كانت تنظر إليهن بفضول وغيرة. كيف السبيل لمقاومة هؤلاء النساء ذوات القدود الممشوقة المعتدلة، اللابسات على غرار مجلات الموضة، العارفات بكل القواعد والأعراف؟

قالت في نفسها: إنهن يتحلّين بكلّ ما لا أتّصف به أنا: متألّقات، رياضيات، واثقات من نفوسهن... يتحدّثن بوثوق ويعرفن كيف يستعرضن محاسنهن وكيف يُخضعن الرجال... لا سيما وهنّ ينعمن «بالأمن المالي»، أي يحظين بعمل جيّد يدرّ عليهنّ مداخيل وفيرة.

قصدت مستودع الملابس ونزعت بذلة النادلة ثمّ عادت إلى قاعة

المقهى الواسعة وفي نفسها شيء من الخيبة، ذلك أنّ ليس بين العاملات من تمنّت لها حظّاً سعيداً «good luck» قبل انصرافها.

أومأت بيدها باتّجاه الكونتوار، لكنّهم أجابوها بحركة فاترة، فانتابها ذلك الشعور الدائم بأنّها غير مرئية.

عبرت الصالة الواسعة لآخر مرّة. وبينما كانت تهمّ بالخروج، ناداها صوت قرب المدخل بالفرنسية:

- آنسة!

رفعت جولييت بصرها نحو رجل خطّ المشيب رأسه وكست وجهه لحية تأنق في حلاقتها. كان جالساً إلى طاولة قرب النافذة. رغم كبر سنّه، كان كلّ شيء فيه يشي بالقوة: كتفان عريضان وقامة طويلة يجعلان أثاث المقهى يبدو أمامه في منتهى الصغر. تعرف الشابة الفرنسية هذا الزبون، فقد كان يتردّد على المقهى أحياناً، ولا سيما في وقت متأخر من المساء، بل إن جولييت سمحت له مراراً، لما يكون رئيسها غائباً، بإدخال كلبه الأسود الضخم ذي الاسم الغريب: كوجو.

- لقد جئت لتوديعك يا جولييت. تهيّأ لي أنّك ستعودين قريباً إلى فرنسا.

- كيف علمت ذلك؟

اكتفى بأن ردّ:

- سمعت بالأمر.

أشعَرَها كلام الرجل بالطمأنينة والخوف في الآن نفسه. كان انطباعاً غريباً.

أشار إلى كوب أمامه وهو يقول:

- لقد سمحت لنفسي أن أطلب لك عصير تفاح ساخن.

ذهلت جولييت إذ بدا لها أن الرجل يعرفها جيّداً رغم أنّها لم تتحدّث إليه قط في السابق. شعرت بنفسها أمامه ككتاب مفتوح.

قال:

- اجلسي لحظة.

تردّدت ثم تجرّأت على النظر إليه مطوّلاً، لكنّها لم تلحظ في عينيه أيّ عداء، بل مجرّد مزيج من الحسّ الإنساني العميق والتعب الشديد فضلاً عن شعلة ملتهبة تعذّر عليها تأويلها.

وقرّرت أخيراً أن تجلس قبالته، وأخذت رشفة من عصير التفاح.

كان الرجل يعلم أنّ الشابة الفرنسية تخفي وراء مظهر المرح النشيط شخصيّة ضعيفة متردّدة.

لم يكن يودّ مباغتتها، لكنّه لم يكن يملك كثيراً من الوقت. كانت حياته معقّدة وأيامه طويلة ومهمّاته ليست دائماً ممتعة، لذلك دخل رأساً إلى لبّ الموضوع:

- ليست حياتك فاشلة بخلاف ما تظنّين...

- لماذا تقول لي هذا؟

- لأنّ هذا هو ما تردّدينه كلّ صباح أمام المرآة.

جفلت جولييت مصعوقة.

- كيف عرفت هذا...

لكنّ الرجل لم يترك لها المجال لتنهي كلامها، واسترسل قائلاً:

- الحياة في هذه المدينة صعبة للغاية.

قالت مؤيّدة:

- هذا صحيح. كلّ واحد يعدو في ركنه دون أن يأبه بجاره. فالناس يعيشون في الزحمة، ومع ذلك تقتلهم الوحدة.

أجاب وهو يباعد ما بين ذراعيه:

- هكذا هي الأمور. العالم كما هو لا كما نحبّه أن يكون: عالم عادل تصيب فيه الأشياء الطيبة الناس الطيبين...

صمت لحظة قبل أن يضيف:

- إلا أنك امرأة طيبة يا جولييت: رأيتك يوماً تلبّين طلب زبون لم يكن باستطاعته أن يؤدي ثمنه وأنت تعلمين تمام العلم بأنّ الفاتورة ستخصم من راتبك...

ردّت الفرنسية وهي تهزّ كتفيها:

- ليس بأمر ذي بال.

- ليس بأمر ذي بال، لكنّه أمر جليل. فالأمر الصغير ليس عديم القيمة، لكنّنا لا نقدر انعكاسات أفعالنا دائماً حقّ قدرها.

- لماذا تقول لي كلّ هذا؟

- ينبغي أن تكوني على بيّنة من ذلك قبل انصرافك.

- قبل عودتي إلى فرنسا؟

قال وهو يقوم واقفاً دون أن يجيب بوضوح عن سؤالها:

- اعتني بنفسك يا جولييت.

فصاحت به:

- انتظر!

كان عليها أن تستوقفه دون أن تعرف السبب. جرت خلفه، إلا أنّه كان قد غادر المقهى.

كان ثمّة قرب الباب الدوّار شيء من الثلج الذائب لم يُكنس فانزلقت فيه جولييت للمرّة الثالثة ذلك اليوم. فقدت توازنها ومالت إلى الخلف فتمسّكت بصعوبة بذراع رجل كان يبحث عن مكان يجلس فيه وهو يحمل صينية في يده.

جذبته للأسف خلال سقوطها، فهويا معاً على الأرض وتلطّخت ملابسه بالكابتشينو الملتهبة.

هذه هي أنا! الخرقاء التي تتوق لرشاقة «أودري هيبورن» لكنّها تجد نفسها دائمًا ساقطة على الأرض.

قامت واقفة بسرعة وقد تورّدت من الخجل، واعتذرت بلباقة لزبونها الذي هدّدها وقد استشاط غضباً بمقاضاتها، ثمّ أسرعت إلى الخارج.

في الشارع كانت مانهاتن قد استعادت حركتها المعتادة. عادت المدينة إلى ازدحامها وتوتّرها. اختلط قرب المقهى صخب آلة إزاحة الثلج بهدير حركة المرور. ثبّتت جولييت نظارتها ونظرت بإمعان نحو الشمال ثمّ نحو داونتاون.

لكن الرجل كان قد اختفى.

*

في تلك اللحظة نفسها، استقلّ سام المصعد ليرتقي أربعة طوابق ويجد نفسه أمام باب الغرفة 808.

- مساء الخير يا ليونار.

- ادخل يا دكتور.

لم يكن هذا الشخص الأخير الذي يختم به جولته في الواقع من مرضاه. فقد كان ليونار ماكوين أحد أقدم المقيمين بشارع ماتيوس، التقى به سام في السنة السابقة ذات ليلة من ليالي الحراسة. أصيب العجوز ماكوين بالسهاد، فتسلّل إلى سطح المستشفى ليدخّن سيجارة. كان هذا العمل ممنوعاً منعاً كلياً بالطبع لا سيما وأنّ ماكوين كان يعاني من سرطان بالرئة في أطواره الأخيرة. فلمّا التقاه سام هناك، منعته

لباقته من توبيخه كما لو كان صبياً عاصياً. اكتفى بأن جلس قربه، وتحدّثا لحظة في جوّ المساء البارد. ومنذ ذلك الحين دأب سام على زيارته بانتظام لتقصّي أخباره، وصار الرجلان يتبادلان مشاعر التقدير.

- كيف تشعر اليوم إذن؟

- اعتدل ماكوين قليلاً في سريره وقال بنبرة متجاسرة:

- أتعلم يا دكتور؟ لا يشعر المرء بالحياة أبداً مثل شعوره بها لمّا يكون على حافة الموت.

- لم تبلغ هذا الطور بعد يا ليونار.

- لا تُتعب نفسك يا دكتور. أنا أعلم أنّ نهايتي وشيكة.

وكما لو أراد أن يثبت صحّة قوله انتابته نوبة طويلة من السعال تشهد على تدهور حالته الصحية.

ساعده سام على الجلوس في كرسي متحرّك ودفعه قرب النافذة.

هدأ سعال ماكوين، وراح يراقب مبهوراً المدينة الممتدّة تحته. كانت المستشفى تجاور ضفة إيست ريفر، يرى منه مقرّ الأمم المتحدة المنتصب عالياً، المكسو بالرخام والزجاج والصلب.

- قل لي يا دكتور، ألا تزال أعزب؟

- أرمل يا ليونار. شتّان بين الأعزب والأرمل.

- أتعرف ما يلزمك؟ مباراة في رفع السيقان إلى الأعلى. سيجعلك ذلك أقل رزانة. ليس من الجيّد في مثل سنك ألا يستعمل المرء أنبوبه، أظنّك فهمت قصدي...

لم يستطع سام تمالك نفسه من الابتسامة:

- شرح الواضحات من المفضحات يا ليونار.

- جديّاً يا دكتور، أنت بحاجة إلى من يملأ عليك حياتك.

تنهّد سام:

- ما زال الوقت مبكّراً. ذكرى فيديريكا...

لكن ماكوين لم يمهله حتى يُنهي كلامه:

- مع كلّ ما أكنّ لك من احترام، لا تتعبني يا دكتور بقصة فيديريكا. لقد تزوجتُ ثلاث مرات، وأستطيع أن أؤكّد لك أنّك إن أحببت حقّاً مرّة في حياتك، فأنت قادر على أن تحبّ من جديد.

- لست أدري...

وأشار العجوز إلى المدينة الغاصّة بالناس تحته.

- لا تقل لي إنك لم تعثر على شخص من بين سكان مانهاتن الذين يقدّرون بالملايين تستطيع أن تحبّه حبّك لزوجتك.

- أعتقد أنّ الأمر ليس بالسهولة التي تظنّ يا ليونار.

- وأنا أعتقد أنّك أنت من تعقّد الأمور يا دكتور. لو كنتُ في مثل سنّك وصحتك، لما قضيت أمسياتي في الحديث مع عجوز مثلي.

- لهذا سأتركك يا ليونار.

- قبل أن تغادر، لديّ شيء أقدّمه لك يا دكتور.

فتّش في جيبه وأخرج رزمة صغيرة من المفاتيح مدّها له.

- إن حدّثك قلبك يوماً، فمُرّ على بيتي. قبوي مليء بقناني النبيذ الفاخر التي ادّخرتها ببلادة عوض شربها.

صمت هنيهة ثمّ غمغم كما لو كان يحدّث نفسه:

- نتصرّف بغباء أحياناً.

- أنا لست ميالاً لـ...

أجاب ماكوين متضايقاً:

- انتبه، الزجاجات ليست زجاجات نطل، بل خمور فرنسية معتّقة تساوي قيمتها ثروة، أفضل بكثير من نبائذ أميركا الجنوبية وكاليفورنيا. يسعدني حقاً أن تشرب نخب صحتي، عِدني بذلك.

أجاب سام مبتسماً:

- أعدك.

ورمى ماكوين بالمفاتيح لسام أي التقطها في الهواء.

- عِمت مساء يا ليونار.

وبينما كان يغادر الغرفة، فكّر فيما قاله له ليونار: لا يشعر المرء بالحياة أبداً مثل شعوره بها لمّا يكون على حافة الموت.

4

يحبّ المرء أن يكون على حالٍ غير حاله.

ألبير كوهين

- أأنتِ هنا يا كولين؟

فتحت جولييت باب شقّتها وهي تحاذر أن تسقط الأطباق الصينية وزجاجة النبيذ التي اشترتها ببقشيش الأسبوع.

- أنا من يناديك يا كولين، أرجعت؟

كانت رفيقتها في الشقّة قد هاتفتها بالمقهى قبيل الظهر لتخبرها بأنّ المقابلة جرت على خير ما يرام، وأنهم قد شغّلوها، وبذلك قرّرت الشابتان الاحتفال معاً بالمناسبة.

- أأنت هنا؟

لم تلقَ من جواب سوى مواء جان كامي الذي هبّ من الغرفة وجعل يحتكّ بقدميها وهو يخرخر من الفرح.

وضعت جولييت العلب على مائدة المطبخ وهرعت إلى الصالون حيث تركت المدفأة مشغلة.

أغلقت عينيها لفترة طويلة وهي تضغط نفسها إلى جهاز التدفئة المضبوط على أقصى قوته، فشعرت بموجة من الحرارة تصعد عبر قدميها لتجتاح جسدها بكامله.

همم. . . هذا أفضل من أيّ رجل!

حلمت لحظة وهي مغلقة العينين بأنّها موجودة في عالم مثالي: عالم بقي فيه ما يكفي من الماء الساخن في خزان السخانة لكي تستحمّ عند مغادرة العمل.

لكن لا ينبغي المبالغة في الطلب.

لمّا فتحت عينيها انتبهت إلى أن مؤشّر جهاز الردّ على المكالمات يومض، فتركت المدفأة على مضض لتطّلع على مكالماتها.

«لديك رسالة جديدة:

مرحباً جولييت، أنا كولين، آسفة، لن أعود إلى البيت هذا المساء، ولن يخطر على بالك السبب. لقد دعاني جيمي لقضاء يومين بباربادا! أتصدّقين: بار-باد! إذا لم تتح لنا فرصة اللقاء قبل سفرك، أتمنى لك عودة طيبة إلى بلدك».

وانتاب جولييت شعور عميق بالخيبة.

هذه هي الصداقة على الطراز الأميركي: تقتسم شقّة مع شخص لثلاث سنوات، وفي لحظة الوداع، كلّ ما يتركه لك لا يتجاوز جملتين على جهاز الردّ على المكالمات!

لكن عليها ألا تحلم. فكولين تفضّل بالطبع قضاء عطلة الأسبوع مع خطيبها على أن تمضيه معها! راحت جولييت تجول في الغرفة وقد ملأها التذمّر ثمّ توقفت أمام الصور العديدة التي تؤرّخ للحظات المهمّة من حياتهما.

لمّا حطّت بمنهاتن، كان لكلّ واحدة من الشابتين هدفها المحدّد: ترغب كولين في أن تصير محامية في حين تحلم جولييت بأن تصبح ممثّلة. وحدّدتا لنفسيهما ثلاث سنوات لتحقيق حلمهما،

والنتيجة هي أنّ إحداهما نجحت في الحصول على شغل بمكتب مرموق بينما تشتغل الأخرى نادلة!

سينتهي الأمر بكولين إلى أن تصير شريكة بفضل مثابرتها وإقبالها على العمل. ستكسب مالاً وفيراً، وستقتني ملابسها من DKNY، وتشتغل في أجواء مريحة بمكتب واقع في أحد الأبراج الزجاجية. ستحقّق ما كانت تصبو إليه: إطاراً من الأطر النسائية السامية اللواتي تبدين دائماً مستعجلات ومتمنّعات، واللواتي دأبت على رؤيتهنّ كل صباح في بارك أفنيو.

لامت جولييت نفسها على غيرتها من رفيقتها في الشقّة، لكن الفارق بين نجاح رفيقتها وفشلها كان صارخاً بحيث أشعَرَها بألم في بطنها.

كيف ستكون حياتها لما تعود إلى فرنسا؟ فيمَ سيفيدها دبلوم الآداب الكلاسيكية؟ هذا فضلاً على أنّها مضطرّة في بادئ الأمر للرجوع إلى بيت والديها! فكّرت أيضاً في أختها أوريليا التي تعيش حياة أسرية ومهنية مستقرة رغم أنها تصغرها. فهي تشتغل معلّمة، وقد لحقت بزوجها الدركي الذي نُقل إلى ضواحي ليموج. وهما ينتقدان حياة جولييت «البوهيمية»، ويعتبرانها غير مسؤولة.

لقد نجح كثير من أصدقائها القدامى في حياتهم، وامتَهَن معظمهم مِهناً محترمة، يقومون فيها بمهامّ يقال إنّها مبدعة، يحقّق فيها المرء ذاته: شأن الهندسة والهندسة المعمارية والصحافة وعلوم الحواسيب... وهم متزوجون، حصلوا على قرض لشراء منزل، ولديهم طفل أو طفلان يلعبان في المقعد الخلفي لسيارة رونو ميغان.

أما جولييت، فلم يكن لها شيء من كلّ ذلك: لا مهنة قارّة ولا حبيب ولا صبي. كانت تعلم أنّ سفرها إلى نيويورك لتجرّب حظها

كممثلة رهان عبثي. ثمّ إنّ كلّ مَن كانوا يحيطون بها ردّدوا ذلك على مسامعها مراراً: إنّه قرار غير حكيم. والحقيقة أنّ الوقت لم يكن مناسباً للمجازفة. كان الوقت وقت حذر وحيطة وتجنّب المخاطرة. والمجتمع يوصي بالاحتراس والانخراط في أنظمة تقاعد منذ سنّ الخامسة والعشرين، واتّقاء كاميرات مراقبة السرعة، والانخراط في التأمين الإجباري...

لكن جولييت لم تنصت لأحد. كانت تقول في نفسها إنّها ستعتمد على حسن طالعها، وستُذهلهم لمّا يقرؤون يوماً على غلاف مجلة **باري ماتش**: شابة فرنسية تحصل على دور رئيس في هوليوود!

لم تستسلم يوماً، وكافحت بما أوتيت من قوة، لكن فرط طيبتها ونبلها حالا ربّما دون نجاحها. كانت الأمور ستكون أسهل لو كانت «ابنة...»، لكن أباها كان يُدعى جيرار بومان، يشتغل نظاراتياً بـ«أولناي-سو-بوا».

أكانت تعوزها الموهبة؟ لكن، إذا لم تثق هي بنفسها، فمَن سيثق بموهبتها؟ كثير من الممثلين والممثلات قاسوا الأمرّين قبل أن يبلغوا المجد: لقد مثّل توم هانكس لسنوات في مسارح حقيرة، وميشال بفيفر اشتغلت أمينة صندوق في الأسواق الممتازة، وباسينو رفضوا السماح له بالدخول إلى آكتور استوديو، وشارون ستون لم تحظَ بدورها المهمّ الأول إلا في وقت متأخّر، وبراد بيت باع السندويتشات في أحد الأسواق الكبرى وهو متنكّر في صورة دجاجة.

مع ذلك فالأهم بالنسبة إلى جولييت، وهو ما لا يفهمه أحد، هو أنّها لا تشعر بنفسها حيّة إلا لمّا تمثّل. لا فرق بين أن يكون ذلك في مسرحية جامعية، أو أن تكون القاعة خالية إلا من متفرجين اثنين: لا تشعر بوجودها إلا عندما تؤدي دوراً. هي لا تشعر بأنّها هي إلا لمّا

تصير غيرها، كما لو أن في نفسها فراغاً ينبغي أن يُسدّ، كما لو أن الحياة الحقيقية لم تكن تكفيها. وفي كل مرّة كانت تقول هذا في نفسها، كان يدور بخلدها أن هذا البحث عن بديل للواقع يمثل ولا شكّ ظاهرة مرضيّة.

طردت هذه الأفكار السوداوية من ذهنها وهي تدندن بكلمات أزنفور: «رأيت نفسي في أعلى الملصق...» دخلت إلى غرفة كولين وهي لا تزال تدندن. كانت الملابس الثمينة التي اشترتها رفيقتها في الشقّة لاجتياز مقابلة التشغيل مطوية بعناية على الكرسي. إنه استثمار فيه مجازفة، لكنّها ستستردّ قيمته. ولم تستطع أن تقاوم الرغبة في قياسها. إنها بمقاسها تماماً، ذلك أنها كانت وكولين بالقوام نفسه تقريباً.

نزعت جوليت سروال الجينز والقميص القديم، وارتدت بذلة رفيقتها الرمادية (Ralph Lauren). ألقت نظرة خاطفة في المرآة، وقالت:

لا بأس بها.

لبست أيضاً بلوزة سوداء من الكاشمير بياقة طويلة، ومعطفاً صوفياً طويلاً، وانتعلت حذاء (Ferragamo) بلا كعب.

انساقت وراء نزوتها فتجمّلت قليلاً: وضعت قليلاً من البودرة على وجهها، وشيئاً من الماسكارا، ثم كحّلت عينيها.

- هيّا يا مرآتي الفاتنة، قولي لي مَن الأجمل؟

اندهشت من تغيّر صورتها. ما أشبهها في هذه الحلّة بامرأة أعمال! اللبوس تصنع قَطْعاً القسوس.

تذكّرت وهي مصعوقة ذلك الفيلم الذي استَبدَل فيه دوستين

هوفمان ملابسه مقابل ملابس امرأة، وخلق بذلك دور حياته.

تمادت في جرأتها وقالت للمرآة:

- جولييت بومان، تشرّفنا. أنا محامية.

نزلت وهي بهذه الحلّة السلم بعد أن دعاها جان كامي الذي كان يطلب وجبته.

وصبّت في الإناء محتوى طبق صيني.

- خُذْ، إنه لذيذ: لحم دجاج بخمسة عطور وأرز تايلاندي.

مسحت على رأس القطّ الذي مضى يخرخر من الفرح، وأعلنت:

- جولييت بومان، تشرّفنا. أنا محامية.

وفجأة قررت ألا تمضي السهرة بمفردها كما لو كانت عانساً. ماذا لو أمتعت نفسها بمسرحية صغيرة؟ كوميديا موسيقية ببرودواي مثلاً. ذلك أنّ مسارح تايمز سكوير يعرضون أحياناً البطاقات التي لم تبع بأثمنة معقولة. ولا شكّ أنّ كثيراً من الناس سيُعرِضون عن الذهاب إلى المسارح بسبب الثلوج. إنّه أنسب وقت لكي تجرّب حظّها. لماذا لا تذهب إلى مسرحية **شبح الأوبرا** أو **القطط**؟

نظرت من جديد إلى نفسها في مرآة الحمام، ووجدت صورتها لأول مرّة جميلة. صاحت بنبرة مسرحية:

- آسفة يا جان كامي، نيويورك تنتظرني!

صعدت ثانية إلى غرفة كولين وتناولت وشاحها (Burberry) وخرجت في ذلك الليل المشرق وقد عقدت العزم على الاستمتاع بساعاتها الأخيرة في مانهاتن...

5

جميع الناس في نيويورك يبحثون عن شيء ما. يبحث الرجال عن النساء، وتبحث النساء عن الرجال. جميع الناس في نيويورك يبحثون عن شيء ما.. ومن وقت لآخر يعثر أحدهم على بغيته.

دونالد ويستلايك

كان سام مستغرقاً في أحد الملفات لمّا ربتت الممرضة بيكي على كتفه وقالت وهي تومئ إلى جدول مواقيت العمل:

- لقد انتهت فترة خدمتك يا دكتور.

فردّ سام كما لو كان يطلب إكراميّة:

- لم يفضل لي غير حالة واحدة سأفحصها.

فأجابت وهي تسحب منه الملف:

- أنت من ينبغي أن يُفحص، عُدْ إلى بيتك يا دكتور.

امتثل سام وقد افترّ فمه عن ابتسامة خفيفة.

وبينما كانت بيكي تراقبه وهو يبتعد، همست إحدى المتدربات في أذنها:

- يا له من رجل جذّاب. . .

- أزيليه من ذهنك يا عزيزتي، لا حظّ لك في الفوز به.

- أهو متزوج؟

- الأمر أدهى من ذلك. . .

فتح سام باب قاعة الراحة المخصّصة للعاملين بالمستشفى. علّق وزرته المكمشة على مشجب، ووضعها داخل خزانته الحديدية. عدّل ربطة عنقه وارتدى سترته ومعطفه الثقيل، لكن دون أن يلقي نظرة على صورته المنعكسة في المرآة: لقد مضى زمن طويل على تخلّيه عن كلّ رغبة في الإغراء، دون أن يراوده شكّ في أنّ هذا هو تحديداً ما يجعله جذّاباً في عيون كثير من النساء. دلف إلى المصعد برفقة ممرض آسيوي يدفع نقالة. لم يكن الغطاء الذي يغطي جسد المريض بكامله يترك إلا قليلاً من الشك حول حالته الصحيّة. بحث الممرض عن مزحة، لكن نظرة سام الواجمة صرفته عن ذلك. وانفتح الباب في الطابق الأرضي على البهو الواسع الصاخب الذي يشبه منطقة ركوب المسافرين بالمطار. لم يستطع أن يمنع نفسه من إلقاء نظرة على قاعة الانتظار بمصلحة الطوارئ: كانت غاصّة.

سيزداد الأمر سوءاً في الساعات القادمة.

كان ثمة رجل عجوز في أحد أركان الحجرة متكوّم في مقعده. كان متدثّراً بمعطفه المتآكل المقاوم للمطر وهو ينظر مرتعشاً إلى الأسماك الغريبة السابحة في الحوض الزجاجي. والتقت نظرات سام بنظرات امرأة شابة. كانت بالغة الهزال تضع ذقنها على ركبتيها وعيناها محمرّتان بالمخدرات أو السهاد، وإلى جانبها طفل منتحب متمسّك بساقها.

ماذا لو بقيتُ للمداومة الليلية؟

*

- ستّ دولارات يا آنستي.

أدّت جولييت المبلغ لسائق التاكسي ذي الأصل الهايتي، وزادت عليه بقشيشاً لكي تشكره على تحدّثه إليها بالفرنسية.

أنزلتها سيارة الأجرة الصفراء في ملتقى برودواي والشارع السادس: بتايمز سكوير، المكان الأكثر حركة بمنهاتن أيّاً كان الوقت من النهار أو الليل.

كانت جولييت تشعر بالانجذاب لهذا المكان كانجذاب قطعة حديد إلى مغناطيس. فقد تركّزت معظم المسارح الكبرى بالمدينة في هذا المثلث الصغير المرصّف الذي تحيط به ناطحات السحاب.

سواء أكان الجو ماطِراً أم عاصفاً أم مُثلجاً، تبقى تايمز سكوير ضاجّة بشاشاتها العملاقة ولوحاتها الإلكترونية الساطعة المثبتة على واجهات المباني. كان المنظر مذهلاً. المسارح وقاعات السينما والمطاعم تجتذب موجات من الزبائن وتنفثهم في جلبة محمومة. اقتنت جولييت كعكاً مملّحاً من أحد الباعة المتجوّلين، وراحت تستمتع بأكله محاذرة أن تلطخ معطف «ها» بالكاتشاب. تطلّعت إلى إحدى الشاشات العملاقة التي تعلن عن برنامج المسرحيات، ثمّ توجّهت إلى المبنى الرخامي الأبيض الذي دأب الناس على الاحتشاد أمامه كلّ يوم الواحد والثلاثين من كانون الأول/ ديسمبر لكي يشاهدوا سقوط التفاحة الضخمة الشهيرة، رمز نيويورك، والتي يعلن سقوطها عن بداية العام الجديد.

رغبت الشابة الفرنسية في أن تستمتع لآخر مرّة بهذا المزيج الأخّاذ من الطاقة والسحر. فرغم تذمّرها من مانهاتن، فقد كانت في قرارة نفسها تعشق هذه المدينة. شتّان بين حياة الحاضرة وحياة البادية! لم تكن تحلم بحياة البوادي الهادئة ولا بالعصافير الصغيرة. كانت

بحاجة إلى الحركة، إلى المتاجر التي تفتح أبوابها ليل نهار، ومنهاتن تشهد على أنّ ذلك ممكن.

كان كل هذا بالطبع مغالياً وسطحياً، أشبه ما يكون بنادٍ ليلي وسط مانهاتن! كان من الممكن أن يجد المرء هذا المكان مريعاً بهذه الإشهارات العدوانية، وهذه الموسيقى الهادرة وتلك الأدخنة المنبعثة من كلّ مكان.

لكنّها تشعر بنفسها هنا حيّة. صحيح أنّ المكان حاشد، لكن المرء لا يشعر فيه بالوحدة على الأقل.

اللعنة، إنها نيويورك، برودواي، **أطول شارع في العالم** كما تصرّح بذلك الدلائل السياحيّة. الشارع الذي يعبُر كل مانهاتن ويتجاوز برونكس...

*

مزّق صوت صفارة إنذار برودة الليل.

أُغلقت من جديد أبواب مستشفى شارع ماتيوس الأوتوماتيكية الثقيلة خلف سام في اللحظة ذاتها التي كانت تدخل فيها سيارة إسعاف بصخب إلى موقف السيارات. وكانت ردّة فعله الأولى هي أنّه فكّر في مساعدة المسعفين، لكنّه أحجم عن ذلك، فالدكتور فريمان، رئيس قسم الطوارئ، كان قد رفض عرضه بالمساعدة في الحراسة بذريعة أنّه لم يأخذ كفايته من النوم في الأيام السابقة.

إنّها المرّة الأولى التي يخرج فيها إلى الهواء الطلق منذ الصباح، ونسي تقريباً عاصفة الليلة السابقة. أشعرته الحرارة المتدنيّة بدوار لا يكاد يُصدّق.

قبل مغادرة باحة المستشفى، أبصر الطاقم الطبي محيطاً

بالحمالة، ويبلغته نتف ممّا كانوا يقولون: حروق من الدرجة الثانية... الضغط 5/8... نبضات القلب 65... سلم كلاسكاو[1] 6... ثمّ تلاشت الأصوات، فالتحق بسيارته.

وضع يديه على المقود، وترك المحرّك مشغّلاً بضع ثوان والسيارة متوقّفة. كان دائماً بحاجة إلى فترة طويلة لكي يفرّغ ذهنه ويحاول نسيان المرضى الذين صادفهم خلال يومه. وهو ما كان يفشل فيه في الأغلب.

كان متعباً على نحوٍ خاص هذا المساء. صعد عبر الشارع الأول منقاداً باتجاه الشمال. كان المرور مزدحماً على نحو غير معهود.

أدار مفتاح المذياع:

«... يقدّر عمدة نيويورك أن كلفة العاصفة ستبلغ عشرة ملايين دولار على الأقل، هذا في الوقت الذي بلغ فيه دين إزالة الأنقاض من الطرقات أربعة عشر مليوناً هذا الفصل.

ما زالت مصالح التجهيز تجد صعوبات إلى حدود الساعة في تحرير الشرايين الرئيسة، وتظل الطرق زلقة للغاية، لهذا ننصحكم بتوخي أقصى درجات الحذر...»

*

شعرت جولييت بنفسها كقطرة ماء جرفها سيل من الحشود تحت أضواء اللوحات الإشهارية الساطعة. صفارات الإنذار وعازفو الشارع والحشود وسيارات الأجرة الصفراء السريعة النافرة... كلّ هذا

---

(1) هو مؤشر يقوّم درجة الوعي لدى المريض، وهو يسمح للطبيب في حالة الطوارئ بأن يعرف الاستراتيجية التي سيتبعها للحفاظ على الوظائف الحيوية. (المترجم)

يُشعرها الآن بشيء من الصداع. رفعت عينيها مبهورة نحو هذه الشاشات المثبتة على كل المباني فانتابها الدوار. كانت هذه الشاشات من الكثرة بحيث لم تعُد تعرف أين توجّه بصرها: أسعار العملات، الفيديو كليبات، صور نشرة الأخبار المتلفزة، توقّعات أحوال الطقس...

شعرت بالحشود تدفعها وهي مستغرقة، فقرَّرت أن تنتقل إلى الرصيف المقابل لعلّها تجد شيئاً من الهدوء. كانت السيارات تمرّ من كل جانب، لكنّها بدت كما لو لم تكن تراها.

*

يتقدّم سام الآن صعوداً في شارع برودواي. أطلق موسيقى جاز قديمة، وراح يستمتع بأنغام الساكسوفون وسط الضجة والمباني الزجاجية. كبح رغبة في التثاؤب وهو يمدّ يده نحو علبة السجائر الموجودة في جيب قميصه. إنّها عادة سيئة ورثها من شبابه. ذلك أن معظم فتيان بيد-ستوي في ذلك الإبان كانوا يشرعون في التدخين في السابعة أو الثامنة من العمر قبل أن يلتفتوا إلى موادّ أكثر إيذاءً. كانت السيارة التي تسير أمامه تضع على زجاجها الأمامي ملصقاً ملوناً، فركّز سام بحركة آلية بصره لعلّه يرى ما كُتب عليها، فقرأ: If you can read this, you're too near[1].. أيقظه صفير بوق سيارة من استغراقه، فلعن السيارة التي تتجاوزه، وفي تلك اللحظة ذاتها وقع بصره على شعار بلوحة تغطي واجهة أحد المباني، تشهر منتوجاً مضاداً للتدخين: عارض أزياء مفعم بالحيوية يرتدي سروالاً قصيراً،

(1) إن تمكّنت من قراءة ما كتب، فهذا معناه أنك اقتربت أكثر من اللازم.

يطري على مزايا الرياضة ويحذّر من مضارّ التدخين مؤكداً: ما زال أمامك وقت لتغيير حياتك!

فقال بصوت مسموع:

- قل هذا الأمر لنفسك!

ما الجدوى من ذلك على كلّ حال؟ يكفيه أنّه غيَّر حياته مرّة واحدة. سحب نفساً عميقاً من سيجارته بتحدّ ولسان حاله يقول إنّه غير عابئ بالموت، وأنّه لا يخاف الربّ ولا الموت: فهو لا يؤمن بالرب ولا يستطيع ردّ الموت.

بينما أعاد الولاعة إلى جيبه، تحسّس بالرسم الذي قدمته له أنجيلا قبل قليل. فتح الورقة فاكتشف على ظهرها زمرة من الرموز السرية الصغيرة لم ينتبه لها من قبل: دوائر ومثلثات ونجوم متداخلة على نحو غامض. ما معنى هذه الرموز الغريبة؟ لم يلحظ سام، الذي كان مستغرقاً، الشابة التي تعبر الطريق أمامه إلا في آخر لحظة.

اللعنة! فات أوان الفرملة لإيقاف السيارة. انحرف بسرعة إلى اليمين، وتضرَّع للرب الذي لم يكن يؤمن به، وصاح بكلّ ما أوتي من قوة:

- حذار!

*

- حذار!

تسمّرت جولييت في مكانها. كادت السيارة تدهسها، فشعرت لأوّل مرّة في حياتها بالموت تحوّم حولها.

جرفت السرعة السيارة الرباعية الدفع فوق الرصيف، وسُمع صرير توقف عجلاتها. كان عدم دوسها لأحد المارة معجزة.

هتفت جوليت بالسائق مع علمها بأنّها تتحمل جزءاً من المسؤولية فيما وقع:

- معتوه! قاتل!

تعالت دقات قلبها في رمشة عين.

كانت لا تزال شاردة كعادتها، لكن هذه المدينة لا تصلح للحالمين، لأنّ الخطر يتربّص في كل مكان...

قال سام:

- اتفُه!

تملّكه الخوف جدّيّاً هذه المرّة، فالحياة يمكنها أن تنقلب في طرفة عين. يعيش المرء دائماً على حافة الهاوية، وهي حقيقة خبرها أكثر من أيّ كان، لكنّها لا تزال مع ذلك تُخيفه.

كان قد قفز من السيارة متأبطاً حقيبته الطبية الموضوعة في متناول يده دائماً على المقعد المجاور.

- أأنتِ بخير؟ لم يصِبْك مكروه؟ أنا طبيب وأستطيع أن أفحصك أو أنقلك إلى المستشفى.

فقالت جوليت مطمئنة:

- لا بأس، ليس بي شيء.

أمسك بذراعها ليساعدها على القيام، فرفعت رأسها إليه للمرّة الأولى.

قبل ذلك بثانية لم يكن لها وجود، وفجأة ها هي أمامه.

فكرّر بارتباك:

- أنت متأكدة من أنك بخير؟

- It's OK.

- هلا قبلتِ دعوتي لشرب كأس عسى يهدّئ ذلك من روعك؟

فردّت جوليت رافضة:

- كلا، شكراً. لا داعي لذلك.

لكن سام ألحّ:

- أرجوك، على سبيل طلب الصفح منك.

أشار إلى الواجهة الهائلة لفندق ماريوت الذي يشرف بهيكله على الجانب الغربي من تايمز سكوير.

- سأركن سيارتي في موقف الفندق وأعود في دقيقة. هلا انتظرتني في البهو؟

- حسناً.

خطا بضع خطوات ليبلغ سيارته، لكنّه بينما كان يخطو، التفت بغتة ثم عاد أدراجه لكي يقدّم نفسه قائلاً:

- اسمي الدكتور سام غالواي. أنا طبيب.

حدّقت فيه واجتاحتها رغبة في نيل إعجابه، وفي اللحظة التي فتحت فيها فمها، علمت بأنها سترتكب حماقة، لكن الأوان كان قد فات:

- تشرّفنا، أنا جوليت بومان، محامية.

6

كان ذلك في طرفة عين، نظرت إليّ دون أن تراني،
وكان ذلك مجداً وربيعاً وشمساً وبحراً دافئاً...

ألبير كوهين

رغم الريح والبرد كانت الحشود لا تزال تتزاحم أمام الفندق. بقيت جولييت لدقائق في البهو تراقب موكب سيارات الأجرة وسيارات الليموزين التي تقلّ المتفرّجين وقد ارتدوا السموكينغ وفساتين السهرة. وما لبث سام أن لحق بها عبر مصعد موقف السيارات.

كان فندق ماريوت بطوابقه الخمسين المشيّدة بالزجاج والخرسانة ثاني أكبر فندق في مانهاتن. لم يسبق لجولييت أن زارت هذا المكان، لذلك أصابها الشدوه وهي تقتحم الباحة الوسطى التي يناهز ارتفاعها أربعين طابقاً. قد تُنسي الإضاءة الساطعة الصادرة عنها المرء للحظة أنّه في عزّ شتاء. تبِعت سام عبر السلم المتحرّك الذي نقلهما إلى الطابق الثاني، ومن هناك استقلا أحد المصاعد الشفافة التي تبدو ككبسولة فضائية تطير عبر البناية. ضغط سام على زرّ الطابق التاسع والأربعين وانطلق سفرهما المدوّخ نحو قمة المبنى.

لم يتبادلا كلمة واحدة... وقال في نفسه وقد شعر بأن الموقف تجاوزه: لماذا دعوت هذه الفتاة؟

- أأنت في سفر عمل بنيويورك؟

أجابت بصوت اجتهدت لتجعله واثقاً:

- من أجل مؤتمر قانوني.

اللعنة، لماذا ادّعيت أنني محامية؟ سيجعلني هذا أعتاد على الكذب.

- ستبقين لفترة طويلة بمنهاتن؟

- سأعود إلى فرنسا غداً مساء.

هذه ليست كذبة على الأقل.

لمّا بلغا الطابق الثلاثين، مالت قليلاً نحو الجدار الزجاجي ونظرت إلى الأسفل فأصابها الدوار، كما لو أنّها كانت معلقة في الهواء.

اللعنة... ليس هذا وقت قيء.

انفتح باب المصعد على ردهة توجد بها مضيفة تناولت منهما معطفيهما، واقترحت عليهما أن تدلّهما على المكان الذي يجلسان فيه.

كانت الحانة ذات المنظر البانورامي تحتل جزءاً كبيراً من الطابق الأخير. ومن حسن حظّهما لم تكن غاصّة، ممّا سمح لهما بالجلوس إلى مائدة مجاورة لنافذة مشرفة على نيويورك.

كانت القاعة مضاءة بنور خافت، وعلى منصة صغيرة راحت امرأة تعزف ألحان جاز بديعة على طريقة ديانا كرال.

نظرت جولييت إلى القائمة: كانت الأثمنة باهظة. طلب سام كأس مارتيني في حين طلبت هي كوكتيلاً مركّباً من الفودكا والتوت البري والليمون الأخضر.

كان الجو هادئاً، إلا أنّها لم تشعر بالراحة طالما أن بالها

مشوّش. وأحست فجأة كما لو أن البناية كانت تهتزّ بشكل لا يكاد يُلحَظ.

انتبه سام لارتباكها، فقال موضحاً وهو يضحك:

- الحانة تدور.

- كيف؟

- الحانة موضوعة على منصة تدور حول نفسها.

قالت وهي تبسم:

- شيء مدهش.

كانت الساعة تشير إلى السابعة وثلاث دقائق.

*

السابعة وثماني دقائق

لاحظت على ضوء الشمعة قسماته المتعبة وعينيه المُلوّنين بالأخضر والأزرق: علامة الشيطان حسب الكنيسة...

لكن هذا لا يمنع من أنه لا بأس به. جورجيوس[1] كما يقول الأميركيون...

ثم إن صوته وديع ومطمئن. تنهّدت بعمق: كان قلبها يخفق بسرعة فائقة بغير إرادتها.

السابعة وإحدى عشرة دقيقة:

هي: هل سبق لك أن زرت فرنسا؟

هو: كلا، لست سوى أميركي جاهل لم يغادر بلده إلا ليقضي عطلته بهاواي.

---

(1) لطيف.

هي: هل تعلم بأنّ لدينا الماء الشروب في كل المنازل تقريباً؟

هو: أتمزحين؟ والكهرباء؟

هي: في المستقبل القريب...

السابعة واثنتا عشرة دقيقة

أعجبه بُعدها عن التكلّف. رغم مظهرها الموحي بأنّها سيدة أعمال، فهي بسيطة وطبيعيّة. كانت تتقن الإنجليزية، لكن بلكنة فاتنة. وكان وجهها يستنير لمّا تبسم.

وكلّما نظر إليها شعر بما يشبه صعقة كهربائية طفيفة.

السابعة وخمس عشرة دقيقة

أكان سيدعوني إلى المقهى لو أنني أخبرته بكوني نادلة؟

السابعة وعشرون دقيقة

لاحظ بأنها ترتعش تحت قميصها القصير، فقام إذن ووضع سترته على كتفيها.

قالت على سبيل المجاملة:

- أقسم لك أنه لا داعي لهذا.

لكن تهيّأ له أنّ وجهها يشي بعكس ذلك تماماً.

فاقترح عليها بهدوء:

- أعيديها لي بعد قليل.

أجدُكِ فاتنة.

السابعة واثنتان وعشرون دقيقة

حديث حول الرجال والنساء.

هي: أنت محقّ، ليس من الصعب نيل إعجاب الرجال. يكفي أن تملك المرأة ساقين طويلين وردفين مكتنزين وبطناً مسطحاً وقدّاً قويماً وابتسامة مثيرة وعيني ظبية وصدراً ممتلئاً ونافراً...

إنه أمر مثير للضحك.

السابعة وخمس وعشرون دقيقة

صمت.

رشفت رشفة من الكوكتيل.

نظر عبر النافذة وخمّن اضطراب المدينة الممتدّة خمسين طابقاً أسفلهما، وهديرها. المدينة البعيدة القريبة.

في اللحظة التي رسا فيها بصره على أظافرها المقضومة، أخفتها بجمع قبضتها. ابتسم لها بمرح.

حتّى وهما لا يتكلمان، كان يدور بينهما حوار بلا كلمات.

السابعة وست وعشرون دقيقة

قولي له.

قولي له الحقيقة الآن.

قولي له إنك لست محامية.

السابعة وأربع وثلاثون دقيقة

هي: فيلمك المفضل؟

هو: **العراب**. وأنت؟

هي: **امرأة البيت المجاور** لفرانسوا تروفو.

حاول أن يكرّر اسم المخرج فنطق بشيء أشبه بـ«فوانسوا تووفو»، مما أثار ضحكها.

هو: لا تسخري منّي.

السابعة وخمس وثلاثون دقيقة

هي: كاتبك المفضل؟ أنا كاتبي المفضل هو بول أوستر.

هو: (بعدم اقتناع): أمهليني لأفكر...

السابعة وأربعون دقيقة

هو: لوحتك المفضلة؟

هي: **القيلولة** لفان غوغ، وأنت؟

وعوض أن يجيب، مدّ لها رسم أنجيلا وشرح لها كيف أنه لولا هذه المزقة من الورق لما كُتب لهما اللقاء أبداً...

السابعة وواحدة وأربعون دقيقة

إذا كان رجل في مثل هذه الوسامة يرغب فيّ، فهذا معناه أنني لست بالقبح الذي أتصوره...

السابعة وثلاث وأربعون دقيقة

هي: طبقك المفضل؟

هو: التشيزبرغر.

هي (تهزّ كتفيها): بفف...

هو: ألديك طبق أفضل منه؟

هي: فطيرة الحلزون بالكبد المشحّم...

السابعة وخمس وأربعون دقيقة

لماذا نصادف آلاف الأشخاص، لكننا لا نلتفت إلا لشخص واحد؟

السابعة وست وأربعون دقيقة

هو: أعرف مطعماً سَيَنال إعجابك: يُعدّون فيه همبرغر رائع بالكبد المشحّم.

هي: إنك تستدرجني.

هو: إطلاقاً، هذا اختصاصهم: خبيزات بجبن بارما المحشو بشرائح اللحم المطهوّة على نار خفيفة، المُعدّة بالكبد المشحم والكمأ الأسود، وتُقدّم جميعها مصحوبة ببطاطسكم المقلية الشهيرة.

هي: توقّف أرجوك، كلامك يشعرني بالجوع.

هو: سأعطيك العنوان.

سآخذك إلى هناك.

السابعة وواحدة وخمسون دقيقة

لعلّه الشخص المناسب لكن في الوقت غير المناسب...

السابعة واثنتان وخمسون دقيقة

هو: المكان المفضل بنيويورك.

هي: سوق الخضراوات الطريّة بأونيون سكوار في فصل الخريف، لما تكون الحديقة مكسوّة بالأوراق المتعدّدة الألوان. وأنت؟

هو: هذا المكان في هذه الليلة برفقتك، وسط غابة ناطحات السحاب هذه، الساطعة ليلاً...

هي: (مبتهجة لكنها ليست بهجة ساذجة): كلام جميل...

السابعة وخمس وخمسون دقيقة

هي: آخر مريض ظلّ عالقاً بذاكرتك؟

هو: عجوز برتغالية تعرّضت لذبحة صدرية منذ أسابيع. لم تكن في الواقع مريضتي، بل كنت مشاركاً في العناية بها. أجرى لها زملائي عملية قسطرة لتمديد الشريان المسدود، لكن قلبها كان ضعيفاً...

توقّف عن الكلام كما لو أنّه كان يستحضر عملية جراحية ما زالت نتيجتها غير مؤكّدة.

هي: لم تستطع تحمّل العملية؟

هو: كلا، لم نستطع إنقاذها. ظلّ زوجها ساهراً لساعات في ليل المستشفى المضطرب. كان يبدو مسكوناً بحزن لا حدود له. سمعته مراراً يغمغم: *Estou com saudades de tu*.

هي: معناها «اشتقت لك»، أليس كذلك؟

هو: بمعنى من المعاني. لما حاولت مواساته، شرح لي بأنّهم يستعملون في بلده كلمة *saudade* للدلالة على الحزن الذي يشعر به المرء على مَن يوجدون في مكان بعيد أو رحلوا، وهي كلمة تتعذّر ترجمتها إلى اللغات الأخرى. ذلك أنّها تدل على حالة نفسية يصعب تعريفها، حزن جليل ينشر ظلاله على الحاضر بأكمله...

هي: وماذا وقع له بعد ذلك؟

هو: مات هو أيضاً بعد مرور بضعة أيام. أصابه الإنهاك بالطبع، لكن لا أحد يستطيع أن يجزم في سبب وفاته. (صمت بضع ثوان قبل أن يضيف) أنا متيقّن أن الإنسان يستسلم للموت إذا لم يعد يشدّه شيء للحياة في هذا العالم...

الثامنة ودقيقة واحدة

هو: آخر دعوى ربحتها؟

هي (بعد تردّد): لا داعي لإضاعة الوقت في الحديث عن العمل...

الثامنة ودقيقتان

صمتا وراحا يُنصتان للعبارات الشبقية التي تردّدها المطربة بصوت ناعم تارة، وخشن أخرى. تتحدّث أغانيها عن الحبّ الناشئ وعن الآثار الناجمة عن الخيبة والحزن والحداد...

الثامنة وخمس دقائق

مضى ينظر إليها وهي تلفّ خصلة من شعرها على أصبعها.

الثامنة وست دقائق

هي: يتهيّأ لي تارة بأنّك شارد لا تنصت إليّ. أهو طوق النادلة المفتوح الذي يفقدك التركيز؟

هو (مبتسماً): لا داعي للومي.

هي: لا تحلم!

وهنا قامت واقفة لتذهب إلى المرحاض.

*

انتبه لمّا بقي بمفرده إلى أنّه كان في غاية الارتباك.

قم وانصرف يا سام. اختف من هنا قبل فوات الأوان.

هذه المرأة خطيرة. عيناها تلتمعان.

يشي وجهها بتعبير وديع صادق جعله ينجذب إليها.

لم يكن مستعدّاً بعد. شعر بنفسه طبعاً قبل بضع دقائق خفيفاً

مبتهجاً قوياً وسعيداً، لكن ذلك لم يكن سوى وهم سرعان ما تبخر بالسرعة نفسها التي ظهر بها.

نظر إلى ساعته وتنفّس بعمق. ولكي يهدئ من روعه، وضع علبة السجائر على المائدة، لكن ذلك زاد من توتّره. كان ثمة قانون شرع العمل به يمنع التدخين في كلّ حانات ومقاهي المدينة. فـ«المدينة التي لا تنام أبداً» خضعت لدكتاتورية تقليص المخاطر إلى حدها الأقصى.

ثمّ فكر من جديد فيما قاله له ماكوين. ما المانع من «مباراة في رفع السيقان»؟ أجل، جماع ممتع إذا شئنا تسمية الأشياء بمسمياتها. فهذا ليس جريمة، لكنّه طرد هذه الفكرة من ذهنه: ما يشعر به نحو هذه الفتاة لا يعدو أن يكون نزوة جنسية.

وهذا هو جوهر المشكلة...

أغلقت جولييت على نفسها باب المرحاض وقد تملّكها الهلع.

ماذا جرى لي؟ لا يمكن أن تسقط في غرام شخص في غضون ثلاثة أرباع الساعة!

لم يكن الوقت مناسباً: فهي ستعود إلى فرنسا بعد غد. ثمّ إنها ليست بهذا القدر من السذاجة حتّى تصدق ما يدعونه هنا love at first sight[1].

فبخلاف ما يُعتقد عادة، ليست مانهاتن مدينة رومانسية. ذلك أنّ الناس لا يعيشون هنا من أجل البحث عن الحب. هم يفدون عليها من أجل الأعمال، من أجل تحقيق طموحاتهم المهنية والفنية، لكنهم

(1) الحب من أول نظرة.

نادراً ما يبحثون عن الصاحب أو الصاحبة.

ثمّ إن جولييت ملزمة بالاعتراف بأن هذه السنوات الثلاث لا ينبغي أن تظلّ عقيمة من الناحية العاطفية. فهي قد قامت بمجهودات في البداية، واستسلمت للعبة تواريخ، لكنّها لم تشعر بالراحة قطّ في اللقاءات على الطراز الأميركي.

يُضرب الموعد هنا على جهاز بالم بيلو، ويكون شبيهاً بمقابلة تشغيل، إذ يدور الحديث دائماً حول العمل والمال. يكون فيه كل شيء محدّداً مسبقاً ومقنّناً. ففي هذه المدينة التي تنتهي فيها أربع زيجات من خمسة بالطلاق، يخصَّص اللقاء الأول لاستعراض سيرة الحياة وطرح السؤال الشهير: كم دخلك؟ إن التعجّل في النقاش بدعوى ربح الوقت جعل الشابة الفرنسية تُعرض عن هذه الطقوس التي كانت تشعرها كما لو أنها تجتاز اختباراً شفوياً بالمدرسة الإدارية عوض البحث عن سرّ الحب.

لكن الأمر كان مختلفاً هذه المرّة. فهذا الرجل، سام غالواي، لم يكن كالآخرين. ذلك أنّهما بمجرد ما شرعا في الحديث، أحسّت بحرقة كبيرة في دواخلها.

كلا، كفاك كذباً على نفسك يا صغيرتي، فأنت لم تعودي ابنة السادسة عشرة!

كانت جولييت تصارع للسيطرة على مشاعرها. ثمّ كانت ثمة تلك الكذبة الكبيرة، والعلاقة التي تنطلق من كذبة لا يمكن أن تكون حميدة العواقب. كانت متأكّدة من أن هذا الرجل سيعذّبها. حري بها ربّما ألا تعود إلى الصالة...

رفعت عينيها إلى السماء غاضبة: في اللحظة التي قررت فيها أن تبدو حكيمة، ها هو لقاء عارضٌ يأتي ليشوّش ذهنها.

قالت بصوت مسموع كما لو أنّها تريد إقناع نفسها:
- لست بحاجة إلى رجل في حياتي في الوقت الراهن!
فأجابها صوت نسائي من المرحاض المجاور:
- هذا أفضل لك يا حبيبتي، بهذا ستنضاف امرأة أخرى إلى الصديقات!

ندمت جولييت على انسياقها وراء خواطرها، وغادرت المراحيض وقد تملّكها شعور بالخزي.

كان سام لا يزال في مكانه، تشدّه إلى مقعده قوة جبارة خفية.

حاول إذن أن يبذل جهداً أخيراً لعلّه ينجح في عقلنة مشاعره.

لا وجود لحبّ من النظرة الأولى، أو ليس مجرد ظاهرة بيولوجية.

تلقّى دماغه معلومات تتعلّق بجولييت: طريقة ابتسامتها، شكل وجهها، منحنى ظهرها، لكنتها الفرنسية، طريقتها في عضّ شفتها السفلى... عالج هذه المعلومات كما يفعل الحاسوب، ثم أفرز هرمونات وناقلات عصبية. هذا هو مبعث شعوره بالانتشاء.

أرأيت، لا داعي لإيلاء الأمر أكثر ممّا يستحق، فهو لا يعدو كونه تفاعلاً كيماوياً. انهض الآن إذن وانصرف قبل أن تعود.

دون أن يراها، طلبت جولييت معطفها من إحدى المضيفات وتوجّهت نحو الطابق الذي توجد به المصاعد. لقد اتّخذت القرار المناسب، لعلّه القرار الحكيم الوحيد. انفتح باب المصعد مُحدثاً ضجّة شديدة.

تردّدت...

يبدو أن هناك أشخاصاً يعرفون كيف يميّزون بدقة الوقت الذي يتحدّد فيه مصيرهم.

ماذا لو كان هذا الوقت قد حلّ الآن بالنسبة إليها؟

- أأنت بخير؟

نعم، وأنت؟

جلست من جديد أمامه.

لاحظ أنها استعادت معطفها، وانتبهت إلى أنّه ارتدى سترته.

أنهى كأس المارتيني، وتناولت هي آخر جرعة من الكوكتيل.

نظرت بإعجاب للمرة الأخيرة إلى أنوار المدينة المتلألئة كآلاف النجوم. تهيّأ لها كما لو أنّها في إحدى تلك الكوميديات الرومانسية مع ميغ ريان، تلك الكوميديات التي تنتهي عادة نهاية سعيدة. وكانت تعلم بأنّ هذا لن يدوم.

لمّا لاحظ سام نديفة ثلج تصطدم بزجاج النافذة، أمسك بمرفق جولييت.

- ألديك صديق؟

أجابت كما لو أنها لا تريد الاستسلام بسهولة:

- ربّما. وأنت؟

- ليس لدي صديق.

- لعلكِ فهمتِ قصدي!

بينما فتح سام فمه ليجيب، عبرت ومضةٌ في ذِهنه، وتجلّى له وجه فيديريكا فجأة. كانت تمشي وسط الماء بأحد ممرات غابة كي ويست، والريح يداعب شعرها. كان ذلك خلال عطلة قبل ثلاث سنوات، وهي إحدى الفترات القصيرة التي شعرا فيها بسعادة حقيقية. غمز سام بعينيه مرّات عديدة لكي يتخلّص من هذه الصورة. نظر أخيراً إلى جولييت وقال:

- في الواقع... في الواقع أنا متزوج.

7

الحب كالحمى، يحلّ ويرحل دون أن يكون للإرادة فيه أيّ دخل.

ستاندال

لم يتبادلا كلمة واحدة ولا حتّى نظرة خلال نزولهما. لقد عاشا لحظة رائقة، لكن سحرها سرعان ما تبخّر، وآن الأوان ليعودا إلى أرض الواقع.

قال وهما يهمّان بالخروج إلى الشارع المتجمّد:

- أأرافقك؟

فردّت بنبرة حادّة:

- كلا، شكراً.

- ما الفندق الذي تنزلين فيه؟

- هذا لا يهمّك.

- هلا تركت لي رقم هاتفك في حالة ما إذا...

قاطعته وهي تضع راحتيها على خاصرتيها:

- في حالة ما إذا ماذا؟

- لا شيء، أنت على حقّ.

نظر إليها بأسف. كان البخار يخرج من فمها، فوجدها أجمل وهي غاضبة.

كان قد ندم على كذبته، إلا أنّها كانت سلاحه الوحيد لكي يتجنّب تعريض نفسه للخطر، وحتّى لا يكون غير صادق معها.

فقالت له وهي تهمّ بالانصراف:

- مع السلامة إذن! بلّغ سلامي للمدام!

فأمسك بها وهو يقول:

- انتظري...

- لا تلحّ، الرجال المتزوجون لا يهمونني.

- أنا أفهم موقفك جيّداً.

- أنت لا تفهم شيئاً. كلّكم... متشابهون!

فردّ مدافعاً عن نفسه:

- ليس من حقك أن تحكمي عليّ لأنك لا تعرفين شيئاً عن حياتي، ولم تطّلعي على...

- لا أرغب في معرفة المزيد عنك.

- حسناً، مع ذلك، شكراً على هذه اللحظة.

فأجابت بسخرية:

- شكراً على أنك لم تسحقني، لكنّني أنصحك أن تقود بمزيد من الحذر مستقبلاً.

- شكراً على النصيحة.

- تشاو.

- وهو كذلك.

استدارت جولييت وحثّت الخطو نحو أقرب مدخل نفق مترو.

لن تقبل أبداً بالارتباط برجل متزوّج: إنها قاعدة لا تقبل الاستثناء. صحيح أنها لا تملك المال وليس لها أطفال ولا مهنة

حقيقية ولا عشاق، لكنّها تملك قيماً، وكثيراً ما تمسّكت بهذه القيم حين تسوء الأمور.

لكنّ سام غيّر رأيه ومضى يجري خلفها لبضعة أمتار، وأمسك بذراعها.

لمّا التفتت إليه، لاحت له في عينيها دمعتان حارقتان تسيلان في صمت على خديها المثلّجين.

- أنا آسف لكون هذه السهرة انتهت بهذا النحو السيئ. إنني أجدك حقاً... لطيفة، ولكي لا أخفي عنك شيئاً، لم أشعر منذ زمن بعيد بالراحة مع شخص مثلما شعرت معك.

- أنا متأكّدة أن زوجتك ستسرّ بمعرفة ذلك!

كانت تدافع عن نفسها، لكن نبرة الصدق التي لمستها في صوته شوّشتها.

فقال سام:

- ليس من المعقول أن نفترق بهذا النحو.

فهتفت به وهي تحاول الإفلات منه:

- اترك ذراعي!

شرع بعض المارة يلتفتون إليهما ويحدجون سام بنظرات مرتابة. اقترب منهما شرطي بزيّه الرسمي، مصمّماً على إعادة الأمور إلى نصابها.

- هل الأمور على ما يرام؟

فصاح به سام وهو يعود أدراجه:

- لا تتدخّل فيما لا يعنيك.

كان سائق الفندق قد جاءه بسيارته الرباعية الدفع، ومدّ له

مفاتيحها. أمره الشرطي بأن يشغّل المحرّك ويخلي المكان. نظر سام إلى الفرنسية التي كانت تنزل الشارع، وهتف بها:

- جولييت.

لكنّها لم تلتفت.

لا تتركها تنصرف! ابحث عن شيء يعيدها إليك كما يقع في الأفلام... ماذا فعل كاري كران ليستبقي كيلي؟ ماذا كان سيفعل جورج كلوني لكي يستبقي جوليا روبيرتس؟

لم يكن يعرف شيئاً من ذلك البتّة.

ترك إذن عشرين دولاراً بقشيشاً للسائق الشاب، وقام بمناورة خطيرة لكي يعود إلى الاتجاه المناسب من الشارع. قام ببعض الانعطافات، ونجح أخيراً في صعود الشارع حتّى بلغ المكان الذي كانت فيه جولييت. أنزل زجاج النافذة وقال:

- الحقيقة الوحيدة على هذه الأرض هو أننا لا نعرف ما يخبّئه لنا الغد...

تظاهرت بعدم سماعه، لكنه واصل مع ذلك:

- ما يستحقّ أن نحفل به هو الحاضر وحده، هنا الآن.

كانت كلماته تذهب سدى مع الريح والثلج. تباطأت ونظرت إليه بمزيج من الفضول والحنق.

- وماذا ستقترح عليّ الآن هنا؟

- ليلة واحدة ونهاراً واحداً، مع الالتزام بشرطين اثنين: لا تعلّق ولا أسئلة عن زوجتي. فهي غير موجودة بمانهاتن خلال عطلة نهاية الأسبوع هذه.

- اغرب عن وجهي!

آذته هذه الكلمات، فلم يلحّ وانصرف وقد ملأه الحزن.

نظرت إليه وهو يبتعد وتنبّهت فجأة إلى أنّها لا تعرف شيئاً عن محلّ إقامته.

*

شعر سام بالخزي لأنه أفسد سام كل شيء. ورغم الثلج الذي كان لا يزال يسقط، ترك النافذة مفتوحة آملاً أن ينسيه الريح الذي يلسع محيّاه وجه جولييت.

لم يفكّر في شيء طيلة المسافة التي كانت تفصله عن مسكنه سوى في أن يقود بمزيد من الحذر كما نصحته...

أومأت جولييت بذراعها بعصبية لكي توقف سيارة تاكسي عند زاوية الشارع الخامس والأربعين ومقهى أول ستار كوفي.

قالت وهي تعدل من جلستها على المقعد المقعّر:

- مستشفى شارع ماتيوس من فضلك.

فسألها السائق، وهو شابّ معمم برونزي اللون.

- Where is it?[1]

- تقدم، سأدلّك على الطريق.

أمرته جولييت التي لم تعُد تخيفها هذه العمالة المهاجرة حديثاً، والتي لا تزيد معرفتها بالمدينة عن معرفة سائح حطّ الرحال منذ يوم واحد.

بلغ سام غرينيتش فيلاج وعثر بأعجوبة على مكان يركن فيه سيارته على بعد أقل من مائة متر من منزله، بحي سكني مكوّن من

---

(1) أين يوجد؟

عمارات صغيرة ذات واجهات بنّيّة ودرج مبني من الحجارة في المدخل.

كان يقطن في منزل بديع من الطوب يتألف من طابقين، ويقع خلف ساحة واشنطن مباشرة، في زقاق مرصوف تحفّ به اصطبلات قديمة حُوّلت اليوم إلى شقق ساحرة يحلم بها كثير من ساكنة نيويورك.

تعود ملكية هذه البناية ذات الجمال الخفي لمالك أحد أفخر معارض الفنون بـ«مرسير ستريت». كان سام قد عالج ابنه قبل ذلك بثلاث سنوات، ولكي يشكره، أجّر له البيت بثمن معقول. وقد كان سام يجد هذه الشقّة بالغة الترف، لكنّه رضي بها آنذاك حتّى تتمكّن فيديريكا من إقامة مرسمها في الطابق العلوي.

وبينما كان يفتح باب بيته البارد الكئيب، برقت في ذهنه على حين غرّة صورة الشابة الفرنسية، وفي رمشة عين أنار وجهها متاهة أفكاره الحالكة.

- انتظرني ها هنا، لن أتغيّب طويلاً.

قاد التاكسي جولييت حتّى مدخل المستشفى الرئيس. تقدّمت نحو الأبواب الأوتوماتيكية بخطى واثقة. أكانت فعلاً ممثلة بارعة؟ ستعرف ذلك فوراً. إن كان الأمر كذلك، فستنجح في العثور على عنوان سام غالواي. إنّ ممثلة مثل ماريل ستريب كانت ستنجح في ذلك أيام مجدها. هي ليست ماريل ستريب بالطبع، لكنّها كانت تشعر بقليل من الغرام، وفي حالتها الراهنة، قد يفيدها ذلك.

نظرت جولييت إلى ساعتها، وأخذت نفساً عميقاً ثمّ دخلت إلى المستشفى حابسة أنفاسها كما لو كانت مقبلة على الغطس.

وبينما كانت تتّجه نحو مكتب الاستقبال، رفعت رأسها،

وحرصت على أن تقف مستقيمة وأن ترسل شعرها إلى الوراء. وفي لمح البصر اتّخذت هيئة أرستقراطية مهيبة. وهي هيئة لا يكتسبها المرء عادة بل تولد معه، ولا تتجلّى إلا إذا كان المرء بارعاً في التمثيل.

سألت الموظفة بنبرة تجمع بين اللباقة والغطرسة:

- أريد مقابلة سام غالواي من فضلك.

راجعت موظفة الاستقبال جدول الخدمة لتتأكّد مما كانت تعرفه مسبقاً:

- آسفة سيدتي، الدكتور غالواي غادر منذ ثلاث ساعات.

فأجابت جولييت بنبرة متبرّمة:

- كنت على موعد معه هنا.

استخرجت هاتفها الخلوي، وتظاهرت بأنّها تركّب رقماً.

خاطبت الموظفة كما لو كانت تُشهدها على الوضع:

- هاتفه الخلوي غير مشغّل.

ثمّ بحثت في حقيبتها واستخرجت حزمة أوراق (برامج العروض) حرّكتها في كلّ الاتجاهات حتّى لا يظهر ما كتب عليها.

قالت بيأس وقد أظهرت الهلع:

- عقوده لن توقّع في الموعد، وهي لا تقبل الانتظار. كلا، الأمر في غاية الاستعجال، ينبغي أن أعيدها غداً في الصباح الباكر!

- هل الأمر بهذه الأهمية؟

- لو تعلمين...

قطّبت الموظفة حاجبيها دلالة على الاهتمام.

أدركت جولييت إذن أنها قد شارفت على النجاح. اقتربت أكثر من الموظفة وقالت لها بنبرة هامسة:

- اسمحي لي أن أقدّم لك نفسي: جوليت بومان، أنا محامية...

أوقد سام النار بالمدفأة. فقد كان الثلج مألوفاً بنيويورك، لكن العاصفة ضاعفت من شعوره بالبرد. وبينما كانت الشقّة تدفأ، نزع الطبيب معطفه وسترته، ومرّر أصابعه على شعره.

كان الصالون هو أكثر الغرف حفاوة، وهو أمر عائد في جانب منه إلى النافذة الزجاجية الصغيرة المستديرة المطلّة على الشارع. كان أثاثه الملفّق يضفي عليه طابعاً مرحاً. ففي إحدى الزوايا وُضع جهاز حاكٍ كهربائي قديم بجوار بيانو يعود إلى سنوات الثلاثينيات، حصل عليه من إحدى الكنائس، وقبالته تنتصب أريكة جلدية قديمة، لكن كان ثمّة شيء قد يشوّش ذهن الزائر العرضي: كل الإطارات المعلّقة على الجدار فارغة. ذلك أنّ سام أزال ما كان فيها من رسوم فيديريكا وصورها. لم تبق هناك غير حواشي متقنة الصنع ينبعث منها شيء شبحي غامض. استعرض الأسطوانات المستعملة القديمة التي اشتراها في غراي ماركيت: بيل إيفانس، دوك إلينغتان، أوسكار بيتيرسان...

قاده صوت جوليت الذي كان لا يزال يتردّد في رأسه إلى اختيار أنغام موسيقية هادئة: You Are So Beautiful To Me التي غناها جو كوكر في بداياته.

وضع الأسطوانة على الحاكي الكهربائي وتداعى على الأريكة.

أغلق عينيه وهو يشعر بإنهاك شديد يعلم أنه سيمنعه من النوم. ذلك أنه قليلاً ما كان ينام في الأيام الأخيرة، ولم يكن يكلّف نفسه حتّى الدخول إلى الفراش. كان يتمدّد لبضع ساعات على الأريكة أو على سرير المستشفى في ليالي المناوبة، ويبقى هناك بين اليقظة والنوم

حتّى طلوع الفجر، فيقبل بذلك على يوم جديد دون أن يعرف للراحة طعماً.

كانت نتف ممّا عاشه تلك الأمسية تطفو في ذهنه محمولة على الأنغام الهادئة، لكن التعب كان يعوقه عن التفكير بجلاء. أكان عليه أن يهنئ نفسه على حكمته أم يلعنها لأنّه أفسد كل شيء؟ ذكّره هذا السؤال بالأب هاثاواي، وهو قسّ غريب الأطوار رافقه في الطفولة، وحال بين كثير من صبيان «بيد ستوي» - وهو منهم - وبين الانحراف. كان يردّد عن خبرة بطبيعة البشر: «لا يستطيع الإنسان الصمود أمام الإغواء، لهذا عليه أن يتجنّبه».

وفجأة توقف صوت جو كوكر كما لو أن زلزالاً خفيفاً حلّ بالبيت. فتح سام عينيه: كانت الغرفة غارقة في الظلام. همّ بأن يتوجّه إلى صندوق القوابس الكهربائية، لكنّه قال في نفسه لعلّ انقطاع الكهرباء عامّ. أزاح الستائر ونظر عبر النافذة. كان الظلام يخيّم على مانهاتن بحيث لم تعد تضيئها غير أنوار السيارات وبياض الثلج اللامع في الليل.

أشعل بعض الشموع وأضاف قطعة خشب إلى المدفأة، ثمّ مضى يخلّص سطح المظلة الزجاجية الصغيرة ممّا تراكم فوقها من ثلج.

وفجأة عبر سقف الغرفة شريط ضوئي. أطلّ سام من النافذة، زاد لمعان الثلج: ترجّل من سيارة التاكسي أحدهم في مدخل واشنطن ميوز، وكانت امرأة.

تقدّمت في الزقاق بارتباك تاركة خلف كل خطوة من خطواتها أثراً غير ملحوظ تُسارع ندائف الثلج المتساقط إلى محوه.

كانت جوليت ترتعش من البرد والتوجّس، وكان قلبها يخفق

بشكل غير مسبوق. كانت تجد صعوبة في التعرّف على رقم المنزل الذي تبحث عنه وسط الظلمة، فتركت نفسها تنساق وراء حدسها.

بعد بضعة أمتار انفتح باب أزرق غامق ثخين بلطف، وتقدّم سام نحوها.

عثرت في نظرته من جديد على تلك الشعلة المتّقدة التي رأتها سابقاً. إنّهما عينان يمزجان بين الخضرة والزرقة تتلألآن في الظلام كزمرّدة.

استسلمت للحظة الحاضرة وقد انتشت بثمالة المجهول، لأنّها كانت تدرك جيّداً أنّ الثواني الأولى في العلاقة هي الأجمل عادة، وهي التي لا تُنسى أبداً: اللحظة السحرية التي تسبق القبلة الأولى.

*

هناك من جهة شفتان تتلامسان وتبحثان عن بعضهما بعضاً، ثم هناك نَفَسان يمتزجان في البرد. إنّها قبلة مُداعِبة تكاد تتحوّل إلى لدغة. قُبلة يصل فيها المرء إلى العمق الحميمي للآخر.

لم تتمالك جوليت نفسها فألصقت جسدها بجسد سام، وشعرت على الفور نحوه بشيء عنيف مدمّر، بجاذبية مفعمة بالافتتان والخوف. بحرقة رهيبة، بألم عجيب...

سحبها سام إلى الداخل وأغلق الباب دون أن يتوقّف عن تقبيلها. خلّصها من معطفها الذي سقط على الأرض، وفكّت هي أزرار قميصه قبل أن ترمي بها لتستقرّ على أحد مصابيح السرير. وفي غمرة التلهّف، نُزع أحد الأزرار وسقط على الأرض.

واأسفاه على لباس كولين.

لاحظت ندبة على شكل نجمة تحت كتفه تماماً.

قبّلها في عنقها بينما مالت برأسها إلى الوراء.

عضّت شفتيه، وفي تلك اللحظة نفسها قبّلته بلطف كما لو أنّها رغبت في تضميد جرحه. ورفعت ذراعيها بينما كان ينزع قميصها.

فكّ تنّورتها فانزلقت على ساقيها، بعد ذلك طوّقته.

كانت الغرفة لا تزال غارقة في عتمة ناعمة. لمحت جوليت مكتباً واسعاً ملتصقا بالجدار تراكمت فوقه الكتب، فقام سام بتخليصه من تلك الكتب برميها عشوائياً على الأرض.

جلست على المكتب فأزال حذاءها ونزع جوربيها اللاصقين.

أجال سبابته على شفتيها بينما كان يفكّ أزرار سروال الجينز الذي ترتديه.

كانت وجنتاها ملتهبتين كما لو أنّ دماً جديداً ضُخّ في عروقها. مالت عليه وذاقت نعومة بشرته. كان يفوح منه عطر قرفة.

وبينما كانت تحدّق في عينيه، تناولت يديه ومضت بهما إلى نهديها. بعد ذلك جالت يداه ثم لسانه عبر صدرها ثم انحدر إلى أن بلغ بطنها. تشمم بشرتها العابقة برائحة الخزامى. صوّبت بصرها على ثدييها، طوقها بذراعيه، مرّرت ساقيها حول خاصرته، سحب وجهها إلى وجهه ليقبّلها من جديد. وجدته مرهفاً على نحو مدهش، كما لو أنه كان يخشى أن تكسّر مداعباته عظامها.

أما هو، فلم يشعر بمثل هذا قطّ. طوال الوقت الذي استغرقه عناقهما، شعر بحواسه كما لو تضخّمت. سمع خفقان قلبه الشديد في صدره وكذا ضجّة تنفّسه. شعر بنفسه ضائعاً، خارج ذاته، ذاهلاً، كما لو أنّ رجلاً آخر هو مَن صار يتحكّم في جسده، لكنّه كان يشعر في الآن ذاته بأنّه هو أكثر من أي وقت مضى.

ثم لم يعُد له وجود ولا لها؛ ولم يعد للقَبْل ولا للبَعْد وجود، ولا للشمال ولا للجنوب. كل ما بقي هو مزيج شخصين منفيين على قارة مجهولة. احتراق عزلتين تتمسّك إحداهما بالأخرى على كوكب آخر، وتحت سماء أخرى، في منزل صغير مكسوّ بالثلج هناك، في مانهاتن.

*

استيقظ سام فجأة عند الساعة الرابعة صباحاً. كانت الكهرباء قد عادت، وكان جهاز التلفزة الذي بقي في وضع التشغيل يبثّ صوراً بصوت مكتوم.

نهض ليطفئه. استعرض بكيفية آلية بعض القنوات التي كان أثرُها عليه كالوخز: الحياة الحقيقية تستمرّ في الخارج والأخبار اليومية لا تنسى تقديم نصيبها من القلق والضحايا والجنون البشري.

انفجرت حافلة في مكان ما بالشرق الأوسط متسبّبة في مقتل عشرين شخصاً. شبّ حريق مهول في أحد سجون أميركا الجنوبية. النتيجة: تفحّم مائة وثلاثين شخصاً بسبب «نسيان» الإدارة فتح بعض الزنازين. في تلك الأثناء يقدّم أحد كبار مصممي الملابس الجاهزة باليابان مجموعته الجديدة من ملابس الكلاب، وممّا يزيد الخبر إثارة أنّه يقترح أيضاً طقم زينة مكوّناً من الفرو والماس خاص بكلاب الكانيش بثمن يناهز خمسة وأربعين ألف دولار. وبينما يواصل علماء بارزون على قناة «ساينس» مناقشتهم أسباب ارتفاع حرارة الأرض، يستمرّ جليد القطب في الذوبان. ذلك أنّ قطعة ضخمة من الجليد بمساحة تقارب مساحة نيوجرسي انفصلت عن كتلة القطب الجنوبي وتاهت وحيدة في بحر من الدموع.

بقي سام فترة طويلة واقفاً أمام التلفاز مشدوهاً ومرتعباً من هذه الاختلالات التي تصيب كوكب الأرض.

ولحسن حظّه خلّصه انقطاع ثانٍ للكهرباء من هذا النكد، فعاد ليستلقي قرب الملاك النائم في الغرفة المجاورة.

8

لم يعد الهواء إلا أشعة بما أنه محمّل بالملائكة.

أغريبا دوبيني

لم تكن ستائر الموسلين التي تغطي النافذة والتي يرشح منها ضوء قوي، تسمح بالاستمرار في النوم صباحاً.

كانت قد مضت دقائق على شعور جولييت بمحاولة شعاع شمسٍ النفاذ تحت جفنيها مثلما يحاول صياد فتح صدفة بسكين. صمدت في وجه هذا العدو بطريقة أو بأخرى إلى أن صاح دون أرتور، المذيع الرهيب بمنهاتن 101.4، في أذنيها عبر الأثير:

مرحباً بكم في مانهاتن 101.4.

إنها التاسعة! أثمّة كسالى ما زالوا في الفراش حتّى هذه الساعة؟ لا أصدّق ذلك! لا سيما وأنّ الشمس أشرقت من جديد على المدينة. ضمن برامجنا لهذا اليوم: التزحلق بسنترال بارك، التزلج ومعركة كرات الثلج...

خبر سار: فُتحت المطارات في وجه الملاحة الجوية من جديد، ومن ثمّة ستنطلق كلّ الرحلات المبرمجة في عطلة نهاية الأسبوع، لكن حذار من الانزلاق على الجليد. وقد أشارت السلطات أيضاً إلى أنّ شخصين توفيا نتيجة أزمات قلبية بينما كانا يزيحان الثلج من جنبات

منازلهما بالمجارف. خذوا حذركم إذن...

ابقوا معنا على مانهاتن 101.4، محطة من يستيقظون باكـ...

انقطع صوت دون أرتور فجأة، ذلك أنّ سام هوى بقبضة قوية على المنبه-المذياع لكي يسكت المذيع، فهشّمه.

قفزت جولييت من مكانها. لقد نامت نوم الرضّع، لكن قلق الصباح استبدّ بها تماماً. فقد جرت الأمور مساء الأمس بسرعة تحت إلحاح الشهوة، لكنّها تفكّر الآن بأنّ شكلها قد يكون بغيضاً بعد زوال زينتها، وبذلك عليها أن تسارع إلى الحمام لكي تسوي صورتها، وتستعيد رونقها.

ماذا يُفترض في المرء أن يفعل بعد ليلة كهذه؟ أن يجمع لوازمه ثمّ يُسلّم ويشكر قبل أن يلتحق بشقته؟

لكن سام جذبها إليه وقبّلها قبلة ملتهبة مجيباً بذلك عن سؤالها.

*

أخذها أوّلاً إلى مقهى صغير مخفيّ خلف باب بلا علامة. تُسيّر هذا المقهى الذي لا يكاد يثير الانتباه امرأة فرنسية الأصل، تنحدر من قرية صغيرة بالألب البحرية تشتهر بصنع الزجاجيات. كل شيء فيه يحاول أن يخلق جوّ مقهى فرنسي عتيق بدءاً بأغطية الموائد وصولاً إلى علب شيكوريه ولورو وبنانيا القديمة الموضوعة على الرفوف. ثمّ إنّ لون الجدران الأصفر الباهت والملصقات الإشهارية القديمة والبلاط الفخاري، كلّ ذلك يضفي على المكان طابعاً حميمياً يجعله أقرب إلى البيت منه إلى مقهى تقليدي.

لم يكن يعرف عنوانه إلا بعض رواده الذين يحفظون سرّه بحرص حتّى لا يتحوّل إلى قِبلة للسيّاح.

في هذه القطعة من فرنسا الموجودة في قلب أميركا، راحت جولييت تشرح لسام لذّة القهوة الممزوجة بالحليب مع الخبز المدهون بالمربّى بينما تنبعث من جهاز آلة تسجيل قديمة موضوعة في أقصى الصالة، أغانٍ شعبية تعود لسنوات الستينيات. وفي لحظة صدح صوت فرانسواز هاردي الجميل بإحدى أغنياتها التي لاقت نجاحاً كبيراً. مضت جولييت تردّد اللازمة مع «فرانسواز» ممّا أثار فضول سام، فسألها عن موضوع الأغنية. ترجمت له بعض كلماتها التي تقول:

«...أنت تشبه كلّ أولئك الذين حزنوا
لكن حزن الآخرين لا يهمّني
لأن عيون الآخرين أقل زرقة من عينيك...»

ثمّ تنزها قليلاً في أزقّة غرينيتش فيلاج المتعرّجة الهادئة. كانت السماء تلمع بلون فضي، والمدينة بكاملها مغلّفة بقوقعة من الجليد، جذابة ومتلألئة. تسكّعا بواشنطن سكوار بين طلبة جامعة نيويورك (NYU)، أكبر جامعات المدينة، والتي تحتلّ أجنحةً كثيرة من الحي.

كل شيء على ما يرام حتّى هذه اللحظة.

كانا متلاصقين كمراهقين، مشبكين أصابعهما وهما يتبادلان القبل عند كل منعطف.

تشير الساعة إلى الحادية عشرة. ما زالت بعض أجهزة التوزيع الآلي تبيع أعداد جرائد اليوم السابق بسبب الثلج، وهي أوّل مرة ترى فيها جولييت ذلك بنيويورك، المدينة التي لا تعرف توقّف الزمن.

لكن الزمن لن يتوقّف لمدّة طويلة.

الثانية عشرة زوالاً. توقّفا عند بالدوتشيز، وهو متجر بقالة إيطالي

مشهور في غرينيتش فيلاج. تحفل رفوفه وأروقته بخضراوات الشتاء وفواكه البحر والأطباق الطازجة.

تفوح بالداخل رائحة قهوة وبسكويت شهية، والمتجر كعادته حاشد بالمتسوّقين، لكن يبدو أنّ هذا هو ما يشكّل سرّ سحر المكان.

أخذت جوليت المبادرة ومضت تجري بخفة من رواق إلى آخر لاختيار ما يلزم لتحضير وجبة سريعة: خبز بالسمسم، باسترامي[1]، فطيرة بالجبن، شراب قيقب الفيرمونت...

ثمّ تناولا غذاءهما على أحد مقاعد سنترال بارك قبالة بِركة البطّ المتجمّدة.

خلال تناول التحلية، بللت بلعابها جانباً من منديل ورقي ومسحت قطرة مشروب كانت تسيل على شفته.

خيّم على الجوّ برد قارس، وكان الهواء يحرق كالنار، لكنّ السماء كانت صافية. اختفى سام للحظات، فشرعت جوليت تقفز على رجليها وتفرك يديها بالتناوب لعلّها تشعر ببعض الدفء.

قال وهو يعود بكوب قهوة كبير اشتراه من أحد الباعة المتجولين:

- حتّى لا نتجمّد!

وضعا أيديهما على الكوب الذي يتصاعد البخار منه ووجهاهما يوشكان أن يتلامسا، فخفضت جوليت بصرها وهي تبتسم. لم يتفرسّها رجل بهذه الحدّة نفسها من قبل.

بعد ذلك دهنت شفتيه المتشققتين بالدرموفيل الهندي، ثمّ قبلته لتعود إلى دهن شفتيه بالدرموفيل الهندي من جديد ثمّ راحت تقبله وتقبله وتقبله...

---

(1) لحم بقر متبّل مطبوخ ومدخن قليلاً. (المترجم)

وبينما كانا يعبران جسر غابستاو، إذا بامرأة عجوز أشبه بالغجرية تستجديهما بأدب للتّصدق عليها بدولار واحد، فمنحها سام خمسة دولارات. عندئذٍ طلبت منهما أن يتمنيا أمنية قبل بلوغ نهاية الجسر.

فَلْيَتمنّيا.

إنها الظهيرة. يصورها بجهاز كاميرا فيديو رقمي يستعمله عادة لتصوير العمليات الجراحية. تعقّبها في شوارع المدينة: مادسون، الشارع الخامس، ليكسينغتون... كانت ترقص أمام عدسة كاميرته وتجري وهي تضحك وتغني. كانت تشعر بنفسها كما لو أنها فتاة في السابعة عشرة من العمر. عيناها تتلألآن وابتسامتها تشي بالمرح. وتراءت لها صورتها في عيني سام جميلة ومختلفة، صورة امرأة «أخرى»، لكنّها هي نفسها. نسيت للحظة كلّ حرمانها وقلقها، ولاحظت باستغراب كيف أنّ هشاشة تقدير الذات، وكذا ارتباطها بنظرة المحبوب، وكيف أنّ بضع ساعات سعيدة يمكن أن تغيّر لون سنوات طويلة من الذل والتعاسة.

أما سام فأغرم بحيوية جوليت ومرحها. هي مقبلة، بخلافه، على الحياة. ذلك أنّ كل شيء في تاريخه الشخصي يدفعه إلى الحذر من لحظات السعادة كما لو أنّها منافية لطبيعته. فقد كيّف نفسه منذ زمن بعيد على تقبّل أسوأ الأمور، وهو يجد صعوبة في التخلّي عن تحصيناته. إن السعادة لا مكان لها في جدول أعماله، وهو لا ينتظرها، على الأقل بهذه الصورة.

ثمّ إن السعادة شيء نافر...

.

كانت الشمس تميل إلى الغروب فوق هودسون، فلوّنت السماء بالبرتقالي والوردي.

إنها بداية السهرة في حمّام شقّة سام. هما مستلقيان معاً في حوض الاستحمام. التقطت جولييت من فوق إحدى الخزانات، بجانب مزهرية زرقاء، قارورة زيت معطّر فحوّلت بذلك الحمام إلى ينبوع من الشبقية. وما هي إلا ثوان حتّى تشبّع الهواء ببخار مسكّر بعطر الخزامى.

قال لها إنّها ربيعه وعيد ميلاده، وبثّته هي خواطر ملتهبة، وأنشدته نتفاً من قصائد؛ كلّ ذلك بالفرنسية حتّى لا يفهمها، وحتّى لا تشعر بالخجل، وحتّى لا يسخر من سذاجتها.

نامت للحظة، أو لعلّها تظاهرت بالنوم. وحاول هو أثناء ذلك أن يخمّن ما إذا كانت نائمة أو تتظاهر بالنوم من خلال تنفّسها. تخيّلها قلقة، طوباوية، ولهانة وسخيّة...

فكّرت لوقت وجيز في أختها، وفي دركي ليموج وفي سيارة رونو ميغان، لكن كلّ هذا بدا لها الآن تافهاً، بعيداً ورديئاً. وبما أنها برفقته، فهي لا تعبأ بشيء.

لا أحد منهما يؤمن بالقدر. كلاهما لا يؤمنان إلا بالصدفة التي أتقنت صنعاً هذه المرة على غير عادتها.

بل إنهما لاحظا باستمتاع كيف كاد أحدهما يمرّ بجوار الآخر دون أن يلتقيا ويتعارفا. واستعادا لعشرات المرات مشهد لقائهما. شرح لها سام بأنّه في العادة لا يمرّ قطّ بشارع تايمز سكوير عند الرجوع إلى منزله. وحكت جولييت بأنّها لم تخطُط مسبقاً هي أيضاً لخروجها، وأنّ الأحداث تسارعت في آخر لحظة بفضل اتفاق صدف عجيبة.

فكّر وهو يُثني على تقلّبات الصدف بأنّ أحداث الحياة مرتّبة

بشكل محكم قطعاً، وإلا، ولنكن واقعيين، فما الذي يتحكّم في مجرى الأحداث إنْ لم تكن الصدفة؟ ففي دوامة الحياة اليومية، قد تغيّر حبّة رمل مصائر الناس. هناك مسمار مرمي في الطريق، يمرّ عليه أبوك بسيارته وهو يقصد محطّة القطار، وفي الوقت الذي يستغرقه لإصلاح العطب، يتأخر عن موعد القطار. يتمكّن من اللحاق بالقطار الموالي، فيجلس في إحدى المقطورات. «مراقبة التذاكر أيّها السادة والسيدات». اللعنة، لقد نسي التأشير على تذكرته. من حسن حظّه أنّ المراقب رائق المزاج حتّى إنّه اقترح عليه أن ينتقل إلى الدرجة الأولى حيث توجد مقاعد فارغة، وهناك سيلتقي بأمك. بعد تبادل الابتسامات والأحاديث، يتوافقان. وما هي إلا تسعة أشهر حتّى تأتي أنت إلى الوجود. بناء عليه، ما كان كلّ ما ستعيشه خلال حياتك على الأرض ليوجد لولا ذلك المسمار الصدئ ذي الثلاثة سنتمترات المطروح في ذلك المكان بالضبط صدفة. هذا هو ما يقوم عليه وجودنا المجيد: مسمار، عزقة غير مثبتة بإحكام، ساعة متقدّمة، قطار متأخّر عن موعده...

لم يكن سام وجولييت يؤمنان بالقدر، لكن أحدهما سيجد نفسه مدفوعاً، في غضون ساعات، وفي ظروف مثيرة، إلى تغيير رأيه. ربّما لا شيء في العمق عرضي تماماً. لعلّ بعض الأحداث كانت ستقع مهما كان الحال، كما لو كانت مرتّبة في كتاب القدر. الأمر أشبه بسهم رُمي منذ الأزل، وهو يعرف متى وأين سيسقط...

لكن كل شيء في اللحظة الراهنة على أحسن ما يرام. تشير الساعة إلى العاشرة والنصف ليلاً. هما يتعشّيان في مطعم موجود فوق مركبِ راسٍ قبالة هودسون. المنظر على جسر بروكلين رائع.

عبرت القاعة نسمة هواء.

قالت له باسمة: «لم أحتفظ بمعطفي، أعلم أنني لست بحاجة إلى ذلك عندما أكون معك».

وللمرة الثانية منذ لقائهما يضع سترته على كتفيها.

لم يناما ليلة السبت إلى الأحد. كان لديهما كلام كثير يتبادلانه، وجماع كثير. وفي كل مرّة كان الأمر أشبه بعملية استرفاع، بزوبعة داخلية.

كانا يشعران بإشباع رغبات متعدّدة في الآن نفسه، وبصدمة عاطفية يقدّم كل منهما فيها للآخر ما هو بحاجة إليه تماماً. أحسّت منه بالقوة والوثوق اللذين طالما افتقدتهما. واستشعر هو فيها حرية ولطفاً لطالما أعوزاه.

قطرات من العرق تسيل على جبينها. غادرت الشقّة كالأمس لبضع دقائق لكي تتزوّد من سوق صغير خلف واشنطن سكوار. كان البرد والليل قد أخليا الحي؛ وبينما كانت تعبر الساحة، ظنّت بانتشاء أن المدينة صارت ملكاً لها.

جلبت هذه المرة شموعاً ملونة وزجاجة مستدقة طويلة تحتوي على «ice wine» نبيذ الجليد، من أونتاريو. أخرجت الزجاجة من كيس كرافت الورقي، ودنت من سام وهي تبتسم:

سكبت السائل الأصفر الباهت في كأس كبير، وشربا منه بالتناوب. لم يسبق له أن شرب شيئاً مماثلاً. شرحت له أن هذا النوع

من النبيذ يصنع من العنب المجمّد في درجة حرارة 10 تحت الصفر. وهم يعصرونه في هذه الدرجة من البرودة حتّى تبقى بلورات الثلج في العصارة.

كان الرحيق حلواً بنكهتَي الخوخ والمشمش، يجعل قبلاتهما بمذاق العسل. شربا كأساً ثم أخرى، ثمّ امتزج جسداهما وصار الليل دواراً.

دارت عقارب الساعة وحلّ يوم الأحد. غمرت أشعة الشمس الصالون. ارتدت جولييت أحد قمصان سام الزرق، ولبست ثيابه الداخلية. تكوّمت تحت وسادات الأريكة وراحت تتصفّح عدد **النيويورك تايمز** لنهاية الأسبوع الذي يضم أكثر من 300 صفحة. أما سام فحضّر قهوة سوداء ومضى يعزف على البيانو، لكنّ نشازاً كثيراً تخلّل عزفه: وهو أمر طبيعي بما أنه لم يتوقّف عن النظر إلى المرأة الجالسة على الأريكة قبالته كما لو كانت تحفة فنية.

في وقت متأخر من الصبيحة ذهبا في جولة إلى ساحة سوتون على مشارف المنتزه المجاور لنهر إيست ريفر. جلسا على مقعد وخلفهما ظهر جسر كوينسبورو الذي يرتفع عالياً ليعانق جزيرة روزفلت، في مشهد شبيه بملصق أحد أفلام وودي آلن. ووسط الريح وصخب الأمواج، تاه كلّ منهما في حرارة الآخر، وأغلقت جولييت عينيها كما لو كانت تسعى للاستسلام للحظة الحاضرة.

أدركت، وقد جرفتها موجة من الحنين العابر بأنّها بصدد تخليد ذكريات ستحملها معها لفترة طويلة. علمت بأنّها لن تنسى منه شيئاً، شكل يديه وطعم بشرته وحدّة نظرته.

أدركت أيضاً أنّ لحظات السعادة هذه ليست ملكاً لها تماماً، لأنّها ليست «جوليت بومان المحامية».

لكن لا أهمية لكلّ ذلك. المهم هو أنّها تحفظ صور هذه اللحظات المسروقة، وستعرضها في أمسيات وحدتها كفيلم قديم لن تتعب من مشاهدته.

إنّ ألق ساعات السعادة القليلة يكفي أحياناً ليساعد المرء على تحمّل الخيبات والإخفاقات التي تخبئها له الحياة.

9

لكن الحياة تفرق بين المحبين...

جاك بريفير

الأحد، الساعة الرابعة بعد الزوال

تساءلت جولييت وهي في التاكسي الذي يقلّها إلى المطار: لماذا وافقت على مجيئه؟ تركت سام قبل الزوال لكي تذهب لِجلب أمتعتها وتغيّر ملابسها من أجل السفر.

اقترح عليها أن يلحق بها أمام مكتب التسجيل بمطار JFK[1]. كان عليها أن ترفض لأنّها لا تلمس في نفسها ما يكفي من القدرة العاطفية لكي تتحمّل مشهد الوداع المفجع، لكن الوله والضعف جعلاها تقبل.

داعبت أشعة الشمس الساطعة نوافذ التاكسي الذي أنزلها قبالة بهو المغادرين. ساعدها السائق على إنزال حقيبتيها الثقيلتين. رفعت بصرها ونظرت إلى الكلمة التي خطّت بحروف بارزة فوق هذا الجناح من المطار: المغادرون. الربّ وحده يعلم لماذا تذكّرت ما قاله لها ذلك الرجل الغريب الذي صادفته في المقهى «ليس بأمر ذي بال لكنّه

---

(1) مطار جون ف. كينيدي. (المترجم)

أمر جليل. فالأمر الصغير ليس عديم القيمة، لكننا لا نقدّر انعكاسات أفعالنا دائماً حقّ قدرها. ينبغي أن تكوني على بيّنة من ذلك قبل انصرافك». ترنّ هذه الكلمات الأخيرة على نحو غريب: قبل انصرافك. وضعت حقيبتيها على إحدى العربات، واجتازت الأبواب الأوتوماتيكية. تمنّت ألا يكون سام قد وصل.

ركن سام سيارته في أحد مواقف السيارات التحت-أرضية وقطع الممرّ المفضي إلى جناح المغادرة.

هو يعلم أنه كان حريّاً به ألا يأتي، ولكي يقنع نفسه بذلك، شغّل في ذهنه أسطوانة العقل. من المؤكّد أنهما عاشا ربيعاً دام يومين، شعرا فيه كما لو أنّهما بمفردهما في العالم، لكنّه كان يدرك أن كل ذلك ليس سوى وهم. كانا بحاجة إلى مزيد من الوقت حتّى يشتدّ عود حبّهما الناشئ، ويقوم على قواعد صلبة.

الواقع أنه مشوّش تماماً، ذلك أنّ ما حلّ به لم يخطر بباله قطّ. كان لا يزال هائماً في أحلامه، إلا أنه يشعر بالندم على كذبته بشأن فيديريكا، كيف ستنظر إليه جولييت لو باح لها الآن بالحقيقة؟ أستُعدُّه شخصاً مختلاً نفسياً؟ بالتأكيد. ثم، أليس بالمختل فعلاً؟

عبَرَ البهو إلى أن بلغ شاشة المعلومات. تعرّف بسرعة على منطقة التسجيل، فهرع إليها.

كانت تسود بهذا الجزء من المطار حركة نشيطة. بحث عن جولييت، وما هي إلا لحظة حتّى عثر عليها. كانت مصطفّة في الطابور لتسجيل أمتعتها. نظر إليها لحظة قبل أن تراه. كانت ترتدي عوض بذلتها الأنيقة جداً بذلة أخرى أريح منها: سروال جينز بالياً يشدّه حزام بحلقة وقميص مبرقش، وسترة من جلد الأيل ووشاحاً

صوفياً طويلاً ملوناً، وقد تأبطت حقيبة جلدية فاتحة اللون، وانتعلت زوجاً من حذاء كونفيرس.

لم تعد هيئتها هيئة محامية، بل هيئة طالبة بوهيمية من السبعينيات. وبدت له أصغر وأبسط وأجمل.

لحق بها وبادرها تحت نظرات ربّ أسرة أرهقه العيال:

- مرحباً.

أجابته بحيوية:

- مرحباً.

وضع يده على كتفها وراح ينتظر بجوارها. شعرا بالبُعد رغم أنّهما ما زالا قريبين، وبدت حركاتهما خرقاء، ولم يعودا يجرآن على النظر أو الكلام إلى بعضهما بعضاً. كانت بضع ساعات من الغياب كافية لكي تتحوّل الألفة التي نشأت بينهما إلى ارتباك.

لمّا جاء دور جولييت، ساعدها سام على وضع حقيبتيها على البساط المتحرّك، ثمّ اقترح عليها أن يتناولا كوب قهوة. تبعته شاردة على نحو آلي، كما لو كانت قد بلغت الضفة الأخرى من الأطلسي، هناك في فرنسا. كانت الكافتيريا الممتدّة بشكل طولي تشرف مباشرة على المدرجات. جلست إلى طاولة ملتصقة بالنافذة الزجاجية بينما تكلّف هو بطلب المشروبات. طلب لنفسه قهوة بالحليب ولجولييت كاراميلا ماكياتو.

وضع الصينية على المائدة قبل أن يجلس قبالتها. كانت تتجنّب النظر إليه وهي شاردة بينما راح هو ينظر إليها بانتباه أكبر. لاحظ على سترتها الجلدية شارة كتب عليها *I survived NY* ثمّ أخرى خُطّ عليها: *No war -- Make love instead*.

استجمع شجاعته وكسر الصمت المخيّم محاولاً الكلام بصوت العقل:

- أظنّ أنّنا ارتمينا في حضن بعضنا بعضاً دون أن نفكر...

تظاهرت بعدم سماع ما قال، ورشفت من كوب القهوة وهي تنظر إلى طائرة تحطّ على أحد المدرجات في البعيد.

- لقد أحرقنا المراحل... فأنا لا أعرفك حقّ المعرفة وأنت أيضاً. ننتمي إلى عالمين متباينين، لبلدين مختلفين...

فقاطعته:

- طيّب، لقد فهمت الرسالة.

سقطت إحدى خصلات شعرها على وجهها، فمدّ يده لكي يزيحها إلى خلف الأذن، لكنّها صرفته.

قام بمحاولة أخرى، معتقداً أنّه سيبدو لطيفاً وهو يقول:

- لكن إن عدت إلى نيويورك...

- هكذا إذن، إذا عدت إلى نيويورك، وإذا لم تكن زوجتك موجودة، وإذا رغبت في أن تتسلّى قليلاً، سيكون من الرائق أن نلتقي.

- ليس هذا قصدي.

ردّت وهي تلوّح بيدها في الهواء مستخفّة:

- دعكَ من هذا.

قال مُلحّاً:

- كنت أظنّ أنّ القواعد واضحة...

فصاحت به:

- هلا أرحتني من قواعدك!

ثمّ قامت واقفة على نحو مباغت حتّى إنّ كوبها تململ وتكسر

على الأرض. عندئذٍ فقط أدرك سام مقدار الأذى الذي ألحقه بها.

عبرت جولييت القاعة وهي تغمغم بغضب وغادرت الكافتيريا محاولة حفظ ما بقي من كرامتها.

وتردّدت في الطاولات المجاورة مراراً عبارة *French girl* كما لو أن سلوكاً كهذا لا يمكن أن يبدُر إلا من فتاة فرنسية...

مضت جارية وتذكرتها بيدها تعضّ شفتيها حتّى لا تبكي. كانت تعلم في قرارة نفسها بأنّ سام ليس مخطئاً تماماً.

ذلك أن يومين من الحبّ غير كافيين بالطبع لنشوء علاقة دائمة، وسحر الحب من النظرة الأولى لا يضمن التوافق والانسجام بين شخصين على المدى البعيد. ثمّ إن سام متزوّج، ويعيش على بُعد ستة آلاف كيلومتر من باريس. يضاف إلى كل هذا، وهذا هو الأهم بالنسبة إليها، أنّها كذبت عليه فيما يتعلق بوضعها الاجتماعي.

استمرّت في جريها وقد أحنت رأسها شاردة في خواطرها وآلامها، وتنبّهت فجأة إلى أنّها نسيت نظارتها الطبية في الحقيبة، وأنها تجد صعوبة في قراءة اللوحات الموجِّهة. ولمّا بلغت الطابق الأوّل أخطأت الاتجاه، فعادت أدراجها واستقلّت خطأً سلّماً متحرّكاً في الاتجاه المعاكس. كان من الطبيعي أن تدفع بعض المسافرين ممّا جعل أحد رجال الشرطة ينهرها. انتابها شعور بأنّه أسوأ يوم في حياتها، لكنّ ما كان ينتظرها أدهى...

«سيداتي وسادتي، سنشرع في إركاب مسافري الرحلة 714 إلى باريس شارل دوغول من الباب 18. المرجو أن تحملوا تذكرتكم وجواز سفركم. ندعو أولاً المسافرين الذين سيحتلون المقاعد بين الصفّين...»

*

استسلمت شاردة لإجراءات سلامة المطارات حيث نزعت حذاءها وحزامها، وقدّمت بشكل آلي تذكرتها وأوراقها ثمّ دلفت إلى الطائرة.

كانت الطائرة توشك على الامتلاء، وكانت تسودها حرارة خانقة حتّى قبل أن تقلع. التحقت بمقعدها. هي تفضّل عادة الجلوس إلى جوار النافذة، لكن هذه المرّة كان من نصيبها مقعد في الوسط، بين صبيّ بكّاء ورجل بادي البدانة. تنفّست بعمق حتّى تخفّف من خفقان قلبها وهي عالقة بين هذين الراكبين اللذين يجاورانها.

لم تعد لها في هذه اللحظة سوى رغبة واحدة: أن تنزل من هذه الطائرة لتلحق بسام، لكنّها كانت تدرك أنّ ذلك غير منطقي، وأنها مجرّد أزمة عاطفية تؤشر على أنها دخلت فعلاً سنّ الرشد.

قالت لنفسها وهي تعدّل من جلستها على المقعد: آن الأوان أن تتصرّفي كراشدة وقد بلغت الثامنة والعشرين. عليها أن تكون قوية. لقد اجتازت السن الذي يتصرف فيه المرء حسب هواه. ثمّ، ألم تعقد العزم على أن تترزّن؟ على اتّخاذ القرارات الحكيمة على غرار أختها...

ستمرّغ كبرياءها وتعود إلى فرنسا لتبدأ حياة معقولة. عليها أن تكفّ عن الاعتقاد بأنها أذكى من الآخرين. انطلاقاً من هذه اللحظة، ستكون كالآخرين: ستعيش باعتدال وتحترس من البرد وتشرب القهوة منزوعة الكافيين وتأكل البيو وتمارس الرياضة نصف ساعة كل يوم.

وقالت في نفسها موبّخة: لا تتصرّفي كمراهقة. لا تستسلمي لشخص لا يرغب فيك. هذا الرجل لا يحبّك، ولا يستطيع أن يقوم بشيء لثنيك عن السفر.

كان ثمّة بالطبع ذلك التوافق التام الذي دام يومين، لكنّه مجرّد

وهم: إنّها أسطورة الحب من النظرة الأولى التي يروّج لها الأدب والسينما.

كبتت، وهي مرهقة، الرغبة في التثاؤب بينما نزلت على خدها دمعة بسبب الإنهاك. فهي لم تنم تلك الليلة، ولم تنم إلا قليلاً الليلة التي قبلها. كان كلّ جسدها يؤلمها. قالت لنفسها لأوّل مرّة في حياتها أنه من الأجدر أن تظل بعيدة عن الحب.

بينما كان آخر المسافرين يلتحقون بمقاعدهم، ربطت حزامها وأغلقت عينيها.

ستصل إلى باريس في غضون ستّ ساعات ونيف. هذا ما كانت تظنّه على الأقل.

لمّا خرج سام من المطار وقد ارتاح تقريباً لهذه النهاية، كانت الشمس قد بدأت في المغيب. سيخيّم الظلام بسرعة الآن. انتظر قليلاً قبل أن يتمكّن من عبور الممرّات الثلاثة ليصل إلى الموقف حيث ركن سيارته. كان الناس يعودون ذلك المساء من عطلة نهاية الأسبوع، وسيارات الأجرة غارقة في سباقها المعتاد مع الزمن.

أشعل سام سيجارة بولاعته المعدنية القديمة المتآكلة. سحب نفساً عميقاً ثمّ أرسل الدخان في هواء الليل البارد. لماذا كان يشعر بكل هذا الإنهاك؟ على كلّ حال ما كان بوسعه أن ينتظر شيئاً من هذه الحكاية، فلا مكان لجولييت في حياته. ثم هناك تلك الكذبة وعبء ماضيه الذي لم يُشفَ منه بعد، والذي لا تعرف عنه جولييت أيّ شيء.

ومع كل ذلك كان عليه أن يعترف بأن هذين اليومين اللذين

قضاهما مع جولييت خفّفا عنه بعض ما كان يثقل على قلبه. شعر أخيراً بأنه تحرَّر من هذا القلق الذي يسكنه منذ الطفولة.

وبينما كان يهمّ بالنزول من الرصيف لعبور الطريق، شدّته قوة غريبة في مكانه لحظة مرور حافلة بسرعة جنونية بمحاذاته.

كلا، لن يترك هذه الفرصة تَفلت. لو رحلت جولييت الآن، سيندم على ذلك طول حياته. وتهيّأ له فجأة بأنّها لم تركب الطائرة وأنّها تنتظره في بهو المطار الشاسع.

عاد أدراجه جارياً كالبرق. اعتقد للحظة أنّه تجاوز لوعة الحبّ وآلام الفراق، لكنّ الأمر لم يكن كذلك. فقد كان الحبّ يخيفه بمقدار ما كان يجذبه، ولأوّل مرّة ساورته رغبة في أن يحيى وينسى كلّ مخاوفه الماضية. لأوّل مرّة خال أنّ هذا ممكناً بفضل امرأة لم يكن يعرفها قبل ثمانٍ وأربعين ساعة: إنها الأمل الأخير لرجل بلا أمل.

بلغ بهو المطار جارياً: لا أثر لجولييت. بحث وبحث بلا جدوى.

دنا من النوافذ الزجاجية ولاحت له طائرة الرحلة 714 وهي تصل إلى نهاية المدرج. كان الأوان قد فات. وافته الفرصة، لكنّه أهدرها. كانت تكفيه كلمة واحدة: ابقي! لكنّه لم ينطقها.

وقفت الطائرة قليلاً ثمّ انطلقت مسرعة باندفاع لكي تقلع، وظلّ سام يتأملها لوقت طويل إلى أن اختفت في الأفق.

*

راح يراقب المدينة من داخل سيارته. خيّم الليل على المدينة دون أن ينتبه لذلك. لم يسبق له أن أحسّ بمثل هذا الشعور قط:

الحاجة الملحّة إلى شخص كحاجة مدمن إلى المخدّر. ركن السيارة بأحد شوارع شيريدن سكوير الجانبية، وخطا بضع خطوات في البرد دون أن يشعر بالرغبة في العودة إلى بيته. كان متوجّساً من أن يجد نفسه وحيداً في شقّة عاش فيها لحظات سعيدة، شقّة كانت للحظة جزيرة بهجة وسرور وسط عالم كلّه اضطراب.

تذكّر وهو يمشي وجهها ورائحتها وشكل ابتسامتها وكذا جذوة الحياة المتّقدة بداخلها. ولكي يطرد الذكريات التي تكالبت عليه، دخل لأوّل حانة صادفها في طريقه.

لم يكن «سيلك بار» بالمكان الهادئ الذي يستطيع فيه المرء أن يلعب لعبة النرد أو الشطرنج، بل حانة عصرية حفيّة تصدح أرجاؤها بأرفع ألوان الموسيقى.

شقّ سام طريقه بصعوبة ليبلغ الكونتوار الذي كانت تحيط به مجموعة من النادلات بسراويل بالغة القصر، يحملن في أيديهن بخفّة زجاجات من طراز كويوت غيرل[1].

وفي أقصى القاعة ازدحم حشد من الزبائن حول شاشة عملاقة تبثّ مباراة في كرة القدم. ذلك أنّ الموسم بدأ من توّه، والصراع على البطولة يبدو شرساً. كان ذلك المساء بالنسبة إليهم لا يختلف عن مساءات أيّام الآحاد الأخرى.

كان سام ينظر إليهم دون أن يراهم. طلب وهو شارد في آلامه مشروباً قوياً متأسّفاً على أنّه لا يستطيع أن يشعل سيجارة.

ثمّ توقّف بثّ المباراة فجأة ليعوّضه برنامج آخر استقبله الزبائن

---

(1) Coyote Girls كوميديا درامية أميريكة أخرجها دافيد ماكنالي (David McNally) سنة 2000. (المترجم)

بالصمت بادئ الأمر، ثمّ تعالى الهتاف إثر ذلك: يا إلهي! يا إلهي! كارثة!

لم تعد الشاشة التي تحلّقت حولها جماعة حاشدة تبدو لسام من الكونتوار. تردّد في البداية في الاقتراب لعلّه يعرف هذا الخبر الرهيب الذي جعل الناس في هذه الحالة، لكن لا شيء في الواقع كان يعنيه: ففي غمرة محنته، حتّى خبر اجتياح كائنات فضائية للأرض ما كان ليحرّك فيه ساكناً.

لكنّه حمل كأس الفودكا مع ذلك وعبر القاعة، فأيقظت الصور التي رآها على الفور في نفسه قلقاً عميقاً. دفع بعض الأشخاص لكي يقترب من الشاشة. كان عليه أن يتثبّت من الأمر!

شريطة ألا يكون...

لكنّه للأسف...

ظلّ مشدوهاً إذن والخوف يعصر قلبه، ثمّ شعر بقدميه يتشنجان، وسرت في جسده قشعريرة شديدة.

10

تهبّ الريح حيث تشاء...

الأناجيل

حيّ سكني بأولناي سو-بوا.

ضبطت ماري بومان مُنبّهها على الساعة الخامسة صباحاً. ستحطّ الطائرة التي تقلّ ابنتها على الساعة السادسة وخمس وثلاثين دقيقة بمطار رواسي، وهي لا ترغب في التأخر عن الموعد.

غمغم زوجها في الجهة الأخرى من السرير بتذمّر وهو يسحب الغطاء عليه:

- أترغبين في أن أرافقك؟

فهمست ماري وهي تضع يدها على كتفه:

- كلا، واصل نومك.

لبست مبذلها بسرعة ونزلت السلّم باتجاه المطبخ. استقبلها كلب بالنباح مرحّباً بمجيئها، فقالت له موبّخة:

- كفى يا جاسبير، ما زال الوقت مبكّراً.

كان الليل في الخارج بارداً وعدائياً. ولكي تكون في كامل يقظتها، حضّرت كوباً من القهوة الفورية، ثمّ كوباً آخر. همّت وهي تقضم خبيزة سويدية بتشغيل المذياع لمتابعة الأخبار، لكنّها أعرضت

عن ذلك حتّى لا تثير الضجيج. كبحت رغبة في التثاؤب، فهي لم تنم جيداً هذه الليلة. استيقظت حوالي منتصف الليل مذعورة تنضح عرقاً كما لو انتابها كابوس، لكن الأغرب هو أنّها كانت عاجزة عن تذكّر ما حلمت به على وجه التحديد. على كلّ حال أرعبها ذلك بحيث حرمها النوم بقية الليل، وأثار هواجسها.

استحمّت في طرفة عين وارتدت ملابس دافئة، وتثبّتت للمرّة الألف من المعلومات التي بعثت بها جولييت:

الرحلة: 714

الانطلاق: مطار JFK الخامسة مساء، الجناح رقم 3

الوصول: مطار شارل دوغول CDG السادسة وخمس وعشرون دقيقة، الجناح 2F.

ضغطت على مفتاح السيارة فانفتحت. لم يكن المطار بعيداً، وحركة المرور في هذه الساعة لا تزال لا تطرح مشكلاً، وبذلك ستبلغ رواسي في غضون عشرين دقيقة. جرى جاسبير خلف السيارة لخمسين متراً تقريباً، لكن ماري قاومت الرغبة في أخذه معها.

فكّرت خلال الطريق في جولييت بحنان. كانت لها بنتان تكنّ لهما الحبّ نفسه، وهي مستعدّة لتمنح كلّاً منهما أكثر من حياتها، لكن عليها أن تعترف بأنّها كانت تعطف بشكل خاص على جولييت، لأن ابنتها الأخرى أوريليا اختارت بعناد طريق الامتثالية و«إعطاء الدروس» الذي بمقدارٍ ما كان يشعرها بالقرف، وكان يدخل البهجة على قلب زوجها.

لم تكن جولييت تتفاهم مع أبيها. وهو لم يوافق قطّ على أن تختار ابنته البكر دراسة الآداب الكلاسيكية التي لم تكن طريقها سالكة لسوق العمل. كما أنّه اعترض بشدّة على فكرة المسرح، واعترض

أكثر على سفرها إلى الولايات المتحدة. كان يفضّل أن تختار مهنة تخوّلها وضعاً مستقرّاً: مهندسة مثلاً أو خبيرة حسابات على غرار ابنة الجيران التي حصلت منذ وقت قصير على دبلومها بتفوّق.

أما ماري، فدافعت عن ابنتها. كانت تدرك تماماً أن طموح جولييت لا يتمثّل في تحقيق وضع اجتماعي مستقرّ. هناك شيء واحد مؤكّد هو أنّها فتاة متخلّقة وشجاعة. كانت تُعرض دائماً في اختياراتها عن الرداءة، وهذا هو مبعث إعجاب أمّها بها وإن كانت تعي بأن ابنتها هشّة رغم ما تظهره من صلابة. لقد لمست مراراً في صوتها نبرة الخيبة لمّا كانت تكلّمها في الهاتف. لم تُظهر جولييت يوماً تبرّماً، لكن ماري تعلم أن هذه السنوات التي أمضتها في أميركا لم تكن كلّها سعادة. ولكي تساعدها، كثيراً ما كانت تبعث لها ببعض المال خفية دون علم زوجها. ولعلّ ما كان يُحزنها أكثر هو أنّ ابنتها لم تعثر بعد على شريك حياتها. فرغم كلّ ما ينشر في الصحافة من مقالات عن «العُزّاب الجدد» الذين يعزفون عن الزواج ويختارون «العيش بمفردهم»، فإنّ الإنسان بحاجة دائمة إلى شخص يحبّه. ورغم أنّ ابنتها تزعم العكس أحياناً، فإنّها لا تخرج عن هذه القاعدة.

أخذت ماري الطريق المفضي إلى الجناح 2F من المطار. لماذا ما زال قلقها يتعاظم؟ زادت في جهاز التدفئة قليلاً ثمّ تفحّصت الساعة الرقمية في لوحة القيادة. ممتاز، ستكون في الموعد تماماً على أمل أن تكون الطائرة في الموعد كذلك.

هي الآن في إحدى الطرقات المؤدّية إلى موقف السيارات بالمطار. ورغم الوقت المبكّر، كانت تسود بهذا المكان حركة غريبة. مرّت بمحاذاة سيارة تابعة للقناة الفرنسية الأولى ثمّ أخرى لقناة تلفزات فرنسا. وفي مكان أبعد شخص يحمل كاميرا ويصوّر المطار بينما

مضى أحد مراسلي محطّة إذاعية يستجوب بعض الموظفين. عند هذه اللحظة انتاب ماري شعور دفعها للقيام بما رفضت القيام به منذ استيقاظها: شغّلت مذياع السيارة.

قناة أوروبا الأولى صباح الخير، تشير الساعة إلى السادسة والنصف صباحاً، إليكم عناوين النشرة: كارثة جوية رهيبة في سماء المحيط الأطلسي...

*

أقلعت الطائرة التي ستقوم بالرحلة 714 من مطار كينيدي على الساعة السابعة وستّ عشرة دقيقة حسب التوقيت المحلّي وعلى متنها 152 راكباً وطاقماً مؤلّفاً من اثني عشر عضواً، وذلك في رحلة منتظمة باتجاه باريس.

كان يقودها طيّار يدعى ميشيل بلانشار، ثماني عشرة سنة من الخدمة، وهو خبير بالملاحة الجوية، ولم يكن من أولئك الشباب المبتدئين الذين يقومون بعدّة محاولات قبل أن يعثروا على المسار والعلو المناسبين. وقد قام بهذه الرحلة التي تربط بين نيويورك وباريس عدداً لا يحصى من المرّات، دون أن يواجه أدنى مشكلة. وكان يحبّ أن يُطلع ركّاب الطائرة على ظروف الرحلة، ويدلّهم على أبرز الأماكن التي يحلّقون فوقها.

كانت قائمة المسافرين تمثّل مجتمعاً مصغّراً: فهي تضمّ رجال أعمال وأسراً وأزواجاً من الشباب أرادوا الاستمتاع بعطلة نهاية أسبوع غرامية، ومجموعات من المتقاعدين... وكانت الأحاديث مزيجاً من اللغتين الفرنسية والإنجليزية.

وممّن كانوا بين الركاب أيضاً كارلي فيورانتينو البالغة من العمر

ثلاثين سنة، وهي الملحقة الصحفية الخاصة بمجموعة روك كانت ستشرع جولتها الأوروبية في اليوم الموالي. كان لكارلي شعر جميل خشن ينحدر كالقضبان، ومظهر أنيق ونظارات شمسيّة تحمل علامة عالمية قلّما تفارق عينيها، لكنّ كارلي كانت تخاف ركوب الطائرات، وللتغلب على خوفها هذا جرّبت كل شيء: الأقراص وتمارين التنفس... دون جدوى. وهي في هذا اليوم تجرّب وسيلة أخرى: قبيل مغادرة الفندق أفرغت نصف محتوى الميني بار حتّى تصل إلى المطار ثملى، وكانت تعقد آمالاً على الكحول عساه يساعدها على التغلّب على هواجسها.

بلغت الطائرة أقصى المدرج، توقّفت ثم انطلقت بسرعة.

تشبثت مود جودار، وهي تاجرة متقاعدة في السبعين من العمر، بيد زوجها. إنّها المرّة الأولى التي يحلّ فيها الزوجان بنيويورك. فقد زارا حفيدهما الذي تزوج من أميركية وأقام مزرعة لتربية البطّ والخرفان بوادي هودسون. تملّك مود شعور بالذعر، لكن لما نظر إليها زوجها تصنّعت الابتسامة حتّى لا تثير هواجسه. خمّن مخاوفها فطبع على عينيها قبلة. قالت في نفسها إن قدّرت لها الموت هذا اليوم، فستكون في حضنه على الأقل. ورغم ما في هذه الفكرة من جنون فقد طمأنتها.

جرى الإقلاع على خير ما يرام. وفي اللحظة التي فارقت فيها الطائرة الأرض، شعر أنطوان رومبير فجأة بوخز خفيف في أسفل بطنه. لقد جال هذا المراسل الكبير كل أصقاع العالم لتغطية آخر النزاعات الكبرى: كوسوفو، الشيشان، أفغانستان، العراق... ووجد نفسه مراراً وسط النيران والمخاطر، لكن فكرة الموت لم ترهبه يوماً، وبذلك ما كان لرحلة على متن طائرة مدنيّة أن تخيفه. ومع ذلك،

فمنذ ميلاد ابنه قبل ذلك بأشهر، لمس في نفسه شيئاً من الضعف وكان عليه أن يعترف بأنّه لم يعُد محصّناً ضدّ الخوف. قال في نفسه: إنه لشيء غريب! يجعل الإنجاب المرء قوياً وضعيفاً في الآن نفسه، وهو ما لم يخطر له على بال من قبل.

بُعيد مغادرة منطقة نيويورك، تكلّف مركز مراقبة بوسطن بالطائرة. وراح الركاب يستمتعون، بدعوة من قبطان الطائرة، بلون السماء البرتقالي المتّقد كلهب مدفأة.

بينما كانت مارين، إحدى المضيفات، تحضّر أطباق الأكل، فكّرت في خطيبها الذي سيأتي للقائها بأورلي على الساعة السادسة صباحاً. تعوّد جان كريستوف عموماً على الاستفادة من تخفيض أوقات عمله يوم الاثنين، حيث يحضّر لها فطوراً رائعاً من عصير البرتقال والأناناس والكيوي، ثم يضاجعها وينامان حتّى الزوال. كانت متشوّقة للوصول، ومضت تردّد أغنية **يوم الاثنين تحت الشمس** لكلود فرانسوا.

على الساعة الخامسة وأربع وثلاثين دقيقة، أيّ بعد أقل من نصف ساعة على الإقلاع، وبينما كانت الطائرة تحلّق على ارتفاع يناهز ثلاثين ألف قدم، شمّ مساعد الطيار رائحة غير عادية: غمر حجرة ملاحي الطائرة دخان كثيف ولاذع...

بعد دقيقتين، تسرّب قليل من الدخان إلى قمرة القيادة. فقال كلّ أعضاء طاقم القيادة في نفوسهم: اللعنة!

بعد ذلك بدا أنّ الدخان اختفى بالسرعة نفسها التي ظهر بها، فخفّ التوتّر قليلاً.

قال القبطان:

- هناك مشكلة في جهاز تكييف الهواء.

بثّ بلانشار بصوت هادئ رسالة «بان بان» التي تعني في لغة الملاحة الجوية أنّ المرسل في وضعية حرجة، لكنّها ليست يائسة.

بحثت كارلي عن قرصين في جيب حقيبتها، ذلك أنّ كمية الكحول الكبيرة التي شربت تسبّبت لها في الصداع، وتضاعف الطنين من حولها بحيث صارت تشتبه في أبسط ضجّة. وممّا زاد الطين بلّة، أنّها أحسّت بتشنّجات في معدتها، وبدأ الصبي الجالس بجوارها يثير أعصابها بابتسامته البليدة. تأكّدت من أنّ إشارة ربط الحزام مطفأة، ثمّ قامت لتذهب إلى المرحاض قبل أن يصطف الركاب أمامه في طابور.

قام مايك البالغ من العمر أربع عشرة سنة، والذي ألصق جهاز الآيباد على أذنيه لكي يسمح للجالسة بجواره بالمرور، وهي امرأة في الخامسة والثلاثين من عمرها على الأقل، ثم اشرأبّ برأسه ليطلّ من النافذة. كان يعشق الطائرة، وينتابه في كل مرّة ركبها شعور بالسيطرة على العالم. يا للسعادة! بل إنّه يتمنّى وجود بعض الاضطرابات الهوائية في الطريق. رفع صوت الجهاز الذي يضعه على أذنه منتظراً بنفاذ صبر أن تتأرجح الطائرة في أحد ثقوب الهواء على إيقاع موسيقى الراب لـ Snoop Doggy Dog.

«سيداتي سادتي، يتحدّث إليكم القبطان ميشيل بلانشار. بسبب بعض المشاكل التقنية، سنضطرّ للنزول ببوسطن لكي نجري بعض الفحوص. من أجل راحتكم وسلامتكم، نلتمس منكم أن ترفعوا لوحة مقعدكم، وأن تربطوا حزام السلامة وتبقوا جالسين حتّى تطفأ الإشارة الضوئية».

بدأت الطائرة تخفّف من علوها لكي تتهيّأ للهبوط. بعد التكلّم مع مصالح حركة الملاحة الجوية، تلقّى القبطان الإذن بتغيير اتجاه الطائرة نحو بوسطن لوغَن، لكن الدخان عاد للأسف إلى قمرة القيادة.

فهم الطاقم إذن أنّ حريقاً زاحفاً ينتشر في السقف...

خضعت الطائرة قبل إقلاعها لفحص دقيق كما تنصّ على ذلك القوانين، قام به موظفون مؤهّلون. ثمّ إنّ عمر الطائرة يقلّ عن ثماني سنوات. وقد خضعت للمراقبة المشدّدة وكلّ الفحوص الإلزامية التي تتردّد في حياة كل طائرة: check A الذي يُجرى في المعدل بعد ثلاثمائة ساعة من الطيران، و check C الذي يجرى في المتوسط بعد أربعة آلاف ساعة طيران. ثمّ أخيراً الفحص الكبير الذي يُجرى بعد أربع وعشرين ألف ساعة طيران، أيّ مرّة كلّ ست سنوات تقريباً. وقد توقّفت الطائرة بهذه المناسبة ستة أسابيع بحيث شرّحها الفنيون والمهندسون وفحصوها فحصاً دقيقاً.

كانت تابعة لشركة غربيّة كبيرة، إحدى أكثر الشركات أماناً في العالم، ولم تكن تابعة للطيران العارض (الشارتر) تؤجّرها شركة حقيرة. كان كلّ واحد قد قام بعمله على أكمل وجه، ولم يكن ثمّة أيّ إهمال. لم يقصّر أحد في الصيانة.

مع كلّ ذلك، ولسبب لا يعلمه إلا الرب، شبّ حريق في السقف مباشرة، والدارة الكهربائية لم تصدر أيّ إشارة، ممّا جعل الطاقم لم ينتبه للحريق إلا بعد فوات الأوان، بحيث صار من المستحيل السيطرة عليه.

أغلقت كارلي خلفها باب المرحاض وجالت ببصرها في هذا

المكان الضيق، وقالت في نفسها وهي شاردة: هناك من يزعمون أنهم جامَعوا هنا، بودّي أن أعرف كيف يمكن ذلك...

بلّلت وجهها بالماء البارد. كان قرارها حاسماً: لن تركب الطائرة ثانية قط. إنّه لشيء رهيب أن يفقد المرء السيطرة على مصيره تماماً. إنها مستعدّة لتغيير مهنتها لو لزم الأمر، لكن هذا ما تقوله في كلّ مرّة.

ترك أحدهم على أحد جدران المرحاض كتابة بحروف بالغة الصغر أثارت فضولها. اقتربت منها لعلّها تستطيع فكّ طلاسمها، فقرأت: Men plan, God laughs[1]، وبينما هي تفكّر في هذا القول المأثور أبصرت فجأة إشارة return to seat تومض وهي ترتجف فوق رأسها.

في تلك اللحظة نفسها وضعت أمّ بيلي، في إحدى ضواحي كوينز، وعاء من الحساء فوق حامل خشبي مليء بالأقراص المدمجة كان يُستعمل كمائدة وكطاولة سرير.

- استرح جيداً يا حبيبي.

ثم قبّلته على جبينه.

- ألا تشعر بالأسف على تخلّفك عن الرحلة المدرسيّة إلى فرنسا؟

أومأ بيلي بالنفي وهو مستلقٍ في سريره وقد وضع كمّادة على رأسه. وما كادت أمّه تغادر الغرفة حتّى قام ورمى بالحساء من النافذة. فهو يكرهه. زاره الطبيب في البيت ذلك الصباح، لكنّه نجح في

---

(1) العبد في التفكير والرب في التدبير.

التحايل عليه إذ تظاهر بأنّه يعاني من نوبة أنفلونزا شديدة.

كان يقوم بكلّ هذا للضرورة. فقد انتابه في الليلة السابقة ذلك الكابوس المروع، الواضح والعنيف، الذي رأى فيه ألسنة اللهب تلتهم الطائرة، وعدداً كبيراً من الناس يصرخون.

كان بودّه أن يخبر الآخرين، لكنّه أعرض منذ فترة قصيرة عن الحديث عن رؤاه. على كلّ حال، لن يصدّقه أحد.

آوى إلى فراشه وأشعل خلسة شاشة لعبته التي كان يستعملها كشاشة تلفزة. تشدّ في تلك الأثناء مباراة في كرة القدم كلّ الأنظار، لكنّه كان يعلم أن ذلك لن يدوم طويلاً.

ورغم كلّ ذلك، كان يصلّي بصوت عالٍ لعلّ نبوءته تخطئ.

في الخامسة واثنتين وأربعين دقيقة، وجّه القبطان بلانشار نداء الاستغاثة: !Mayday! Mayday! Mayday ليعلن بأنّ الطائرة في حالة خطر كبير، وعبّر عن نيته في الهبوط فوراً بمطار بوسطن.

في تلك اللحظة نفسها فتح بروس بوكر، وهو شاب في الخامسة والعشرين من العمر، عينيه بإحدى غرف ولدورف أستوريا وكبح رغبة في التثاوب، ثمّ لاحظ أنّه تخلف عن الطائرة. ذلك أنّه بالغ في الشرب مع المومستين اللتين غادرتا غرفته عند الفجر. كان قد حجز مقعده منذ بضعة أسابيع على متن الرحلة 714.

كان عليه أن يمضي أياماً بباريس ثمّ يلحق ببعض أصدقائه بإحدى محطات الرياضات الشتوية بسويسرا.

هكذا، فقد تخلّف عن كل ذلك!

نظر في المرآة فبدا لنفسه تافهاً. لقد آن الأوان ليرشُد ويُغيّر رُفقته

وقيمه وكلّ شيء، لكنّه لا يملك الشجاعة لذلك. يدور بخلده أحياناً أنّ يوماً سيأتي يقع له حادث يمنحه القوة ليسلك سبيلاً مختلفاً، حادث يدفعه ليصير شخصاً أفضل، لكنّه لم يكن يعرف في أيّ صورة سيتجلى له ذلك.

خلع ملابسه ووقف تحت الرشاش وهو يلعن. لكنّه سيشغّل التلفاز بُعيد ذلك بدقائق، فتتغير حياته.

تفاقم الوضع في قمرة القيادة إذ صار من الصعب على الطيارين التحكّم في شاشات لوحة القيادة بسبب الدخان والحرارة، ولم يعودا يبصران شيئاً مما يقع بالخارج.

في الخامسة وسبع وثلاثين دقيقة، كانت الطائرة لا تزال تظهر على شاشات رادار مراقبة الملاحة الجوية. ثمّ حلّت تلك الثواني الرهيبة التي شرعت فيها الطائرة تهتزّ في كلّ الاتجاهات وسط صراخ الركاب. انزلقت أقنعة الأكسجين من السقف وراحت المضيفات تشرحن كيف تُنفخ صداريات النجاة وهنّ يعلمن بأنّها لن تفيد في شيء.

سيكون من باب الافتراء الزعم بأنّ كل شيء مرّ بسرعة وأنّ لا أحد شعر حقّاً بما كان يحدث. لقد رأى جميع الركاب ألسنة اللهب تلتهم القمرة، والهلع الذي تملّكهم دام بما فيه الكفاية ليدرك كلّ واحد منهم أنّها النهاية.

تغيّر لون مايكِ منذ دقائق، وقال في نفسه مرهوباً: النكبات لا تحلّ بالآخرين فقط.

فكّرت كارلي أنّها فشلت في حياتها، وندمت على عدم زيارة

أبيها. لقد مرّ عام وهي تؤجّل زيارته لأسباب تافهة في الأغلب.

التفتت نحو الجالس بجوارها ولاحظت بأنّها ستموت بجانب غلام في الرابعة عشرة من عمره لم تكن تعرفه قبل نصف ساعة من ذلك. مع ذلك مدّت له يدها فتشبثّ بها وهو ينتحب.

فكرت مود وهي في حضن زوجها بأنّ حياتها كانت طيبة، لكن بودّها لو عاشت أشواطاً إضافية. فممّا لا شك فيه أنّ المرء يتعوّد على السعادة بسرعة.

كان يوجد في الشبكة اللاصقة بمقعدها كتيّب يهدف إلى التهوين من مخاطر السفر جوّاً. وهو يورد معطيات إحصائية غزيرة للغاية منها أنّ ستة آلاف طائرة تجوب السماء كل يوم، وأن واحدة فقط من بين مليون تتعرّض لحادث خطير، ممّا يجعلها أكثر وسائل النقل أماناً، وهو أمر صحيح.

في الخامسة وثمان وثلاثين دقيقة التقط أحد هواة الراديو صدفة آخر كلمات القبطان بلانشار: «إننا نسقط! إننا نسقط!» بعد ذلك بثوانٍ اختفت الطائرة نهائياً من شاشات المراقبة وفي تلك الأثناء سمع سكان شارلي كروس، وهي قرية صغيرة بنيو إنغلاند، دويّ انفجار عنيف.

خطرت لأنطوان رامبير، صحفي الحرب، في لحظاته الأخيرة فكرة عن ابنه. ثمّ تذكر من جديد، هو مَن كان يعتقد أنّه أبعد ما يكون عن العاطفة، أوّل قبلة قام بها قبل عشرين عاماً في ساحة الثانوية الفرنسية بميلانو. كان اسمها كليمانس لابيرج، فتاة في الثالثة عشرة، وكانت ذات شفتين ناعمتين. قبل تحطّم الطائرة على المحيط بثانية واحدة، قال أنطوان في نفسه إنّ براسينز لم يكن مخطئاً في نهاية المطاف: لا ينسى المرء أبداً أول فتاة ضمّها في حضنه...

*

دخلت ماري بومان إلى المطار مرتعشة ومحمومة كما لو دخلت إلى مجزرة. لماذا رفضت أن يرافقها زوجها؟ شعرت بأنّها لن تستطيع التحمّل بمفردها. ساورها لبرهة أمل يائس. ماذا لو أن جولييت ركبت الطائرة الموالية...

لا تزال ثمّة فرصة، فرصة واحدة من أصل عشرة آلاف أو مائة ألف أو مليون؟ كلا، كانت ماري تعلم أنّ ذلك مستحيل: فقد هاتفتها ابنتها قبل ساعات فقط من ركوبها الطائرة لتؤكّد لها المعطيات المتعلّقة بالرحلة.

توجّهت إلى المكان الذي يفترض أن يخرج منه المسافرون القادمون من نيويورك. كان حاشداً بالكاميرات ورجال الشرطة، وكان وزير النقل حاضراً وهو يصرّح للصحافة بأنّ كل الاحتمالات واردة إلى حدود تلك اللحظة فيما يتعلّق بأسباب الحادث.

توجّهت ماري بالدعاء للرب والقدر والصدفة...:

أنقذها! أنقذها! وسأفعل كل ما تريد! أعِد لي ابنتي! صغيرتي! لا يعقل أن تموت في الثامنة والعشرين! ليس اليوم! وليس بهذه الطريقة!

صعقها الشعور بالذنب والندم على أنها تركتها تهاجر بمفردها إلى بلد المجانين ذاك. لماذا لم تستَبْقها لفترة أطول بجوارها في البيت؟

لاحظ موظفان من مطار باريس ارتعابها فقصداها ووجّهاها بلطف إلى خليّة الأزمة والمساعدة السيكولوجية التي أقيمت لاستقبال عائلات الضحايا.

كان ذلك اليوم بالنسبة إلى الدكتورة ناتالي ديليرم، الطبيبة الرئيسة بمطار باريس، من أحلك أيامها في العمل. ذلك أنّها استقبلت عشر أسر، ولم تكن تلك سوى البداية. كانت ترأس فريقاً مكوّناً من طبيبين

نفسيين وثلاثة أطباء أمراض عقلية وخمس ممرضات. استقروا في إحدى قاعات الجناح بعيداً عن الجلبة، وكانت مهمّتهم تتمثّل في إخبار الأسر والتخفيف من معاناتهم. أمسكت ناتالي في يدها لائحة المسافرين التي زودوّها بها. يخضع الإجراء دائماً للطقوس نفسها: في البداية يبادرك صوت متهدّج قلق: «هل أخي/ أختي/ والداي/ أولادي/ خطيبتي/ صديقي/ زوجي/ أسرتي/ أصدقائي... كانوا على متن الرحلة 714؟» تطلب ناتالي إذن الاسم وتراجع اللائحة. لم يكن الأمر يتطلّب إلا بضع ثوانٍ، لكنّها تطول وتتحوّل إلى محنة رهيبة. تجيب ناتالي: «كلا»، فيحلّ الفرج الإلهي، ويكون أجمل يوم في الحياة... أو تجيب «نعم»، فيحلّ الانهيار.

كان من الصعب توقّع ردود الأفعال. فبعض الأشخاص الذين صرعهم الحزن يصابون بالحبسة، بالمقابل ينهار آخرون وقد تعالى صراخهم من الألم الذي يُضخّمه صدى المطار.

كانت ناتالي تعلم أن هذا اليوم سيظلّ منقوشاً في ذاكرتها إلى الأبد. فقد سبق لها أن كانت ضمن الفريق الطبي الذي شُكّل خلال كارثة شرم الشيخ، وهي لا تزال تعاني من آثار ذلك إلى اليوم، لكنّها لن تقبل أبداً بتغيير هذا المكان بمكان آخر. ستساعد الناس على التعبير عن آلامهم، ودعمهم حتّى يجتازوا هذه المحنة ويستحملوا وقع المأساة.

لمّا دخلت ماري إلى القاعة، تقدّمت نحوها ناتالي:

– أنا الدكتورة ديليريم.

قالت ماري:

– أسأل عن أخبار ابنتي جوليت بومان. كان من المفروض أن تكون ضمن ركاب هذه الرحلة...

كانت قد أوشكت على استرجاع هدوء ظاهري رغم أنّ العاصفة التي اجتاحت جسدها تهدّد بتحطيم كل شيء.

حدّقت ناتالي في اللائحة ثم صمتت. جوليت بومان...؟ كانت قد تلقّت تعليمات خاصة بشأن هذه الحالة. فقد طلب منها رجال الأمن منذ بدء فترة دوامها بأن تخطرهم على وجه السرعة بأيّ شخص جاء يسأل عن هذه المسافرة.

طلبت ناتالي على نحو أخرق:

- انتظري لحظة يا سيدتي.

ثمّ انصرفت فوراً.

لكن الأوان كان قد فات. شرعت ماري في البكاء بصمت مستسلمة لعواطفها وقد أيقنت من أنّ النهاية مفجعة.

لحقت ناتالي بالشرطيين اللذين كانا في الحراسة بزيّهما الرسمي، وشرحت لهما الموقف، وما هي إلا لحظات حتّى رأت ماري تلك الكتلتين الزرقاوين تسقطان عليها كجدار عظيم.

- السيدة بومان؟

حرّكت رأسها وقد ترقرقت الدموع في عينيها، وهي لا تفهم ما يقع.

- هلا تفضّلت معنا.

11

كل من يحيون أمامهم أمل، بل كلب حيّ
أفضل من أسد ميت.

سفر الجامعة

الاثنين صباحاً بمفوضية المقاطعة الواحدة والعشرين

- يمكن أن تستجوبها يا سيدي، إنها في الغرفة.

أجاب المفتش فرانك دي نوفي وهو يقوم واقفاً:

- أنا آتٍ.

قبل أن يغادر مكتبه، تمهّل قليلاً أمام التلفاز. كان الجهاز موجّهاً على قناة إخبارية تبثّ آخر صور التحطّم.

كان المعلّق يشرح:

«تمّ تطويق المنطقة مباشرة بعد الحادثة. وستستمرّ عمليات البحث، لكن قوة الاصطدام كانت من الشدة بحيث يُستبعد العثور على أحياء، ولم يعثر إلى حدّ الآن سوى على ثلاثين جثّة».

طوّقت باخرات عسكرية المنطقة وجابت المحيط جوقة طائرات عمودية. وعند الاقتراب من الشاشة، لمح دي نوفي قطعاً من قمرة القيادة وأمتعة ممزقة وسترات إغاثة تطفو على سطح الماء.

«ما زلنا نجهل رسمياً ما إذا كان الأمر يتعلّق بحادثة أم بعمل

إرهابي. فقد تلقّت الجزيرة مكالمة من مجهول ينتمي إلى جماعة إرهابية غير معروفة يؤكّد فيها وضعه قنبلة على متن الرحلة 714، لكن هذا الادعاء ينبغي أن يؤخذ بحذر شديد، وقد اعترفت السلطات بأنّ هذه المكالمة ليست لها أي مصداقية.

من ناحية أخرى قد تكون شرطة نيويورك بصدد التحقيق مع مشتبه به لم يكشف عن هويته بعد. وربّما تعلق الأمر، حسب بعض المصادر، بشابة غادرت الطائرة على حين غرة قبل دقائق من إقلاعها. . .»

ضغط فرانك دي نوفي بعنف على زرّ التوقيف بجهاز التحكم عن بعد. كان زملاؤه في المطار ما زالوا يثرثرون مع الصحفيين! في غضون ساعات، سيعلم الجميع أنهم أوقفوا تلك الفرنسية.

دخل إلى الغرفة الصغيرة المجاورة لقاعة التحقيقات ثمّ أدار الزرّ لتشغيل المرآة العاكسة من جانب واحد، فلاحت له على نصف الجدار صورة امرأة شابة جالسة على مقعد. كانت مكبّلة اليدين، شاحبة، تنظر بعينين متعبتين في الفراغ وهي لا تفهم ما يحصل لها. تفرّسها دي نوفي، ثمّ نظر في مفكرته. كانت تدعى جولييت بومان، أوقفتها شرطة مطار جون كينيدي الليلة السابقة بُعيد تحطُّم الطائرة. وهم يوضّحون في تقريرهم أنّها طلبت مغادرة الطائرة دقائق قبل إقلاعها، ممّا جعل سلوكها الغريب يثير فضول رجال الجمارك، فاستدعوها من أجل مراقبة روتينية. بعد تدقيق بسيط أملته الإجراءات الأمنية المشدّدة منذ الهجمات، تحوّل ذلك التدقيق إلى توقيف. ذلك أنّ الفرنسية لم تتعاون، إذ صرّحت بأنها كانت مستعجلة للّحاق بصديق لها، وأبدت مقاومة شرسة أثناء التحقيق، بل بلغ بها الأمر إلى الطعن في قوات الأمن. وإذا كان سلوك كهذا يعدّ خطيراً حين

يبدر من مواطن أميركي، فإنه يُعتبر مرفوضاً إذا صدر عن امرأة فرنسية.

ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل أفضى فحص جواز سفرها إلى الكشف عن تزوير تاريخ التأشيرة، إذ عمدت الآنسة إلى محوه وتعديله. وقد كانت هذه المعطيات كافية لأخذها إلى مفوضية الشرطة حيث جرى اعتقالها على ذمة التحقيق.

سأل أحد رجال الشرطة:

- أأفكّ أصفادها، سيدي المفتش؟

فأجابه دي نوفي:

- بالعكس، قيّد رجليها كذلك.

- أتظن حقّاً أنـ...

- نعم!

بعد تحطم الطائرة مباشرة، راجت لفترة قصيرة إمكانية إغلاق المترو والجسور والأنفاق خوفاً من هجوم إرهابي آخر، لكنّ السلطات لم تستسلم في النهاية للذعر، ويبدو أن أحداً لم يكن يؤمن حقّاً بأن الأمر يتعلق بهجوم. والواقع أنّ دي نوفي لم يكن هو نفسه يؤمن بذلك، لكنّه كان يكره هؤلاء الفرنسيين الخونة، ولن يحرم نفسه من متعة إعطاء درس لهذه الفرنسية الشابة، لأنّه يعلم بالخبرة أنّ الناس يستطيعون الاعتراف بأيّ شيء خلال الاعتقال الاحتياطي إذا عرف المحقّق كيف يتعامل معهم، وهذا ما يبرع فيه فرانك. ناهيك عن أنّ فرانك كان يتمتّع بمطلق الحرية بما أن الضابط رودريغيز الذي يشرف على المقاطعة الواحدة والعشرين في إجازة لبضعة أيام إثر وفاة زوجته بعد مرض عضال.

تناول قرصين مهدّئين حتّى يخفّف من خفقان قلبه قبل ولوج قاعة التحقيقات.

- مرحباً آنسة بومان، أتمنّى أن نتفاهم...

وندّت عن الشرطي بسمة مغتصبة غيّرت ملامح وجهه.

قد يدوم الاعتقال الاحتياطي اثنتين وسبعين ساعة، وهو ما سيوفّر له ما يكفي من الوقت ليتسلّى. سيستفرد بها لساعات.

قال وهو يطقطق أصابعه:

- سنستأنف كل شيء من البداية. لماذا غادرت تلك الطائرة الملعونة قبيل إقلاعها بدقائق؟

فتحت جولييت فمها دون أن تُصدر أي صوت. بالكاد ترى الشرطي قبالتها يعيد السؤال نفسه. كانت تشعر بخدر ناتج من جملة صغيرة تتردّد في صدرها على إيقاع دقات قلبها:

أنا حيّة،

أنا حيّة،

أنا حيّة...

لكن صوتاً آخر كان يصيح بها أيضاً أنّه ما كان عليها أن تكون حيّة...

12

لا يوجد بيننا وبين الجنة أو النار إلا الحياة،
وهي أوهى شيء في الوجود.

باسكال

بعد زوال يوم الاثنين، شمال سنترال بارك

كان سام غالواي عائداً وهو يهرول بالممشى المكسو بالحصى الذي يعبر الحديقة.

منذ وفاة زوجته، هذا هو أوّل صباح يتلفن إلى المستشفى ليخطرهم بتغيُّبه عن العمل. بقي في بيته مصعوقاً بالحزن والشعور بالذنب تماماً مثلما حدث له قبل سنة من الآن. فالمرأتان اللتان أحبهما لقيتا حتفهما، وذلك بسبب خطئه. كان ذهنه يغلي كالصهار، إذ احتدم فيه حشد من الذكريات والأفكار المتناقضة. فرغم اتّصاله الدائم بالموت بحكم مهنته، أصابه الذهول هذه المرّة.

غطى سام رأسه بقبّ بذلته الرياضية لكي يحتمي من لسعات الريح الباردة. ذلك أنّه قرّر قبل ساعة من ذلك الخروج للنزهة في الهواء الطلق حتّى لا يُجنّ من اجترار آلامه، واعتقد بسذاجة أنّ الجري قد يخفّف عنه.

لكن الأمر لم يكن كذلك.

توقّف أمام ملاعب كرة السلة لكي يستعيد أنفاسه. كان المكان قفراً لأن الصقيع كان لا يزال يكسو جزءاً منه. ويبدو أنّ البرد ثبّط من همم رفاق جوردان[1].

دفع سام باب الملعب الحديدي وتهاوى على أحد المقاعد، ذلك أنّه كان يشعر بتشنّج عضلي يمزّق فخذه. وما كاد يجلس حتّى دفن رأسه بين راحتيه، وكان جسده بكامله يرزح تحت الألم والتعب. فهو لم يغمض له جفن منذ ثلاثة أيام، ويشعر بدوار شديد. وبينما أحسّ بألم حادّ يخترق صدره، تنبّه إلى أنّه لم يأكل شيئاً منذ أربع وعشرين ساعة، وأن معدته فارغة تماماً. حاول أن يسترجع أنفاسه، لكن تنفّسه انقطع.

إنني أختنق!

تكدّر بصره للحظة، وسمع في البعيد على نحو مشوّش صرير الباب الحديدي ينفتح. كان الهواء البارد يلهب رئتيه. انحنى إلى الأمام كما لو أنه سيقيء قلبه. كان بحاجة إلى أن يشرب شيئاً بسرعة!

- أتشرب قليلاً من القهوة؟

رفع سام عينيه فوجد امرأة سمراء تقف أمامه بقوام رياضي، ترتدي سروال جينز وسترة جلدية. كانت نظرتها الصادقة المصمّمة تنير وجهاً مستطيلاً ما زال يسري فيه ماء الشباب، بعينين واسعتين لوزيتين أشبه بعيون لوحات موديغلياني[2].

كيف وصلت إلى هناك دون أن يلحظها؟ ولماذا ناولته أحد الكوبين اللذين تحمل كلاً منهما في يد؟

---

(1) لاعب كرة سلة أميركي سابق، طبقت شهرته الآفاق. (المترجم)

(2) Amedeo Modigliani (1884-1920) رسام إيطالي كبير اشتهر برسم الوجوه والبورتريهات. (المترجم)

قال وهو يسعل:

- أنا بخير، شكراً.

فردّت وهي تلحّ عليه:

- خذ، لقد اشتريت كوبين.

تناول سام كوب القهوة من تلك اليد المحسنة الغامضة مُكرهاً تقريباً. كان هذا المشروب مفيداً له، إذ هدأ من سعاله وأشعره بشيء من الدفء.

وبينما انحنت المرأة نحوه، انفرج ذيل لباسها قليلاً فتهيأ له أنّها تتمنطق بغمد مسدس.

الشرطة!

أجل، فقد كان يملك حاسة سادسة تمكنّه من التعرف عليهم، أشبه ما تكون بالاستعداد الفطري. لا يمكن أن يقضي المرء طفولته في الشارع دون أن يعرفهم. ففي حيّه القديم، أقلّ ما يمكن أن يُقال هو أن الناس لم يكونوا يحملون ودّاً للشرطة. فتدخلاتها التي لم تكن في الأغلب في محلّها كثيراً ما كانت تخلق من المشاكل أكثر ممّا كانت تسوّي. ورغم أن وضع سام الاجتماعي تغيّر، فقد ظلّ يتوخى الحذر، وعقد العزم على أنه إن صادف يوماً مشاكل جديّة، فستكون الشرطة آخر ما سيلجأ إليه.

سألته:

- هل تسمح لي بالجلوس؟

ردّ بنبرة حذرة:

- تفضلي.

لاحظت ردّ فعله المتراجع، فأدركت أنّه قد يكون رأى المسدس، وهو ما دفعها إلى أن تسارع لتقديم نفسها قبل الوقت الذي

توقعته، فقالت وهي تظهر شارتها:

- اسمي غريس كوستيللو. أنا مفتشة شرطة أعمل بالمقاطعة السادسة والثلاثين.

انعكست بعض الأشعة على القطعة المعدنية، فلاحت الحروف الأربعة NYPD[1] متلألئة.

سألها متظاهراً بعدم الاكتراث:

- أتقومون بدورية في المكان؟

- في الواقع، أنا بانتظار شخص.

صمتت قليلاً ثمّ أضافت موضّحة:

- رجل.

قال وهو يحرك الكوب الذي أفرغ نصفه:

- آسف إن كنت شربت قهوته.

- لا أظن أنّه سيلومك على ذلك.

وبدا في عيني غريس كوستيللو بريق غريب قرأ فيه سام أمراً مقلقاً، خطراً وشيكاً دفعه إلى المسارعة بمغادرة المكان. قام واقفاً:

- طيّب، مع السلامة، أتمنى ألاّ يطول انتظار صديقك...

- الواقع أنه حاضر، وهو ليس صديقاً على وجه التدقيق.

حين تعود به الذاكرة إلى هذه الواقعة بعد مرور وقت طويل، يقول سام في نفسه إن الأمور كانت ستأخذ مجرى مخالفاً لو أنّه لم يجلس على ذلك المقعد تلك الظهيرة، لكنّه يعلم في قرارة نفسه أن غريس كوستيللو هذه كانت ستلحق به حيثما كان، وأن ما وقع بعد اللقاء سيكون هو نفسه على كلّ حال.

---

(1) New York Police Department.

- ماذا تقصدين؟

- لقد جئت للقائك أنت يا دكتور.

قطّب سام حاجبيه، كيف علمت أن...

في انتظار الجواب، راحت غريس تحدّق في جيب بذلة الطبيب الرياضية التي طرز عليها شعار فرقة مستشفى ماتيوس لرياضة البيسبول.

قال سام وقد امتعض من اضطراره للكشف عن هويته:

- اسمي سام غالواي. طبيب أطفال.

وعوض أن يكون ردّها «تشرفنا، أنا سعيدة بمعرفتك» مثلاً، مضت غريس كوستيللو تتحدّث ببطء بالغ:

- تبدو مهموماً يا دكتور غالواي...

- كلّ ما في الأمر أنّني متعب، وأنا مضطرّ للانصراف.

ابتعد سام ببضع خطوات، وشارف على الباب الحديدي لمّا جعله سهم جديد من غريس يتسمّر في مكانه:

- إنه لأمر صعب أن يفقد المرء شخصاً عزيزاً، أليس كذلك؟

قال وهو يلتفت:

- لست أفهم قصدك.

تفرّسها هذه المرّة بقلق متزايد.

قامت غريس بدورها واقفة وانتصبت أمامه بوثوق وتصميم لم ينالا شيئاً من أنوثتها. كانت السماء قد صارت برتقالية بينما تميل الشمس منحدرة باتجاه هودسون.

- اسمع يا دكتور، أنا أعلم أنّك تجتاز محنة صعبة، لكن لا وقت لديّ لأحوم حول الموضوع، إليك إذن ما أريد قوله: لديّ خبران لك، أحدهما طيّب والآخر سيء...

قاطعها بفتور:
- لا مزاج لي لأتسلّى بلعبة الأحاجي.
- الخبر الطيب هو أن صديقتك حيّة...
فرك سام عينيه مشدوهاً:
- أيّ صديقة؟
فقالت غريس موضّحة:
- لم تكن جولييت على متن الطائرة. إنها لا تزال حيّة.
- مجرّد هذر!
كان جواب غريس أن أخرجت من جيبها مقالاً صحفياً خطفه سام من بين يديها. كان ثمّة عنوان غريب بارز على الصفحة الأولى:

فتاة فرنسية معتقلة احتياطياً
بعد تحطّم طائرة الرحلة 714

كانت الجريدة تحمل على نحو غير مفهوم تاريخ اليوم الموالي.
سأل الطبيب مرتاباً:
- أين عثرت على هذا؟
ظلّت غريس صامتة بينما راح سام يتفحّص بقية المقال بتوتّر بالغ.
فقال مهدّداً:
- أهي مزحة؟
- ليست مزحة: جولييت حيّة!
- لماذا تحمل الجريدة تاريخ الغد إذن؟
تنهّدت غريس، فهذا الرجل لن يجعل مهمّتها سهلة.
- اهدأ يا غالواي.

تنحّى سام فجأة وقد استشاط غضباً. شوّشته هذه المرأة التي تخرّف، لكن عليه مع ذلك أن يتثبّت. وبينما استأنف عدوه، لم يمنع نفسه من الاستسلام لأمل يائس.

ماذا لو أنّ ما يزعمه هذا المقال صحيح؟ ماذا لو كانت جولييت لا تزال حيّة؟

لمّا بلغ الجانب الآخر من الباب الحديدي، التفت للمرّة الأخيرة نحو غريس. كان شيء من التعاطف والتحدي يطبع نظرته الغريبة. وألفى سام نفسه يسألها دون إرادته:

- وما هو الخبر السيّئ؟

13

يسوق القدر من يطاوعه، ويجرجر من يعصاه.

سينيك

الاثنين مساء بمقرّ شرطة المقاطعة الواحدة والعشرين

- أأنت واثق من أنّها موجودة هنا؟

- لقد أوضحت لك ذلك يا سيد غالواي: جولييت بومان معتقلة احتياطياً، وإلى حدود اللحظة، لن تحصل على مزيد من الأخبار.

كان سام يجد صعوبة في تصديق أنّ جولييت لا تزال حيّة! قد تكون بيد الشرطة، لكنّها حيّة...

كان يجد صعوبة في الثبات في مكانه من شدّة التوتر، وألحّ من جديد على الضابط الذي يرتدي الزيّ الرسمي، وهو شاب أفروأميركي بعينين خضراوين وشعر مضفور بعناية شديدة:

- لربّما كان خطأ: أنا أعرف جيداً الآنسة بومان. أمضينا عطلة الأسبوع معاً، وأنا أستطيع أن أؤكّد لك بأنّ لا علاقة لها بحادثة الطائرة هذه!

ردّ الضابط بنفاد صبر:

- في انتظار أن يأتي أحد الموظفين لأخذ تصريحاتك، هلا جلست وهدّأت من روعك.

خرج سام إلى الباحة حانقاً. لقد جاء إلى هذا المكان بملابس الرياضة، إذ لم يستطع التمهّل حتّى يغيّر ملابسه. لم يكن يحمل معه هاتفه النقال ولا يوجد في جيبه سنت واحد، مع أنه مضطرّ للاتصال بمحامٍ على وجه السرعة إذا كان يرغب في إخراج جولييت من هذه الورطة.

عاد إلى الضابطة التي كانت تعلّق على بزّتها شارة كتب عليها اسم كاليستا:

- ستضحكين منّي، لقد نسيت محفظة نقودي.

- إنّه أمر مضحك فعلاً.

- هل يمكن أن تقرضيني دولاراً؟

- وماذا أيضاً؟

- لكي أتلفن.

تنهّدت:

- لو أعطيت دولاراً لكلّ من يمرّون من هنا...

- سأعيده لك.

- لا تتعب نفسك.

أخرجت من جيبها بامتعاض أربع قطع من خمس وعشرين سنتاً ومدّتها له. شكرها وعاد إلى الردهة لكي يستعمل أحد الهواتف العمومية.

خلافاً لعدد كبير من مواطنيه، لم يكن له محامٍ معيّن. لذلك فإن أوّل من تبادر إلى ذهنه هو أن يهاتف إحدى مستشارات المستشفى القانونيات التي كانت بينه وبينها ألفة. بعد الإنصات لمشكلته، نصحته بأحد زملائها، واتصلت به فوراً. أغرت التداعيات الإعلامية للقضية المحامي، فقبل القدوم فوراً، ممّا هدّأ من روع سام.

هكذا ستعود الأمور إلى نصابها. رجال شرطة هذه المدينة ليسوا ربّما أذكياء، لكنّهم سيتنبّهون بسرعة إلى أنّ جولييت لا يد لها في تحطّم الطائرة، رغم أن حالة البرانويا التي خلّفها الحادي عشر من سبتمبر لم تكن آثارها قد زالت بعد.

حاول أن يجلس لحظة، لكنّه لم يستطع. ما كان يقلقه هي غريس كوستيللو، تلك المرأة التي لقيها في سانترال بارك والتي تحدّثت إليه على نحو غريب، محاولة أن تلعب معه لعبة الخبر الطيب والخبر السيّئ. الخبر الطيب، حسبما شرحت له، هو أن جولييت لا تزال حيّة، لكن لمّا سألها عن الخبر السيّئ، أجابته بطريقة ملغزة: «الخبر السيّئ هو أنها لن تعيش إلا لبضعة أيام». وهو ما جعل سام ينصرف واثقاً من أن تلك المرأة تهذي، من دون أن يسعى لمعرفة المزيد، وهو ما ندم عليه الآن بمرارة.

كلا، إنّه أمر عبثي. بالعكس، عليه أن يُسرّ بنجاة جولييت. هكذا إذن، فهي لم تركب الطائرة، وهو أمر استشعره بحدسه. لقد عادت لكي تنتظره. راح للحظة يتأمّل أبعاد هذا القرار واستعاد من جديد الثقة في الحياة. وقرّر أن يصارحها بالحقيقة في أوّل فرصة تتاح له. سيعترف لها بأنه غير متزوّج. لعلّها لن تؤاخذه على هذه الكذبة التافهة.

- السيد غالواي، أنا المفتش دي نوفي.

رفع سام رأسه نحو الشرطي الذي قطع حبل أفكاره. دعاه إلى أن يرافقه إلى مكتبه. وقد صار دي نوفي أقرب إلى النجم منه بمفتش شرطة عادي. كانت سترته تناسبه على نحو رائع، وتظهر على قميصه الأسود علامة إحدى كبريات دور الملابس الجاهزة الإيطالية. ففضلاً عن مظهره الرياضي، كان يبدي ابتسامة ساحرة تكشف عن أسنان

ناصعة البياض، وكانت بشرته المحمرّة تشي بأنّه قادم من عطلة تعرّض فيها لأشعة الشمس، أو لحصص من الأشعة فوق البنفسجية.

احتاط منه سام من أوّل نظرة بلا سبب ظاهر. مهما يقال، فالناس ليسوا على قدر كبير من التعقيد، وغالباً ما يكون الانطباع الذي يثيره فينا أحدهم صحيحاً.

- إنني أنصت إليك يا سيد غالواي.

حكى له سام بإيجاز كيف التقى بجولييت. وأقسم بأنّه لم يفارقها ولو لدقيقة خلال الثماني والأربعين ساعة الأخيرة. أومأ دي نوفي إلى جواز السفر المزوّر، لكن سام أجاب بأن ذلك غير كافٍ لاتّهام جولييت بالإرهاب.

- إذا كنت قد فهمت جيداً، فالآنسة بومان غادرت الطائرة باستعجال لتلحق بك...

- الأمر كذلك.

- قرّرت البقاء معك في نيويورك؟

- هذا ما أظنّه.

تنهّد الشرطي:

- السيد غالواي، أعترف أنّني لم أستوعب جيداً منطق لعبتك مع الآنسة بومان: أنا أحبك، لكنني سأتركك، أحبك وأتركك...

ردّ سام بضيق:

- غالباً ما تسير الأمور في الحياة على هذا النحو. فالعلاقات بين الرجال والنساء ليست بسيطة، لكن هذا الأمر يستعصي على فهمك فيما يبدو.

تجاهل دي نوفي الملاحظة واسترسل في استجوابه:

- أساعدتَ الآنسة بومان في جمع أمتعة السفر؟

- كلا.

- هل كانت تحمل، حسب علمك، أمتعة أو علباً لفائدة شخص آخر؟

- كلا!

- طيب، فأنت لا تعلم شيئاً.

- أنا طبيب، وأستطيع تمييز المدمنين على المخدرات.

مطّ دي نوفي شفتيه في حركة مرتابة، فقال سام مهاجماً:

- نحن في أميركا، والناس في هذا البلد لا يودعون السجن لمجرّد أنهم يحبّون!

- إذا سمحت، فالوضع أعقد قليلاً ممّا تقول.

- اسمح لي بالتحدّث إليها على الأقل...

- مستحيل. سنخبرك بوقت وساعة انتهاء الاعتقال الاحتياطي.

ثمّ أضاف بساديّة:

- لكن إن شئت رأيي، فلن يكون ذلك في القريب.

راجع المفتش مفكّرته قبل أن يعيد السدادة لقلمه المانبلان بحركة استعراضية:

- سؤال أخير سيد غالواي: كيف علمت بأنّ الآنسة بومان لم تلقَ حتفها في الحادثة؟

تردّد سام برهة، لكن الحدس دفعه إلى عدم الإشارة إلى تدخل غريس كوستيللو الملغز. وعوض ذلك، قال محذّراً الشرطي:

- أنت بصدد ارتكاب خطأ جسيم...

- أنا أقوم بمهمّتي.

- أنصحك باحترام القانون، فجولييت محامية، وستعرف كيف تدافع عن نفسها إن...

قطّب دي نوفي حاجبيه وهو يقول:

- من هي المحامية؟

- جولييت بومان.

- أهذا ما قالته لك؟

فردّ سام من دون أن يدرك بأنه مخطئ:

- نعم.

التمعت عينا دي نوفي. انتصب واقفاً فجأة. فهذه الفرنسية لم تكن واضحة قطعاً: تزوير جواز السفر، العصيان، انتحال هوية...

فصاح به سام:

- تبّاً، ماذا تريد أن تُفهمني؟

ردّ دي نوفي بنبرة ظافرة:

- جولييت بومان ليست محامية، هي نادلة في مقهى...

*

راح سام يذرع ردهة مقرّ الشرطة منزعجاً. تحدّث من فوره مع المحامي المكلّف بتقديم المساعدة لجولييت. لقد نصحه بالعودة إلى بيته: يمكن أن يستمرّ الاعتقال الاحتياطي ليومين آخرين، ولا جدوى من إضاعة وقته هنا. وقبل أن يمتثل لهذه النصيحة، ودّ سام التحقّق من أمرٍ أخير.

تقدّم إلى مكتب غاليستا.

- هل تقدّمين لي خدمة تنهي بها يومك؟

هزّت الشابة السمراء رأسها وقالت وهي ترتّب لوازمها:

- آسفة، لقد أنهيت خدمتي.

- اسمعي، أنا بحاجة إلى بعض المعلومات عن شرطيّة تعمل في

مفوضية أخرى تدعى غريس كوستيللو. إنها مفتّشة بالمقاطعة السادسة والثلاثين.

- لا أستطيع أن أقدّم لك مساعدة بهذا الشأن.

- الأمر بغاية الأهمية.

قالت وهي تهزّ كتفيها:

- في غاية الأهمية بالنسبة إليك ربّما، لا بالنسبة إلي!

توسّل لها سام وهو مقتنع بأنّها تستطيع أن تساعده:

- قدّمي لي هذه الخدمة أرجوك!

- أريد أن أطرح عليك سؤالاً: لماذا تلجأ لي دائماً علماً بأنّ هناك مكتبين في مدخل هذه المفوّضية الملعونة؟

فقال الطبيب:

- ربّما بسبب هذا.

وأومأ إلى صورة فوتوغرافية صغيرة معلّقة إلى الجدار خلف الشابة.

كانت الصورة تمثّل طفلتين صغيرتين تلعبان الحجلة على رصيف بشارع بيدفورد.

قطّبت كاليستا حاجبيها، فقال سام موضحاً:

- أنا أيضاً نشأت في هذا الحي.

- هراء!

- إنّها الحقيقة.

- أستغرب ذلك.

- لماذا؟

قالت وهي تومئ بأصبعها لوجهها ثمّ لوجه الطبيب وذلك حتّى

تثير انتباهه إلى بياض بشرته هذا في الوقت الذي كانت فيه كل الساكنة سوداء.

- فقال مؤكّداً حتّى يضفي على كلامه طابع الحقيقة:

- درست الطور الابتدائي بمدرسة مارتن لوثر كينغ والثانوي بشارل درو.

علّقت بحذر:

- معرفة أسماء المدارس لا يعني أنّك درست بها.

تنهّد سام.

- تريدين الدليل، حسناً.

فتح أولاً سوستة سترته الرياضية، ثمّ تخلّص من قميصه والتي-شيرت.

فهتفت به مذعورة بسبب تجرّده من ملابسه:

- أذكّرك يا دكتور غالواي بأنّك في مفوضية شرطة، وأنا لا أريد مشاكل...

دنا سام عارياً من الشابة حتّى تتمكّن من رؤية الكلمات الموشومة بالأزرق بحروف صغيرة Do or die: «افعل شيئاً ما أو مُت»، وهو شعار حيّه القديم ببيدفورد.

ظلّت كاليستا تحدّق في سام دون أن يرفّ لها جفن ثمّ تناولت الهاتف، لكن ضابطاً آخر كان قد وصل ليخلفها، وشرع يأخذ مكانه.

- ذكّرني باسم مفتشتك.

- غريس كوستيللو.

فقالت آمرة:

- انتظرني هنا لحظة.

تابعها سام ببصره وهي تبتعد وتعبر القاعة الكبيرة حيث الموظفون

منهمكون في العمل. عثرت على مكتب فارغ في الممرّ بالطابق الأوسط (الميزانين) الموجود فوق القاعة. كان بإمكانه أن يتابع حركاتها عبر باب زجاجي. هكذا رآها تُجري عدّة مكالمات هاتفية، ثمّ توصلت بفاكس. وخمّن من خلال استراقها النظرات حولها أنّ ما طلبه منها لا يدخل بالضرورة ضمن صلاحياتها، وأنّها تخاطر من أجله. قطّبت حاجبيها مراراً دلالة على عدم فهمها.

عادت أخيراً وهي تحمل ورقة في يدها.

سألته بغضب:

- أتسخر منّي؟

- لا أسخر بالطبع، لماذا تقولين هذا؟

مدّت له الفاكس الذي توصلت به على الفور:

- لأنّ كوستيللو ماتت منذ عشر سنوات.

14

لما ينوون الاعتداء عليك، فهم يستهدفون من تحبّ...

حوار وارد في فيلم «العراب» لفرانسيس فورد كوبولا

غادر سام مفوضية الشرطة مشوش الذهن، حائراً.

أنعشه الهواء البارد في الخارج. حثّ الخطى وهو يسير في الشارع حتّى يستدفئ، ومضى يجول ببصره لعله يرى سيارة أجرة غير محجوزة. كان الليل قد خيّم وبقايا الثلج المتجمّد تطقطق تحت خطواته. لم يستطع أن يتمالك نفسه وهو يمرّ تحت مصباح إنارة عمومية فأخرج الفاكس الذي سلمته له كاليستا من جيبه، وهو عبارة عن مقال نشر في النيويورك بوست منذ عشر سنوات، لكي يعيد قراءته.

Woman Police Officer shot dead in Brooklyn[1]

عثر على غريس كوستيللو، مفتشة شرطة بالمقاطعة السادسة والثلاثين، مقتولة برصاصة في الرأس الليلة الماضية داخل سيارتها. ولا تزال أسباب مقتلها مجهولة لا سيما وأنّها لم تكن في الخدمة لحظة الجريمة فيما يبدو. اشتغلت غريس، التي تبلغ الثامنة والثلاثين من عمرها، بـ NYPD منذ خمسة عشر سنة. بدأت مشوارها كضابطة دورية قبل أن تتدرّج في الرّتب حتّى رقّيت مفتّشة شرطة وهي في

(1) مقتل ضابطة شرطة رمياً بالرصاص ببروكلين.

السادسة والعشرين من عمرها. وقد قدمت هذه المرأة التي خبرت الميدان إسهاماً حاسماً في حلّ العديد من القضايا الإجرامية الكبرى.

كانت هذه الشرطية الحاصلة على دبلوم من جامعة نيويورك ومن أكاديمية مركز التحقيقات الفيدرالي بكوانتيكو أمّاً لطفلة في الخامسة، وكان ينتظرها مستقبل زاهر في مصالح الشرطة بما أنّ ترقيتها الأخيرة لرتبة نقيب كانت ستصبح سارية المفعول ابتداء من الشهر المقبل.

كان المقال مصحوباً بصورتين فوتوغرافيتين لغريس: صورة كلاسيكية ببزّة نقيب في حفل ترسيمها بـ NYPD، وأخرى شخصيّة بجانب البحر بصحبة ابنتها الرضيعة.

كانت الصورتان واضحتين نسبياً مما مكّن سام من ملاحظة أنّها المرأة نفسها التي لقيها قبل ساعات من ذلك بحديقة سانترال بارك. امرأة من المفروض أنّها ماتت منذ عقد...

لمح أخيراً سيارة أجرة تنعطف عند زاوية الشارع، وكانت إنارتها الأمامية تشير إلى أنّها غير محجوزة. خطا خطوة إلى الأمام وناداها. وبينما كانت السيارة تناور لكي تتوقّف، تجنّبتها سيارة شرطة من جهة اليمين وتوقفت بمحاذاة الطبيب. انفتحت النافذة فبدا منها ضابط دورية في الخمسينيات من العمر بوجه واجم.

– السيد غالواي؟

– نعم.

– إذا لم يكن الأمر يضايقك، أرغب في أن ترافقني لجولة.

– في الوقت الراهن سيضايقني. أنا بحاجة إلى سيارة أجرة وليس إلى موكب رسمي.

- أجدني مضطراً لكي ألحّ عليك.

- وأنا أجدني مضطرّاً لرفض طلبك: رأيت هذا اليوم ما يكفي من رجال الشرطة، وأنا لا أحبذ أساليبكم.

- لا تلزمني باستعمال الخيار الآخر.

- وما هو؟

فقال الشرطي مهدّداً:

- أستطيع أن أترجل وأهشّم وجهك.

- صحيح؟ بودّي أن تريني ذلك.

انطلقت السيارة بسرعة وصعدت فوق الرصيف معترضة طريق سام الذي لم يتراجع، وفي رمشة عين قفز الشرطي من السيارة وتقدّم نحوه. كان شخصاً ممتلئاً، متوسّط القامة، أميل إلى البدانة رغم مظهره الرشيق.

قال وهو يضع يده على سلاحه الموضوع في الغمد والمعلّق في حزامه:

- أنا الضابط مارك روتيللي.

حدّق الطبيب في عينيه، فلمس في نظرته تصميماً لا يتزعزع. كان هذا الرجل يبدو مستعداً لأي شيء ليجبره على مرافقته.

قال سام:

- أظن أنه حري بك أن تقرأ ما كتب على سيارتك.

وهو يومئ إلى ما كتب على السيارة: الحروف الثلاثة CPR الكياسة والمهنية والاحترام التي يُفترض أنها تلخص شعار شرطة المدينة.

فبادره روتيللي:

- حسناً، سأطلب منك لآخر مرة بأدب: أودّ أن أتحدّث معك قليلاً.

لمّا أدرك سام بأن لا خيار آخر أمامه غير التحدّث إلى هذا المخبول، سأله بنبرة خاضعة:

- فيمَ تريدنا أن نتحدث؟

- عن زميلتي السابقة في الفريق: غريس كوستيللو.

صعد سام إلى السيارة وتوجّه روتيللي نحو الجنوب.

- أنت طبيب، أليس كذلك؟

- نعم، أنا أخصائي أطفال، لكنني أريد أن أفهم ما معنى كل هذا...

رفع روتيللي إحدى يديه ليقاطعه:

- لمّا دخلت قبل نصف ساعة بعد إنهاء الخدمة، أخبرني أحد العاملين في مركز الهاتف بأنّ ضابطة من المقاطعة الواحدة والعشرين اتصلت لتسأل عن غريس كوستيللو...

فقال سام مؤكّداً:

- أنا من طلبت منها ذلك.

- ... ويبدو أنها تظن أنها لا تزال حيّة.

فقال سام مؤكّداً:

- إنها لا تزال حيّة.

- ما الذي يجعلك تزعم هذا؟

- تحدّثت إليها بعد زوال اليوم.

تنهّد روتيللي، ولاحظ سام أنّ يدي الشرطي شرعتا في الارتعاش، وأن أصابعه بدأت تمسك المقود بتشنج. ثمّ فتح النافذة

وأخذ نفَساً عميقاً من الهواء البارد، ولزم الصمت لبضع دقائق مكتفياً بالقيادة دون احترام أضواء المرور.

وبينما مرّت السيارة فوق جسر بروكلين، سأل سام:

- إلى أين نحن ذاهبان هكذا؟

- لكي أفهمك بأنّ الأشباح لا وجود لها.

وصلا إلى بنسونهورست، وهو آخر حيّ إيطالي بنيويورك منذ أن تحولت ليتل إيطالي إلى مركز جذب سياحي.

طاف الشرطي مرات عديدة حول كتلة من المنازل دون أن ينجح في العثور على مكان يركن فيه سيارته. وما لبث أن لاحت له لوحة تمتد لخمسة أمتار أو ستة كتب عليها بلهجة مهدّدة:

YOU TAKE MY SPACE

I BREAK YOUR FACE[1]

لكن روتيللي لم يكن بالشخص الذي يخشى التهديد. نزل من السيارة ووجَّه ركلة هازئة للوحة ثم ركن السيارة.

بعد ذلك أخذ سام إلى مقهى يظهر أنّه معتاد عليه. كانت ثمّة شارة من النيون تشير إلى أنّ المحل فتح أبوابه منذ أربعين سنة، وهو أمر استثنائي في مدينة دائمة التغيّر كنيويورك.

قال بلهجة آمرة:

- تعال معي.

تبعه سام إلى قاعة تعبق برائحة عجين الخبز وزيت الزيتون والمليلة. وعلى الجدران عُلّقت صور شخصيات إيطالية أميركية:

---

(1) معناها حرفياً: إن شغلت مكاني هشمت وجهك.

سيناترا، بافاروتي، دينيرو، ترافولتا، مادونا، ستالون. . .

جلس الرجلان متقابلين على مقاعد جلدية.

بادره صاحب المقهى وهو يضع على المائدة زجاجة كحول مبدوءة:

- تشاو ماركو.

- تشاو كارمين.

صبّ روتيللي لنفسه كوباً شربه جرعة واحدة، وكان من نتائج ذلك أن كفّت يداه عن الارتعاش فوراً. وما إن هدأ مؤقتاً حتّى طلب من سام أن يخبره بما يعرفه بالضبط عن غريس.

سرد عليه سام كلّ حكايته منذ أن التقى بجولييت حتّى ظهرت له غريس بسنترال بارك مروراً بتحطّم طائرة الرحلة 714. لما أنهى كلامه، صبّ روتيللي كوباً آخر ثمّ فرك جفنيه دون أن ينجح في إزاحة مسحة الحزن البادية عليه.

- اسمع يا غالواي كنت زميل غريس لمدة عشر سنوات. التحقنا بالشرطة الجنائية في الوقت نفسه تقريباً، واشتغلنا على القضايا نفسها. لم نكن نشكّل فريقاً ممتازاً فحسب، بل كنّا صديقين، بيننا ألفة كبيرة. . .

بينما كان يتحدّث أخرج صورة من حافظة نقوده ومدّها لسام. نظر الطبيب إليها باهتمام: كان يظهر فيها الشرطي بصحبة غريس في مكان ما أمام بحيرة وسلسلة جبلية. كانا شابين جميلين: غريس متألّقة، وروتيللي نحيفاً وباسماً، كلّه ثقة في المستقبل، مختلفاً تماماً عن هذا الرجل الناقم الجالس أمامه في هذه الأثناء.

بادره سام:

- هلا سمحت لي بسؤال. . .

فحثّه روتيللي على الاسترسال.

- بما أنّك عملت مع غريس، كان من المفروض أن تكون برتبة مفتّش...

- صحيح، ومثلها كنت سأرقّى إلى رتبة نقيب.

- ما السبب إذن في أنك بعد عشر سنوات ما زلت مجرّد ضابط دوريّة؟

أخرج روتيللي علبة سجائر من جيبه، وأشعل واحدة. لم يكن من أولئك الذين يجرؤ المرء على تذكيرهم بقانون منع التدخين.

- منذ وفاة غريس، كل شيء تغيّر في حياتي.

- لديك مشكلة مع الكحول، أليس كذلك؟

- مشكل مع الكحول؟

- أأنت مدمن على الكحول يا روتيللي؟

- وفيم يعنيك ذلك؟

- أنا طبيب ولا يعنيني أن أحكم على أفعالك، لكن بإمكاني أن أساعدك.

أومأ الشرطي بيده دلالة على الاستخفاف.

- وضع هذا من أجل المدمنين المجهولين ومن يجري مجراهم! كلا، شكراً، لم يوضع من أجلي.

كان يهمّ بإضافة شيء، لكن الكلمات انحبست في حلقه. بلع ريقه ثمّ استرسل:

- كانت غريس تعرفني جيّداً، بعيوبي ومزاياي. كانت لها القدرة على إخراج كلّ ما هو طيّب فيّ.

وسحب نفساً عميقاً من سيجارته قبل أن يواصل:

- كان كل شيء بالنسبة إليها إيجابياً دائماً، كانت تؤمن بكل تلك الأشياء...

- أي أشياء؟

نظر روتيللي نظرة شاردة عبر الزجاج، وقال موضحاً:

- كانت تؤمن بالسعادة والمستقبل، بالجانب الطيّب من الحياة والناس... كانت لها ثقة بالإنسانية.

صمت قليلاً قبل أن يضيف:

- أما أنا فلست كذلك.

قال سام في قرارة نفسه: وأنا أيضاً.

- صار هذا العمل بالنسبة إليّ بدونها جهنّمياً. لم تعد موجودة لكي تكبح جماحي، لكي تسيطر عليّ...

فسأله سام:

- وبذلك خفّضوا رتبتك؟

أومأ روتيللي مؤيّداً:

- أعترف بأنّني كثيراً ما تجاوزت الحدود في السنوات الأخيرة.

- ولكن كيف تفسّر لقائي بغريس بعد زوال اليوم؟

عادت يدا الشرطي إلى الارتعاش، ثمّ قال وهو يملأ الكوب:

- ليست هي يا غالواي.

- على كل حال كانت نسخة طبق الأصل منها، كما لو أنّها لم تشخ، كما لو أنّها لا تزال في سنّ صورة الجريدة.

قال وهو يصرخ:

- لقد أصابتها رصاصة يا غالواي، رصاصة ملعونة فجّرت جمجمتها! أتفهم هذا؟

أجابه سام مجازفاً:

- لعلّها لم تمُت.

فثارت ثائرة روتيللي:

- لما قتلت غريس، أنا من استُدعيت للتعرف على جثّتها بمصلحة الطبّ الشرعي! رأيت وجهها، وبكيت وأنا أحمل جسدها بين ذراعي! صدقني، كانت هي قطعاً.

حدّق سام في عيني روتيللي، وأدرك بأنّه لا يكذب.

رافقه الشرطي إلى غرينيتش فيلاج، ولما بلغا بيته الصغير، استعاد روتيللي بعض هدوئه.

- أنت تسكن حيّاً فاخراً يا دكتور.

فردّ سام:

- إنّها قصة طويلة.

وبما أنّ الجوّ كان بارداً، بقي الرجلان في السيارة ودخّنا معاً السيجارة الأخيرة في صمتٍ بالليل المخيّم. حرّكت هبّة ريح بارد أوراق شجر الجنكة وعروش الوستاريا. ظلا صامتين لفترة طويلة. كان سام يفكّر في جولييت الوحيدة في زنزانتها، بينما راح روتيللي يفكّر في غريس، المرأة الوحيدة التي لم يحبّ سواها في حياته، والتي ندم على أنّه لم يبُح لها بمشاعره خلال حياتها. وقد كان سام أوّل من كسر الصمت:

- من قتل غريس؟ أتعرفه؟

هزّ الشرطي رأسه.

- حقّقت في مقتلها دون توقف لأكثر من سنة، مضحّياً بعطلات

نهاية الأسبوع وإجازاتي، لكنّني لم أعثر على خيط يمكن أن يوصلني إلى القاتل.

عندئذٍ سحق عقب السيجارة وشغّل المحرك.

- مع السلامة يا غالواي.

ردّ سام وهو يفتح باب السيارة:

- مع السلامة يا روتيللي. فكّر في زيارتي إن قرّرت يوماً التوقّف عن شرب الكحول. تقول صديقة لي: لا وجود للمشاكل، كل ما هنالك هي الحلول.

- كانت غريس تقول هذا أيضاً.

مدّ له الشرطي يده بعفويّة وهو مندهش من الألفة الغريبة التي بدأت تنشأ بينه وبين هذا الطبيب الشاب.

- لعلّك طبيب غريب الأطوار، أليس كذلك؟

فردّ سام موافقاً وهو يشدّ على اليد الممدودة له:

- هذا ما يقولونه لي أحياناً.

استعاد روتيللي شيئاً من حيويته على نحو غريب. كانت عيناه تلمعان كقطعتي ألماس.

سأله سام بقلق:

- ماذا ستفعل؟

- هناك شخص في هذه المدينة ينتحل شخصيّة غريس كوستيللو. ينبغي أن أكشفه وأكشف سبب قيامه بذلك.

- انتبه لنفسك.

- أنت أيضاً يا دكتور.

ترجّل سام من سيارة روتيللي، ومشى مبتعداً في الظلام.

لم يكن يستطيع الوقوف على ساقيه من شدّة التعب. كان يشعر بالدّوار وبألم في بطنه. فتح باب شقته وقد اشتدّت حاجته إلى النوم مصمّماً على الارتماء فوق سريره.

بينما كان الرجلان مستغرقين في الحديث، لم يلحظ أيّ منهما طيفاً كان مختبئاً في الجانب الآخر من الشارع بحيث لم يفته شيء ممّا دار بينهما.

15

لمّا عبر إلى الجانب الآخر من الجسر،
هبّت الأشباح للقائه.

عنوان فرعي لفيلم «نوفيراتو»

اطّلع سام على الرسائل التي تلقّى: كان هاتفه النقال وجهاز الاستقبال الإلكتروني حافلين بالمكالمات من المستشفى. حاولوا الاتصال به طيلة الظهيرة فيما يبدو.

ماذا وقع يا ترى؟

كان يهمّ بالاتصال بالمستشفى لمّا سمع حسّاً بالطابق العلوي. صعد السلم بسرعة مشوّشاً وفتح باب الغرفة، فاندفعت هبّة باردة كأنها تيار هواء. كانت النافذة مُشرعة، فلمح طيفاً ميّزه في زرقة الليل. طيف امرأة فارعة ورشيقة، جالسة على حافة النافذة: إنّها غريس كوستيللو.

- كيف دخلت إلى بيتي؟
- ليس بالأمر المعقّد.

وقفزت من النافذة إلى الأرضية.

- لقد اقتحمت ملكاً خاصاً! ألديك أمر أو ترخيص رسمي؟

هزّت غريس كتفيها.

- أين تظنّين نفسك؟ في فيلم؟

ثمّ أضاف مهدّداً وهو يهرع إلى الهاتف:

- سأنادي الشرطة.

وبينما كان مندفعاً نحو الهاتف، أوقفته بقبضة من حديد.

- أنا هي الشرطة.

ودون أن يتخلّص من قبضتها، أمسك بتلابيب سترتها الجلدية.

- حتّى لو كنت تحملين سلاحاً، فإنك لن تخيفيني.

رفعت رأسها نحوه، ولم يكن أمام من يراها عن قرب إلا أن يربكه جمالها: كانت تقاسيمها دقيقة وعيناها عميقتين متلألئتين في الظلمة. كانت قريبة منه بحيث شعر بأنفاسها على أذنه.

قالت وهي تجنح إلى اللين:

- لا أقصد إخافتك يا دكتور. كلّ ما أريد هو أن أتحدّث إليك.

أجاب وهو يطلق ياقة سترتها.

- عمّاذا؟

- عن جوليت.

- كيف عرفت أنّها نزلت من الطائرة؟

ابتعدت عنه غريس، ودون أن تجيب عن سؤاله، طافت بالغرفة ببطء وهي تجيل بصرها بين الرفوف المليئة بالكتب.

- أتؤمن بالحياة الأخرى يا دكتور غالواي؟

أجاب سام دون تردّد:

- كلا.

- لعلّك تؤمن على الأقل بالجانب الروحي للأشياء؟

- أنا آسف إن خيّبت ظنك، فانشغالاتي بهذا المجال لا تتجاوز انشغالات القُريدس.

فقالت ملحّة:

- رغم ذلك، ألا تتساءل قطّ لما تفقد مريضاً في المستشفى ما إذا كانت ثمّة حياة بعد الموت؟

فردّ سام موافقاً:

- حدث لي ذلك.

وفي جزء من الثانية، عبر وجه فيديريكا ذهنه.

أين هي؟ أثمّة عالم آخر؟ مكان سنذهب إليه جميعاً؟

لكنّه أجهد ذهنه للتخلص من هذه الأفكار.

استأنفت غريس:

- في نظرك، من يقرّر في اللحظة التي سيموت فيها الإنسان؟

قطّب الطبيب حاجبيه:

- إذا تركنا جانباً عمليات القتل والانتحار، نموت لمّا يستنفد الجسم موارده...

- هراء...

ردّ سام مدافعاً:

- هذه هي الحقيقة، أعمار البشر تحدّدها أعمار شرايينهم، وحالتهم الصحية تتوقف على بنياتهم وتغذيتهم ونمط عيشهم.

- وفي حالة الحوادث؟

هزّ كتفيه.

- هذا هو ما يسمى «مخاطر الحياة»، أليس كذلك؟ سلسلة من المصادفات السيّئة تجعلنا نكون حاضرين في المكان السيئ وفي الوقت غير المناسب.

- ألا يبدو لك هذا في غاية السذاجة؟

- لا يبدو لي ساذجاً. ثمّ إنني لا أعرف إلى أين تريدين أن تبلغي بي...

فجازفت بالقول:

- لنتخيّل أن ساعة موتنا وظروفها مبرمجة مسبقاً.

- شاهدت «ماتريكس» على التلفاز، لكنّي لم أفهم منه شيئاً يُذكر.

- أتحدّث بجدّ، تخيّل شابّة كان من المقرّر أن تلقى حتفها في حادث طائرة...

- أنا لا أؤمن بترّهات القدر هذه.

- تخيّل أنّها تركت الطائرة لأسباب عاطفية في آخر لحظة، محبِطة بذلك مخطّطات الموت.

- أقول إن هذه المرأة محظوظة للغاية، وهذا أمر جيّد بالنسبة إليها.

- لا يمكن للمرء أن يخطئ موعده مع الموت.

- ينبغي الإيمان بخلاف ذلك.

حدّقت غريس في عيني سام.

- ما أحاول أن أشرحه لك هو أن لكل شيء معنى يا غالواي. لا يحدث إلا ما ينبغي أن يحدث، لكن العواطف الإنسانية توقع خللاً أحياناً بميكانيكا...

- ما صلة هذا بجولييت؟

- كان من المفروض أن تختفي في هذه الحادثة، كان هذا هو الوضع الطبيعي للأشياء، وقد أوفِدْتُ لتصحيح هذا الخطأ.

- أيّ خطأ ستصلحين؟

- أنا مبعوثة يا غالواي...

- مبعوثة؟

- أنا مرسولة...

- شكراً، لقد درست لعشر سنوات، وأعرف معنى مبعوثة، لكنك لم تطلعيني على فحوى مهمّتك.

- ظننتكَ فهمت، اسمع يا دكتور: تتمثّل مهمتي في استرجاع جوليت.

- إلى أين؟

أجابت وهي تومئ بأصبعها إلى الأعلى:

- إلى هناك.

لزم سام الصمت لدقيقة تقريباً على شاكلة طبيب يركّز قبل تحرير الوصفة.

- إذا كنت قد فهمت فأنت موظفة مكلّفة بتدبير شؤون الموت هناك في الآخرة؟

- هذه نظرتك أنت للأمور.

- ما يخيفني أكثر...

- نعم؟

- ما يخيفني أكثر هو أن تكوني مؤمنة حقّاً بكل ما تقولين، أليس كذلك؟

فقالت غريس مؤيّدة:

- أفهم أنّه من الصعب تقبّل الأمر.

- لقد شوّش ذهنك شيء أجهله، لكنّني طبيب وأستطيع مساعدتك على...

- كُفّ عن عرض مساعدتك بمناسبة وبغير مناسبة!

- عرضت عليك هذا لمصلحتك.

- إنني أهزأ بتعاطفك: لقد متّ ودفنت منذ عشر سنوات.

- إذا كان الأمر كذلك، فكفاية من الكلام! اخرجي من بيتي!

فقالت غريس وهي تتنهّد:

- التعاون معك لن يكون هيّناً.

توجّهت نحو النافذة التي دخلت منها وقالت:

- ثمّة شيء أخير يا دكتور: كُفّ عن سؤال الناس عنّي. دعْ عنك مارك روتيللي، ولا تكلّم أحداً في كل هذا.

- لماذا؟ ألأنّك الوحيدة التي تمنحين لنفسك الحقّ في اقتحام حياة الآخرين؟

- اعمل بنصيحتي: لمّا يشرع المرء في نبش الماضي، فإنه لا يبقى بمنأى عن المشاكل.

- هراء...

- لقد أعذر من أنذر.

وفجأة سيطر الطبيب المخلص لمهنته على الرجل الغاضب، فشعر سام على نحو غامض بالذنب لأنّه ترك امرأة يظهر أنها بحاجة إلى علاج نفسي تنصرف إلى حال سبيلها. وجدّد اقتراحه:

- إذا احتجت إلى مساعدة، يمكنك زيارتي في أثناء عملي بالمستشفى.

- وهو كذلك، سنلتقي من جديد يا غالواي، سنلتقي.

تخطّت غريس حائط النافذة، وهمّت بالقفز، لكنّها توقفت وأرسلت طلقة أخرى باتجاه الطبيب:

- تبّاً، كدت أنسى: لا داعي لأن تقلق: زوجتك لا تزال تحبّك حتّى بعد ما بُحت لها به بالمقبرة ذلك الصباح.

ظلّ سام مصعوقاً وهو يستشيط من الغضب لبضع ثوانٍ قبل أن يندفع نحو النافذة، وصاح في الشارع:

- منذ متى تتجسسين عليّ؟

لكن غريس كوستيللو كانت قد اختفت.

16

في كليات الطبّ يلقّنوننا أن الصورة الأخيرة التي يحملها كثير من الناس معهم هي وجه طبيب الطوارئ.
أحاول ألا أنسى هذا الأمر أبداً لمّا أرى كل تلك العيون المرعوبة التي تتعلّق بعيوني.

حوار وارد في فيلم «دراكونفلاي» لتوم شادياك.

الثلاثاء صباحاً - مستشفى سان ماتيوس

- تأخّرت يا دكتور غالواي.

ردّ سام وهو ينهي تزرير قميصه:

- طيّب طيّب، سأصل حالاً، مسافة الطريق.

كانت جانيس فريمان، المسؤولة عن مصلحة الطوارئ، بصدد توزيع مختلف تدخلات الصباح. هذه الأفروأميركية ذات الجسد الضخم تُكنُّ كثيراً من الودّ لسام الذي يبادلها المشاعر نفسها.

- هل انفجرت شحنة ديناميت قرب رأسك يا دكتور؟

سألته وهي تلمّح إلى شعره المشعث.

- قضيت ليلة مضطربة.

- هذا أمر سارّ.

فقال سام مدافعاً:

- ليس ما تبادر إلى ذهنك.
- كفى، لستَ ملزماً بتبرير الأمر.
- طيّب، بماذا ستكلفينني؟
- أريد التحدث إليك يا سام.
بينما كانت جانيس تهمّ بأن تبوح له بشيء، اقتحمت امرأة المستشفى حاملة طفلاً بين ذراعيها.
- أنا بحاجة إلى طبيب، بسرعة!
قال سام:
- سأتكفّل بك.
فاقترحت جانيس:
- سأرافقك.
سأل سام السيدة وهو يضع الطفل على نقالة.
- ماذا وقع يا سيدتي؟
- إنه ابني مايلز.
- كم عمره؟
- أربع سنوات. لسعه زنبور في عنقه ونحن في طريقنا إلى المدرسة.
زنبور؟ في عزّ الشتاء؟
- أأنت متأكدة من أنه زنبور، يا سيدتي؟
- أظن...
اللعنة، لم تعد ثمّة فصول.
شقّ سام قميص مايلز تماماً ليفحص اللسعة المزعومة وعثر فعلاً على انتفاخ بارز في أسفل عنقه.
تباً!

سألت جانيس:

- أهي وَذْمَة وعائية (œdème Quincke)؟

- نعم.

- ينبغي الإسراع يا سام، الصبي لا يتنفس!

- سأقوم بثقب القصبة الهوائية.

قبل أن ينهي الطبيب النطق بالجملة، انحنى على الطفل وثبّت قسطرة في قصبته الهوائية، تحت تفاحة آدم مباشرة. ألصق بها بعد ذلك أنبوب محقنة لكي يمكّن الطفل من التنفس.

سألت جانيس:

- أأضع التنفّس الاصطناعي؟

قال سام لإحدى الممرضات:

- ضعي 300 من الأدرينالين و400 من السولوميدرول.

ثمّ التفت إلى والدة مايلز:

- الأمور على ما يرام يا سيدتي، لن يصيب ابنك مكروه.

وقف سام أمام القهوة يرشف أوّل مشروب ذلك الصباح.

شعّت في محياه ابتسامة رضا. لقد شرع يومه كما يحبّ: تشخيص صحيح، تدخّل دقيق فإنقاذ حياة!

سألته جانيس وهي تلحق به:

- يروقك أن تتشبه بالإله، أليس كذلك؟

فردّ فوراً:

- أيروقك أن تسأليني أسئلة بلهاء؟

- أحسنتَ على كل حال.

- شكراً، أتشربين قهوة؟

- هيّا، لنتصرّف كمجانين: أعطني كابوتشينو!

- أأنتِ من تركتِ ستاً وثلاثين رسالة على جهاز الرّد على المكالمات البارحة؟

- بل ستّاً وثلاثين ألف رسالة.

- سألها وهو يضع بعض القطع النقدية في آلة القهوة:

- أكان ثمّة طارئ؟

- لست أنا من سيخبرك يا سام: مهنتنا سلسلة من الأفراح والأتراح...

دعاها فجأة بقلق:

- ادخلي رأساً للموضوع.

- يتعلّق الأمر بأنجيلا. لقد ماتت يا سام. وقع ذلك صباح الأمس.

- مسـ... مستحيل. كانت حالتها مستقرّة.

- لا أحد استطاع أن يفهم ما وقع. لعلّه تعفّن قاتل. شيء بالغ الندرة على كلّ حال.

غادر سام قاعة الاستراحة إلى الممرّ محطّماً تماماً. ضغط كالذاهل على زرّ المصعد. كان من اللازم أن يتأكّد بنفسه.

- انتظر يا دكتور غالواي!

وبما أن المصعد تأخّر، هرع إلى سلم المصلحة متجاهلاً نداء جانيس.

دفع باب الحجرة، فوجد السرير فارغاً من كلّ أغراض أنجيلا الشخصيّة. شعر بالانهيار. كانت ثقته كبيرة بأنّه سينجح في إنقاذها.

لحقت به جانيس وقالت وهي تمدّ له حقيبة ملفات:

- تركت لك هذا.

فتحها سام بلهفة. لم تكن تحتوي على رسالة، بل مجرّد حزمة من الرسوم: رسوم بالأقلام الملوّنة، رسوم بالألوان المائية، رسوم مكوّنة من قصاصات ورق الكرتون والرّمل. رسوم مُلغزة كالعادة، بنسيجها الثخين الذي يذكّره بلوحات زوجته. أشكال مجرّدة بألوان الدم والتراب المحروق الممتزجين في مسارات لولبية معذّبة.

هل لهذا معنى؟ لمساعدة الأطفال على التعبير عن مخاوفهم وانفعالاتهم، كثيراً ما يلجأ إلى الرسم. ذلك أنهم كثيراً ما يمارسونه بعفوية أكبر من الكلام، بل يطلب أحياناً من مرضاه الصغار المصابين بالسرطان أو اللوكيميا أن يرسموا المعركة بين مرضهم وجهاز مناعتهم. ورغم أن ذلك لم يكن يخضع لمنطق علمي، فقد لاحظ بأن النتيجة غالباً ما تسمح بالتنبؤ بتطور المرض بكيفية دقيقة إلى حدّ ما.

لكن كيف سيؤوّل رسومات أنجيلا؟

وبينما كانت تدعوه جانيس للخروج من الغرفة واستئناف عمله، تذكّر فجأة حديثه مع غريس كوستيللو بالأمس.

- أتتساءلين يا جانيس أحياناً؟

- عمّاذا؟

- ألم تتساءلي قط إلى أين يذهبون؟

- أتقصد المرضى الذين يرحلون عنّا؟

- نعم.

وأرسلت جانيس فريمان تنهيدة عميقة.

- لا يذهبون إلى أيّ مكان. إنهم يموتون.

*

كان سام يذرع سطوح المستشفى جيئة وذهاباً وقد حمل ساندويتشاً في يد، وفي اليد الأخرى هاتفه المحمول. هنا تحطّ الطائرات العمودية عند نقل المرضى في حالة طوارئ أو عند تسليم الأعضاء البشرية المزروعة. وقد كان الولوج إلى السطح يخضع لقواعد صارمة، إذ لم يكن مسموحاً للأطباء البتّة أن يقضوا به فسحة الغذاء مهما كان الحال، لكن سام كان يعشق هذا المكان، وهو المكان الوحيد الذي بوسعه أن يدخن فيه بهدوء. كانت هذه الحرية أحبّ إليه من أن يصطفّ في أسفل البناية مع المدخّنين الآخرين المنبوذين اجتماعياً كما لو أنهم من حزب الشيطان. إنّ الولايات المتّحدة من أكثر المناطق في العالم سهولة للحصول على السيجارة، لكن من أصعبها لتدخينها.

اغتنم سام فترة الاستراحة ليهاتف المحامي المكلّف بقضية جولييت. كانت الشابة لا تزال رهن الاعتقال الاحتياطي، ولم يكن المحامي متفائلاً بشأن إطلاق سراحها في الساعات القادمة. قال له سام إنّه مستعدّ لدفع مبلغ الكفالة إذا تطلّب الأمر ذلك. ولكي يحصل على مزيد من الأخبار، اتّصل لاحقاً بقنصلية فرنسا مقدّماً نفسه بأنّه خطيب جولييت. جرى تحويله من قسم إلى آخر، وبعد انتظار طويل، تكرّموا بإحالته على موظف طمأنه بأن القنصلية «قد اتخذت كل التدابير لحماية الآنسة بومان»، لكنّه لما سأل عن تلك الإجراءات، واجهه الموظّف بلغة خشبية. عبّر عن تذمره من الكيفية التي تُعامَل بها جولييت وأعلن أنه من غير المقبول أن تتخلّى فرنسا، التي دأبت على إعطاء دروس في الديمقراطية، عن أحد رعاياها بهذه الطريقة. أفهموه بإيجاز أنّ عليه ألا يختلق المشاكل. فالجميع يعلم أنّ حكاية التفجير هذه لا أساس لها، لكن بعد الخلاف الناشئ بين الدولتين حول

العراق، فباريس تبحث عن سبيل للتقرّب من واشنطن، ولا ترغب في إثارة ضجّة بسبب هذه الحادثة.

ردّ سام محتدّاً:

- حسناً، ولا يهمّكم تدمير حياة أحد مواطنيكم لأسباب سياسية غامضة!

وبينما استرسل في انتقاداته للسلطات الفرنسية، انفتح باب السطوح فجأة لتظهر غريس كوستيللو. أنصتت إليه لحظة وهو يصرخ، ثمّ توجّهت نحوه وانتزعت الهاتف الخلوي من بين أصابعه وأنهت المكالمة.

- أعيديه إليّ!

- اهدأ يا دكتور غالواي، فصديقتك سيُطلق سراحها في آخر المطاف.

- لم يكن ينقصني قطعاً إلا أنتِ! إن استمررت في مطاردتي، سأضطر إلى...

- أنت من عرضت عليّ المجيء!

قاوم سام الرغبة في إشعال سيجارة أخرى، وتنفّس بعمق.

- هيّا يا غريس، أو مهما كان اسمك، بماذا ستخبرينني اليوم: بأنك أنت من قتل كينيدي؟

- أفكّرت فيما خضنا فيه بالأمس؟

- لِعلمِك، لديّ مشاغل أخرى غير مشاغلك.

- لعلّك لم تصدّق أنني موفدة، أليس كذلك؟

تنهّد سام من جديد. تقدّمت غريس قليلاً من حافة السطوح وراحت تتسلّى بإخافة نفسها بالنظر إلى الأسفل.

كان منظر المدينة من هناك أخّاذاً: مياه إيست ريفر تعكس أشعة

الشمس، فتبدو متلألئة. أما المشهد فبدا مذهلاً بتنوّعه، يجمع بين روعة ناطحات السحاب من جهة، والأراضي الصناعية غير المزروعة الواقعة غرب كوينز، من جهة ثانية.

قال وهو يدنو من غريس:

- منظر جميل، أليس كذلك؟ لعلكم معتادون هناك في السماء على هذا النوع من المناظر...

- يا لها من فكرة! ألم يخطر لك يوماً أن تكتب اسكيتشات؟

صعدت بخفة إلى أعلى سلم حديدي لتصل إلى منصة ثُبّت عليها ما يشبه الهوائي. كان مكاناً خطيراً يُمنع الوصول إليه، لكن سام لحق بها بدافع التحدّي، وأيضاً رغبة في حمايتها إن راودتها رغبة مفاجئة في أن تقفز في الفراغ. فمنذ وفاة فيديريكا، كان يتخيّل المنتحرين في كل مكان.

- تبدو مكدّر المزاج يا دكتور، ألست على ما يرام؟

- كلا، لست على ما يرام. المرأة التي أحبّ مسجونة، ثمّ إنّني فقدت مريضة صغيرة أُعزّها كثيراً.

هزّت غريس رأسها برفق.

- الصغيرة أنجيلا؟

- كيف عرفت؟

- أرقّ لحالك. أعلم أنك طبيب شاب كفء حسن الطوية، لكن ثمّة شيء لم يلقنوه لك خلال دراساتك.

- ما هو؟

قالت بعد رويّة:

- أن مقاومة المجرى الحتمي للأشياء عبث.

حدجها بنظرة قاسيّة، وقال:

- المجرى الحتمي للأشياء لا وجود له! لا وجود لشيء مسطّر سلفاً.

فردّت وهي تتنهّد:

- أنا لا أقول بضرورة أن يكون المرء قدرياً، ولكن في لحظة من اللحظات، ينبغي أن يعرف كيف يتراجع...

- لا تعوّلي عليّ في هذا لأنّ التراجع يعني الخضوع.

فقاطعته بجفاء:

- من المفروض أن يموت الإنسان يوماً، هكذا هي الأمور.

- ماذا تعرفين عن ذلك؟

ونظر إلى وجهها الذي احتدّت قسماته من جديد.

- لأنني متّ منذ زمن.

- إنّك تهذين!

ندم على الفور على استسلامه للغضب. فهذه المرأة ليست في كامل قواها العقلية، وعليه أن يعاملها كمريضة.

- اسمعي، إنّك في مستشفى، لماذا لا تغتنمين الفرصة لكي تستريحي لبعض الوقت.

- لست تعبة.

- أستطيع أن أوفّر لك غرفة في جناح الأمراض العقلية. لدينا متخصصون في غاية الكفاءة يمكن...

- هكذا إذن، تعاملني كمخبولة! ليس لأنني ميّتة سأسمح لك بشتمي.

- حسناً، ثمّ ستقولين لي بعد قليل إن مخلوقات فضائية هي التي تتحكّم في عقلك...

- اهزأ بي إذن كيفما حلا لك!

- أنتِ من سعيت لذلك!

ثمّ تنهّدت غريس بعمق من جديد وقالت وهي تنهض واقفة:

- لن نصل إلى نتيجة، فأنت تتكلّم كثيراً ولا تنصت كفاية.

قالت هذا وأشهرت المسدس الذي كانت تحمله في حزامها وصوّبته نحو الطبيب.

- آسفة، أنت من بحثت عن هذا.

*

كان مكتب سام عبارة عن حجرة متواضعة تطلّ على النهر. وُضع على الطاولة حاسوبٌ ذو لون فضي، وبجواره يوجد إطار فارغ وقبعة أميركية وكرة بيسبول قديمة موقّعة. وعلى لوحة فلّين مثبتة على الجدار قبالة الباب عُلّقت رسوم الأطفال. جلست غريس على المقعد الرئيس وهي لا تزال تُشهر سلاحها بينما جلس سام على أحد المقاعد المقابلة لها.

- أنصت إليّ الآن بجديّة، وكفّ عنّي ملاحظاتك وتهكّمك، مفهوم؟

- حاضر.

أجاب سام وقد ساوره مزيج من الفضول والخوف.

- قبل كل شيء، كلّ ما قلته لك مساء الأمس صحيح: لقد قُتلت منذ عشر سنوات، ولِسَبب لن أشرحه، بُعثت إلى هنا في مهمّة.

تمالك سام نفسه حتّى لا يردّ.

- ما زلت لا تصدّقني؟

- كيف لي أن أصدّقك؟

- ماذا تقترح إذن؟

- أظنّ أنّك لم تُقتلي، بل أوهمتِ بموتك. أظنّ أن الشرطة أعطتك هويّة جديدة لكي تحميك.

- هلا قلت لنا ممّن ستحميني؟

- لست أدري: من المافيا أو من عصابة إجرامية كانت تهدّدك... سبق أن سمعت في التلفاز عن قصة مماثلة.

رفعت غريس عينيها إلى السماء.

- إذا كنت تظنّ أنّ الأمور تسير على هذا النحو...

قامت واقفة لتذرع الحجرة جيئة وذهاباً بحثاً عن فكرة لإقناع الطبيب، وأشارت فجأة إلى المقال الذي يتحدّث عن موتها في صحيفة كانت موضوعة على المكتب.

- كم كان عمري لما متّ حسب هذا المقال؟

أجاب سام بعد أن تثبّت:

- ثمان وثلاثون سنة.

- أتظنّ أن الصورة على الصحيفة هي صورتي؟

- أنتِ أو أحد يشبهك. لعلّها أختك.

- ليست لي أخت، يمكنك التأكّد من ذلك بالعودة إلى سجلّي.

دنت منه، وكانت كلّ حركاتها تعكس رشاقة عفويّة.

- ألك دراية؟

- بماذا؟

- بالنساء.

- اتّكأت دون أن تشعر على المكتب والسلاح في يدها، وانحنت عليه. كانت تبدو في هذه اللحظة في غاية الشهوانيّة، وأدرك سام أنّها تحاول استغلال ذلك، فبذل قصارى جهده حتّى لا يرتبك.

- كم تقدّر سنّي؟

- لست أدري.

- هيّا، خمّن!

- بين الثلاثين والأربعين.

- أشكرك على الثلاثين. الواقع أنّني أملك المظهر نفسه الذي كان لي يوم مماتي، كما لو أنّ الزمن توقف بالنسبة إلي لمدّة عشر سنوات. ألا تجد هذا غريباً؟

لم يجِب سام بشيء، فاسترسلت غريس:

- ومع ذلك، ما العمر الذي يفترض أن يكون لي الآن؟

- خمسون سنة تقريباً.

- وهل عمري خمسون سنة في نظرك؟

- مع الجراحة التجميلية اليوم، أعرف نساء في الخمسين يمكن أن توضع صورهم على صفحات مجلة **بلاي-بوي**.

اقتربت منه أكثر وأزاحت شعرها حتّى تُظهر أسفل عنقها:

- انظر، أترى ندب عملية جراحية؟

- كلا، أجاب سام.

ردّت وقد بدت عليها علامات الرضا:

- شكراً على صراحتك.

- على كل حال فهذا لا يثبت مع ذلك ما ورد في كلامك بالأمس: من أنّ حياة كلّ كائن مكتوبة في مكان ما في...

ورسم سام مزدوجات بأصابعه في الهواء:

- ... «كتاب القدر».

قالت غريس مؤيّدة:

- إنّك تصوّر الأمر بشكل كاريكاتوري، لكنّه ليس كذلك.

- إنّه لأمر عبثي ومؤسف: من يؤمن اليوم بالقضاء والقدر؟

- مع كامل احترامي، منذ عشرين قرناً والديانات تناقش هذه القضية، وتأتي أنت فتحاول أن تسوّيها في ساعات.

عادت إلى مكانها على المقعد.

- لنكن جادّين للحظة يا دكتور. أفهم جيداً أنّه من الأريح لنا أن نعتقد بأنّنا نتحكّم في أحداث حياتنا. ونحن ننجح في معظم الأحيان في إقناع أنفسنا بذلك، لكن هناك بعض الأشياء أحياناً لا نستطيع أن نغيّر فيها شيئاً. ففيما يتعلّق بجولييت، كان من المفروض أن تموت في تلك الحادثة. يؤسفني أن أقول إن على كلّ واحد منّا أن يسير في الطريق الذي قُدّر له.

- ها أنت تنتقلين الآن إلى الترّهات البوذية!

- لا علاقة لهذا بالبوذية، وسواء أأعجبك الأمر أم لم يعجبك، سآخذ جولييت معي.

- اعذري فضولي، بأيّ وسيلة نقل تنوين العودة إلى «آخرتك»؟ بطبق طائر؟

- الواقع ليست الوسيلة هي التي تعوز. سنستعمل معاً القناة نفسها.

شغّلت حاسوبها المنقول، وارتبطت بالشبكة العنكبوتية، نقرت شيئاً على لوحة المفاتيح ثم أدارت شاشة الباوربوك[1] إلى الطبيب.

كان يبدو في الظاهر أنّ المعروض على الشاشة صفحة من موقع يومية إخبارية: النيويورك بوست. شريط تحذير يعبر الجزء الأعلى من الشاشة:

---

(1) Powerbook سلسلة من الحواسيب النقالة المهنية طورتها وسوقتها شركة آبل بين عامي 1991 و2006.

حادثة عربة كوابل متحركة (تيليفريك).

في الثانية والنصف من زوال اليوم، سقطت إحدى عربات روزفلت آيلند المعلّقة في النهر وعلى متنها شخصان على الأقل.

لم يفهم سام المراد. ذلك أنّه سمع نشرة الأخبار بالكافتيريا قبل ساعة من ذلك، وحسب علمه، لم يحدث شيء بعربات نيويورك المعلّقة. فهذه المرأة بلهاء قطعاً. لقد بلغ بها الأمر إلى حدّ اختلاق الأخبار على صفحات الجرائد لكي تثبت نظرياتها الشهيرة.

قالت غريس موضّحة:

- سيقع حادث يوم السبت المقبل، وسنكون أنا وجولييت في العربة لمّا ستنفصل.

أثاره هذا السيناريو الغريب فكاد يردّ: «لن أتركك تفعلين»، لكنّه تمالك نفسه وسألها من جديد:

- ولكن لماذا تقصّين عليّ كلّ هذا؟

تفرّسته غريس ففهم عندئذٍ بأنّ ما كانت تهمّ السؤال عنه هو الموضوع الحقيقي لزيارتها.

- أقص عليك كلّ هذا لأنّني أطمع في مساعدتك.

*

كان سام يحدّق في شاشة الحاسوب، فقالت غريس بنبرة رزينة:

- ستقع الحادثة في غضون أربعة أيام على الساعة الثانية عشرة والنصف تماماً. وجولييت تثق فيك، تدبّر أمرك لكي تجعلها تركب العربة، لكن لا ترافقها.

- إذا كنت تعتقدين أنّني سأتعاون. . .

- أخشى ألا يكون أمامك خيار آخر.

- أتهدّدينني؟

- إنه أسلوب للنظر إلى الأشياء.

أهوى سام بقبضتيه على المكتب.

- أنتِ لست مخبولة فحسب، بل خطيرة كذلك!

هزّت رأسها.

- ألاحظ أنك ما زلت لم تفهم. لا شيء يمنعني من قتل جولييت قبل ذلك الموعد. لقد أمهلتك إشفاقاً عليك، لأنّني أدرك كم سيشقّ عليك فراقها...

وأرته سلاحها.

- ... لكن إن لم تساعدْني، ثقْ بي فإنني لن أنتظر السبت لكي أصفي حبيبتك ولن أترك لك الفرصة حتّى لتراها حيّة من جديد.

- سنرى.

قام بغتة وارتمى عليها كمسعور. تمكّنت بلا صعوبة من تجنبه بالقفز إلى الخلف. فقد سبق لها أن أخضعت مَن هُم أكثر تنطّعاً منه خلال مسيرتها المهنية، لكن شعورها بالإرهاق جعلها تتركه يمسك بذراعها وينزع سلاحها، ثمّ قال مبتهجاً وهو يلوّح بالمسدس:

- يبدو أنّ الأدوار انقلبت.

تناول هاتفه وقد أبقاها على مسافة منه:

- آلو، الأمن؟ أنا الدكتور غالواي، أوجد في مكتبي، تعالوا بسرعة! هناك امرأة تسلّلت إلى البناية وهي تحمل سلاحاً، لكنّني نجحت في السيطرة عليها.

أنهى المكالمة بنوع من التراخي الظافر:

- لماذا لا تتخابثين كما كنت تفعلين؟

قالت وهي تهزّ كتفيها:

- أتظنّ أنّه مشحون؟

كان لسام بعض المعرفة بالسلاح استقاها من الأحياء السيئة التي قضى بها طفولته. تفحّص المسدس فلاحظ أنه لم يكن مشحوناً فعلاً.

كانت غريس قد فتحت باب المكتب، ولما بلغت العتبة التفتت نحو سام وقالت له محذّرة:

- أطلب منك للمرّة الأخيرة يا دكتور غالواي أن تساعدني: صدّقني وساعدني. هذا في مصلحتنا معاً.

قالت ذلك واختفت بسرعة البرق.

17

كان يعرف كيف يبدو ضعيفاً لمّا يقتضي الموقف ذلك، وهذا هو سرّ قوته.

كيم ووزنكرافت

- آسفين يا دكتور غالواي، لقد أفلتت منّا.

حاول سكينر، المسؤول عن الأمن، أن يبرّر الأمر عبر الهاتف. قال معترفاً:

- لقد خدعتنا. استقلّت المصعد من الطابق العاشر، لكن لمّا انفتحت الأبواب في الطابق الأرضي، لم نعثر على أحد. نحن الآن بصدد مشاهدة تسجيلات الفيديو، لكنني أظن أنها في مكان بعيد الآن.

أجاب سام دون أن يبدو عليه الاستغراب:

- لا بأس.

قال في نفسه وهو يضع السمّاعة: اللعنة، هؤلاء العاجزين غير قادرين حتّى على القيام بعملهم.

من المؤكّد أنّ غريس كوستيللو هذه امرأة رهيبة. وبقي متردّداً للحظة حيال الموقف الذي سيتبنّاه. هل يخطر الشرطة بهذه الحادثة؟ الأمر لا يخلو من مخاطرة، ذلك أنه إن زعم أنّ شبح امرأة ماتت منذ

عشر سنوات يطارده، سيصير مسخرة. فكوستيللو من الوجهة الرسمية ماتت ودُفنت، بل إنّ روتيللي تعرّف على جثّتها. هذا فضلاً على أنّ سام لا يملك أيّ شاهد، لأنّ غريس كانت تحرص على الظهور له لمّا يكون بمفرده.

وقال في نفسه فجأة وقد خطر بباله الموقع على الشبكة العنكبوتية: لكنّني أملك حجّة! وهرع إلى حاسوبه ليتفحّص قائمة المواقع التي تمّ تصفّحها مؤخراً. قلّب المستند في كلّ الاتجاهات، لكن العثور على الصفحة التي تعلن عن الحادثة المرتقبة استحال عليه. بقي له بالطبع السلاح الذي انتزع منها، لكن كيف السبيل لاستغلاله؟ مَن مِن بين مفتشي الشرطة سيقبل البحث عن البصمات، وحتّى لو عثر على بصمات كوستيللو، فماذا سيثبت ذلك؟

تمهّل سام وهو لا يزال مصدوماً في تعبئة بطاقة الإخبار بحادثة. لم يكن يودّ أن يتّهم بالإهمال، وبذلك تذكّر مرّة أخرى كلام كوستيللو الذي لا يصدّق. هو بالطبع لا يصدّق منه كلمة واحدة - ومن سيصدّقه؟ -، لكن ذلك لم يمنع تضايقه من بعض الأسئلة.

فتح مفكّرة حاسوبه، ودوّن باختصار النقط الغريبة:

● هل ماتت غريس كوستيللو منذ عشر سنوات حقّاً؟ إذا كان الجواب بالإيجاب، فمن يتقمّص شخصيّتها؟ وإلا كيف عادت إلى مانهاتن؟

● كيف أمكنها أن تعرف قبل أيّ كان أنّ جوليت لم تمُت في حادث تحطّم الطائرة؟ وكيف علمت بما قلته لفيديريكا بالمقبرة؟

● ماذا يخفي خطابها حول دور المبعوثة المزعومة؟

وأنهى تدوينه بـ:

● هل هذه المرأة خطيرة؟

وحاول مرّة أخرى أن يطمئن نفسه: كلّ هذا لا يعدو أن يكون تعاقب مجموعة من المصادفات. إذا أُخذت مجتمعة، بدت محيّرة، لكن إذا أُخذ كلّ منها على حدة، بدت جميعها قابلة للتفسير.

ومع ذلك ظلّ سؤال آخر يشغل باله: لماذا تزعجني هذه المرأة؟ ولماذا يتهيّأ لي أنّ كلّ ما تقوله مجرّد كذب؟ لكنّه لم يدوّن هذا. كلا، عليه أن يستجمع قواه، وأن يتمسّك بالعقل، وأن يعالج القضية من الزاوية الطبيّة. تناول إذن آلة تسجيل صغيرة وضغط على الزرّ لكي يسجل كلامه:

الدكتور غالواي، تشخيص المريضة غريس كوستيللو التي استقبلتها في زيارة طبيّة يوم 24 كانون الثاني/ يناير بالمستشفى قبل أن تلوذ بالفرار.

تبدو على المريضة مجموعة من الأعراض السيكولوجية: أفكار هذيانية ذات طبيعة روحية، العجز عن إدراك بعض مظاهر الواقع، اضطراب شديد في الفكر.

تبدو على المريضة، التي تلاحقها الهواجس، أعراض بارانويا متقدّمة بحيث تبدو مقتنعة بالخضوع لقوى خارجة عن شخصيتها، أي الائتمار بأوامر منظمة سماوية تملك قدرات لا حدود لها.

وحسب تقديري فإن السيدة كوستيللو لم تتناول مخدرات ولا كحولاً. وهي تتميّز بسرعة البديهة، وأفكارها الثابتة لم تؤثّر فيما يبدو على قواها العقلية، ولا تلاحظ عليها علامات الانطواء اللامبالي[1] ولا متلازمة الإغماء التخشبي[2].

---

(1) Repli apathique.

(2) Syndrome catatonique.

ويبدو أن المريضة التي تنكر مرضها تماماً لا تخضع حالياً لأيّ علاج طبّي مناسب لمرضها المتمثل فيما يبدو في مرحلة انتكاسية من الفصام العُظامي[1]. ويُخشى من أن تقوم بأفعال غير متوقّعة بسبب عدم تناولها مضادات الذهان، وهو ما يجعل منها شخصاً قد يكون خطيراً.

*

نجحت غريس كوستيللو في مغادرة المستشفى من أحد أبواب الخدمة. هي الآن تتّجه شمالاً عبر الشارع الخامس. وهي تشعر بالأمن بما أنّ لا أحد يعرفها، تتسكّع بين السياح وسط متاجر السلع الفاخرة والمباني الشاهقة المتوهّجة. هي تعلم بالطبع أنّ في الأمر مخاطرة، ذلك أنّ زملاءها السابقين يمكن أن يلمحوها في كلّ لحظة، لكنّ حتّى لو حدث ذلك فسيظنّون أنهم رأوا امرأة تشبهها.

كلا، لا داعي للقلق، بل لقد سمحت لنفسها لأوّل مرّة منذ أن عادت بالاستمتاع بالمناظر. اللعنة! كم كانت تتمنّى أن تعيش في هذه المدينة وتعمل. فقد كانت نيويورك من أكثر مدن العالم حركة. أحبّت كل أحيائها، وكلّ تلويناتها. لا شيء يشبه ما يقع هنا. لم تتغيّر الأجواء في الشارع الخامس: ما زال الناس يصطفّون في طوابير لزيارة مبنى «إمباير ستيت بيلدنغ»، وما زال الأسدان الرخاميان يحرسان باليقظة نفسها باب المكتبة البلدية، وواجهات تيفاني الزجاجية تتلألأ كما كانت أيام أودري هيبورن. كما أنّ السياح اليابانيين ما زالوا ينتشرون في كل أنحاء الشوارع المتفرّعة، وما زالت حقائب فويتون

(1) Schizophrénie paranoïde.

بالغة الغلاء! لكن بدا لها مع كلّ ذلك أنّ شيئاً ما تغيّر، وهي غير قادرة على تحديده. تبدو مانهاتن ربّما أنظف وأكثر تمدّناً، لكن يخيّم عليها جوّ لا عهد لها به، كما لو بُتِر شيء منها.

لمّا بلغت الشارع التاسع والأربعين انعطفت نحو مركز روكفيلر وعبرت حديقة النافورات السبع لكي تبلغ الميدان المشرف على الشارع. يضم مركب آر ديكو أكبر مجموعة ناطحات سحاب في العالم. وهو يشكل بمفرده، بحدائقه ومطاعمه ورواقه التجاري وأعماله الفنية المئة الموزعة بين أجنحته، مدينة صغيرة حقيقيّة داخل مانهاتن.

التفّت غريس على برج بلازا ثمّ دخلت إلى أحد المقاهي. اختارت مائدة صغيرة بجانب نافذة زجاجية طويلة. كان المنظر من هناك خلاباً: حلبة التزلج وتمثال بروميثيوس النحاسي الذي ينشر ضوءه المتّقد وسط الماء المتدفّق والأعلام الملوّنة.

لما جيء لها بقائمة الطعام، تنبّهت إلى أنّها جائعة كما لو أنّها لم تأكل منذ عشر سنوات، وقد كان الأمر كذلك فعلاً. قلّبت أوراق القائمة بانتشاء أمام التشكيلة البالغة التنوع من الكعك والمعجنات. كلّ الحلويات أثارت شهيّتها: حلوى التراميسو والفطائر المسطّحة وكعكة الشوكولاته والشهداء ولفائف القرفة... اختارت في النهاية قهوة بالحليب وقطعة من تورتة بثلاثة أنواع من الشوكولاته رغم غلائها الفاحش: 7,5 دولار للقطعة الواحدة! لقد جُنّ العالم حقّاً خلال فترة غيابها.

كانت ظهيرة ذلك اليوم جميلة، باردة، لكنّها مشمسة. وكانت أشعّة الشمس تنعكس على الجليد فتغمر السطيحة وتجعل المباني تبدو متلألئة. ومضت غريس تشاهد لفترة طويلة الأطفال وهم يتزلّجون

على الحلبة، فشعرت بقلبها ينقبض، ذلك أنّها تذكّرت ابنتها.

كانت تأتي بابنتها جودي أول ثلاثاء من كانون الأول/ ديسمبر كل سنة لكي تستمتع بالضوء الغامر الصادر عن شجرة الميلاد الضخمة المنصوبة في الميدان. كانت أكبر نجمة في الفن أو غيره من بين نجوم السنة تفرقع بأصابعها فيُنار 20000 مصباح دفعة واحدة في مشهد رائع. وكانت جودي تعشق هذه اللحظة حتّى بلغ الأمر بغريس أن اعتبرتها أحسن عُرف في نيويورك.

فتّشت في جيوب سترتها فعثرت على محفظتها سليمة ومحتواها كما كان قبل عشر سنوات. ولأوّل مرّة منذ عودتها، تجرّأت على النظر إلى صورة ابنتها الصغيرة، فاعترتها قشعريرة مفاجئة. لا شيء أكثر زيفاً من الصورة: يظنّ المرء أنّه يمسك بلحظة سعيدة إلى الأبد، في حين أنه لا يخلق سوى الحنين. يضغط على الزر، وما هي إلا ثانية حتّى تكون اللحظة قد اختفت.

شعرت غريس بالدموع تترقرق في عينيها، لكنّها مسحتها بسرعة بمنشفة ورقية.

تبّاً! لا ينبغي أن تنهار الآن.

وليس من حقّها أن تنساق وراء عواطفها. لقد أوفدوها للقيام بمهمّة، وهم قد اختاروها تحديداً لصلابتها ويقظتها وانضباطها. وقع اختيارهم عليها لأنّها كانت شرطية، والشرطة مفطورون على الطاعة.

*

كان مارك روتيللي على بعد أقل من كيلومترين من هناك يقوم بدورية بسنترال بارك. ركَن سيارته بالشارع السابع والتسعين، حيث يوجد زقاق الحديقة، غير بعيد عن ملاعب كرة السلة وكرة المضرب.

استجوب منذ الصباح أكثر من مائتي شخص، لكنّه لم يتمكّن من العثور على أثر للمرأة التي تتقمّص شخصيّة غريس. ذلك أنّ حديثه مع سام غالواي في اليوم السابق شوّشه إلى حدّ أنّه استيقظ مراراً خلال الليل مرعوباً بكوابيس بدت فيها غريس حيّة تدعوه لمساعدتها.

كان واعياً بالطبع بأنّ كلّ ذلك لا معنى له: فغريس ماتت، وهو أمر يعرفه أكثر من أيّ كان. ومع ذلك كانت محادثة بسيطة كافية ليطفو كلّ شيء على السطح: العواطف القويّة والحسرة وكذلك الضغينة...

كانت علاقته بغريس أمراً معقّداً. كثيراً ما كان يردّد، منذ عشر سنوات، بأنّ الأمور كانت ربّما ستجري على نحو مختلف لو أنّه امتلك الجرأة ليبوح لها بمشاعره.

لكن، ألم تخمّنها؟

لم يكن ذلك لأنّه لم يعرف كيف يتعامل مع النساء، بالعكس، كان حينئذٍ يلاقي نجاحات لا يستهان بها، وكان يبدو رجلاً جذاباً وواثقاً من نفسه. وحين كان يخرج مع زملائه من الشرطة أو رجال الإطفاء يوم السبت، نادراً ما كان ينهي الليل بمفرده.

لكن الأمر كان مختلفاً مع غريس. لم يملك الشجاعة قطّ ليبوح لها بحبّه. كان يتهيّأ له في بعض الأيام أنّها مغرمة به، لكن كيف السبيل للتثبّت من ذلك؟ لا سيما وأنّه لم يكن يلمس في نفسه القدرة على تحمّل الرفض. كان حبّه لها أكبر من أن يحتمله. كان أخشى ما يخشاه هو أن تتنبّه لهذا الصدع الموجود بداخله، لانعدام الثقة المتواري خلف الصلابة البادية، وشيئاً فشيئاً سجن نفسه في دور الرفيق الوفيّ الذي يمكن الاعتماد عليه.

وذات يوم ملّت غريس الانتظار، فعاشرت نقيباً من الدائرة الرابعة

لفترة من الزمن. وظنّ روتيللي بأنها إنّما فعلت ذلك لتثير غيرته وتدفعه إلى البوح بحبّه، لكنّه لم يحسم أمره مع ذلك. واختار في الأخير أن ينسحب، فتلاشى التقارب الذي كان قائماً بينهما لبعض الوقت.

الحقيقة أن غريس لم تكن ترغب حقّاً في ذلك النقيب، لكنّها حملت منه. كانت ترغب في طفل، ولم يكن يضايقها أن تربّيه بمفردها. من هنا لم يقم روتيللي الذي كان يرفض أن يظهر كخيارٍ ثانٍ في أعين الآخرين، بأي محاولة، مع أنه لم يسقط قطّ في غرام امرأة أخرى. والحقيقة أنّه لم يتمنّ شيئاً في حياته مثلما تمنّى أن يموت مكانها يوم علم بأنها لقيت حتفها. فموت غريس حطّمه، وتعمّق الصدع ليتحول من رجل متقلّب المزاج إلى رجل ناقم.

في بعض أمسيات موسيقى البلوز، كان يواسي نفسه بأنّ غريس لم تعرفه قطّ بهذه الحال، ومع مرور الزمن صار ذلك عزاءه الوحيد وفخره الوحيد.

*

رشفت غريس من قهوتها وأعادت صورة ابنتها إلى المحفظة قاطعة وعداً على نفسها بألا تعيد النظر إليها. عليها ألا تسعى للاتصال بجودي. فهي هنا لتصليح خطأ وليس لتقلب الأمور رأساً على عقب.

ثمّ إنها تعلم أنّها لم تعد تلك التي كانت قبل أن تموت رغم احتلالها للجسد نفسه. ومنذ رجوعها، صارت تبدو لها ذكريات حياتها الأولى بالتدريج كما لو أنّها خرجت من غيبوبة طويلة. احتفظت ذاكرتها بكل شيء باستثناء الأيام القليلة التي سبقت وفاتها. قرأت بانتباه المقالة الصحفية التي عثر عليها سام غالواي والتي تتحدّث

بإيجاز عن ظروف مقتلها، لأنها لم تعُد تذكر مَن قتلها ولا كيف قُتلت، لكنّها ليست هنا للتحقيق في ذلك، هي هنا لإنجاز مهمة محدّدة، ولا ينبغي أن يصرفها عنها شيء.

لمحت في الجانب الآخر من زجاج النافذة فتاة في حوالي الخامسة عشرة من عمرها، جاثمة على زلاجتيها وهي تتسلّى بإطلاق فقاعات الصابون. كانت بعض الفقاعات الخفيفة الشفافة تطير باتجاهها فتتكسر على الزجاج. ودون أن تشعر، حيّتها غريس بإيماءة ودّية صغيرة، فردّت عليها الصبيّة بابتسامة تلجُمها آلة تقويم الأسنان.

مهما تقول غريس ومهما تفعل، كان ثمّة سؤال واحد يشغل بالها: أين توجد جودي الآن وكيف صارت؟

*

صعد روتيللي إلى سيارته وصفق الباب. كان في الخدمة، والوقت لا يزال مبكّراً، ولكن اللعنة! ما أشدّ رغبته في الشرب! للمرّة الثانية هذا اليوم، يتذكّر الحديث الذي دار بينه وبين الطبيب الشاب في اليوم السابق. التوقف عن الشرب؟ آه لو كان الأمر يسيراً! لقد حاول مرّة، لكنّه أصيب بالهلوسة: رأى سحالي وزواحف أخرى تلتهم أحشاءه وتنزع أطرافه. كان الأمر كابوساً حقيقياً.

ساق سيارته نحو الجنوب، على طول الجهة الغربية لسانترال بارك حتّى بلغ مستديرة كولومبوس. وبينما كان يقود، سوّى مرآة الرؤية الخلفية، فلاحت له صورته على المرآة الصغيرة شبحية وغير واضحة. إلى أين تسير حياته؟ أسيستمرّ في الانحدار يوماً بعد يوم إلى أن يتحطّم تماماً؟ هذا يخيفه لأنّه يظنّ أنّ تحسّن أحواله يحتاج إلى معجزة. الإقلاع عن الشرب... من أجل من؟ ولماذا؟

لكنّه كان يعلم أنه يستطيع أن يكون أقوى. فنار الغضب المتأجّجة بداخله ليست مدمّرة فقط. فبين الغضب والتصميم لا توجد أحياناً سوى خطوة واحدة. وكما لو أنه يريد أن يبرهن على شيء ما، قرّر ألا يشرب الكحول قبل مضي ساعات، وهو سيكتفي الآن بشرب كوب قهوة.

قبل أن يبلغ تايمز سكوير بقليل انحرف فجأة نحو مركز روكفيلير سانتر. أوقف سيارته عند طرف الرصيف واشترى كوب قهوة ومضى إلى برج بلازا ليشربه. لم يزُر هذا المكان منذ أمدٍ بعيد مع أنّه كان يحبه في الماضي. لقد أتى إلى هنا في أعياد الميلاد لسنوات متتالية بصحبة غريس وطفلتها لكي تستمتع بالأنوار الساطعة. وقف عند حافة حلبة التزلج وراح ينظر بافتتان إلى الناس السعداء الذين كانوا يتحرّكون حوله. أزواج يشجّعون أبناءهم ويصوّرونهم بآلات التصوير أو الفيديو. وكانت تتعالى هتافات فرحهم ودعاباتهم. كلّ هذه السعادة كانت تعيده حتماً إلى وحدته.

لو أنه التفت إلى اليمين، باتجاه مقهى هاربر، للمح ربّما تلك التي تشغل فكره، لأنّ غريس كوستيللو لم تكن في هذه اللحظة إلا على بعد عشرة أمتار منه، لكنّه لم يكن يعرف عنها شيئاً.

*

لم تلحظ غريس بدورها زميلها القديم في الفرقة لأنّها كانت مستغرقة في أفكارها. بعد أن فرغت من وجبتها الخفيفة، غادرت المقهى من الباب المقابل. زرّرت سترتها وسارت بضع خطوات في الشارع. كان الجوّ قد شرع يبرد. وراودها من جديد ذلك الشعور الغريب بأنّ المدينة «ينقصها» شيء ما، لكنّها لا تعرف ما هو. اكتفت

بالنظر ناحية الشمال ثمّ الجنوب. كانت صور هذين اليومين تتوالى في ذهنها بسرعة هائلة.

وفجأة تهيّأ لها أنها فهمت. كان الأمر مستحيلاً، ومع ذلك... لم تكن قد اختفت تماماً!

عليها أن تسأل غالواي لمّا تلتقيه المرّة القادمة.

*

عاد سام إلى مكتبه مباشرة بعد إنهاء خدمته. كان الليل قد خيّم، لكنّه فضّل أن يبقى للحظة قرب النافذة في الظلام ينظر ناحية جسر مانهاتن. كان يفكّر من جديد في الكلام الغريب الذي قالته له غريس. لمّا يفقد العقل الإنساني صلته بالواقع فإنه يتيه قطعاً في مسالك محيّرة.

وتهيّأ له فجأة سماع صوت تنفّس متقطّع. أيوجد أحد في الغرفة!

أشعل مصباح المكتبة الصغير ذي الضوء الخافت: لا أحد، لكنّه يشعر مع ذلك كما لو أن شبحاً يحوم حوله. كانت رسوم أنجيلا لا تزال موجودة على طاولة ركنية. تطلّع إليها سام من جديد واحداً واحداً دون أن يعرف عمَّ يبحث.

أكانت تلك الرسومات تخفي شيئاً؟

تأثّر خلال دراساته الطبية عميقاً بأحد التدريبات التي أجراها في سجن من سجون الأحداث. لم تكن رسومات المعتقلين هناك تتحدّث سوى عن القتل والعنف. وقد استمرّ اهتمامه بالموضوع، وصار أحد أكفأ أطباء الأطفال في تحليل رسوماتهم، بل كتب مقالة في الموضوع نشرها في إحدى المجلات الطبية، ممّا أتاح له الاطّلاع على معظم المؤلفات التي عالجت هذا الموضوع، وهي تحفل بالحالات

المربكة. فبعض الرسوم توحي أحياناً بأنّ بعض الأطفال يعرفون بدقة تاريخ وفاتهم، إذ يخمّنون من خلال رسومهم لحظة رحيلهم ويستخدمون هذه الوسيلة لكي ينقلوا آخر رسالة لذويهم. غالباً ما كانت هذه الرسائل تعبق على نحو غريب بالطمأنينة، كما لو أن هؤلاء الأطفال تخلّصوا لحظة الرسو على الضفة الأخرى من قلقهم ومعاناتهم، لكن ما هو محيّر أكثر هي ربّما رسوم الفراشات التي نقشها بعض السجناء الصغار على جدران بنايات معسكرات الاعتقال.

بينما كان سام يتذكّر كلّ هذا لاحظ وهو يقلّب العلبة علامات دقيقة على الزوايا الأربع من كل ورقة: دوائر ومثلثات ونجوم...

سبق له أن رأى علامات مماثلة على الرسم الأوّل الذي أهدته إياه أنجيلا! بحث في جيب معطفه بقلق متزايد لكي يتفحّصه من جديد: على ظهر الورقة العلامات الملغزة نفسها تتقاطع على نحو غريب.

ماذا لو كانت شفرة؟ ماذا...

انفتح باب المكتب فجأة، فجفل الطبيب. وتنبّه إلى أن الجو في الغرفة كان بالغ البرودة وأن أنفاسه تتحوّل إلى بخار. شرع في تعليق الرسوم على لوحة الفلين متّبعاً النظام الوارد في الرسم الأوّل. لما علّق الرسوم العشرين، وجّه المصباح بحيث يضيء على نحو أفضل اللوحة الكبرى التي تشكّلت لديه. كانت لوحة تجريدية رائعة، لكنّها تقع عند حدود الفن التصويري، إذ يتهيّأ للمُشاهد أنه يميّز هنا وهناك أشكالاً خفية، أشبه بحيوانات صغيرة مختفية في غابة استوائية.

ظلّ سام يحدّق في اللوحة مبهوراً، لكنّه مضى يجوب الغرفة حتّى يشاهدها من كل الجوانب. وانتابه شعور جليّ هذه المرة بأنّ ثمة شيئاً عليه أن يكتشفه: إنذار، نداء، رسالة...

لما بلغ إلى مستوى الغابة، تواردت إلى ذهنه شتيمة: اللعنة!

فرك عينيه ثمّ تحرك وعاد إلى المكان نفسه. هو من يخرّف الآن! خرج إلى الممرّ وقد تملّكه شيء من الذعر ثمّ ذهب إلى مرحاض العاملين بالمشفى لكي يبلّل وجهه. انتبه وهو أمام المرآة المثبتة فوق المغسلة إلى أنّه بالغ الشحوب، وأنّ يديه ترتعشان. عاد إلى مكتبه حيث يملؤه مزيج من التوجّس والإثارة. رجع إلى مكانه عند حافة النافذة وراح ينظر إلى اللوحة.

إذا نُظر من زاوية محدّدة للرسوم مضمومة بعضها إلى بعض بهذا الشكل، بدا أنها تحمل رسالة عن طريق التزييغ[1].

بعض الحروف تكوّن جملة بسيطة، لكن تداعياتها مقلقة:

غريس تقول

الحقيقة.

(1) (anamorphose) حالة تبدو فيها لوحة مزيغة، فإذا نظر إليها من زاوية معينة بدت قويمة. (المترجم)

18

في بداية الأمر، لا تعود الحياة ممكنة من دون مخدّر، لكنّها حياة رقّ مقيتة. ومع ذلك فأنا مبتهج بالعودة إليها. ما أسعدها! ما أسعدها! لم يسبق لها قطّ أن كانت أجمل من مساء الأمس. كلّ مرّة جديدة تكون أفضل من سابقاتها.

العشبة الزرقاء،
مذكرات مجهولة لشابة مدمنة على المخدرات.

جنوب برونكس - حي هايد بورس

لما فتحت جودي كوستيللو، وهي فتاة في الخامسة عشرة من عمرها، عينيها، وجدت فراشها مبلّلاً. كانت محمومة تعتريها القشعريرة. قامت بصعوبة وهي ترتعد وأطلّت من النافذة.

ماذا جئت أفعل في هذا الكوخ الحقير؟

كلّ دلائل نيويورك السياحية تنصح بتجنّب هذا المكان. ولم يكن هايد بورس يبعد عن روائع مانهاتن إلا ببضعة كيلومترات، لكنّ ذلك لم يمنعه من أن يكون حيّاً خطيراً. كان يتكوّن من سلسلة من العمارات السكنية المخصّصة لذوي الدخل المحدود، ولم يكن يضمّ أيّ محلات تجاريّة. كلّ ما كان يحيط به هي بعض الأراضي الخاليّة التي تناثرت فوقها هياكل سيارات متفحمة مهملة.

كانت جودي بحاجة إلى المخدرات. تشعر بالألم في كلّ جسدها، وبتشنّج يسري في قدميها. كانت مفاصلها منهارة، وعظامها ترتعش وتتفتّت وتتشظى إلى أجزاء صغيرة.

- اللعنة، ينبغي أن أعثر عليها!

قلبها ينتفض داخل صدرها وقد تسارع خفقانه. كانت تنضح عرقاً، وشعرت بالحرارة في البداية ثمّ بالبرودة. كانت تحسّ بتشنّجات رهيبة في بطنها، وبألم حادّ في كليتيها كما لو أنّ قضيباً حديدياً يخترق أسفل ظهرها.

اللعنة!

ارتدت قميص النوم ثمّ سارعت إلى الجلوس على حوض المرحاض. لاحت لها على مرآة باب المرحاض المكسورة صورة لا ترغب في رؤيتها.

لمّا كانت صغيرة، كثيراً ما كانوا يقولون لها إنّها جميلة، بشعرها الذهبي وعينيها الخضراوين، لكنّها تعلم الآن أنها لم تعد تشبه تلك الصورة.

لم تعودي سوى خرقة نخرتها المخدرات!

كان جسمها المهزول مُفزِعاً، ووجهها حجبه شعر أصفر معالج بالبيروكسيد، تتخلّله بعض الخصلات الحمراء والزرقاء الطويلة. أمّا العينان فتحيط بهما دائرتان تميلان إلى السواد كما لو طليتا بالماسكارا. أزالت بعض الشعرات العالقة بالحلقة التي تزين أنفها، وكانت تضع حلقة أخرى في سرتها، وهي على وشك التعفن.

انثنت بسبب ألم حاد في بطنها.

آاي.

هي خائرة القوى، مع أنّها كانت في وقت من الأوقات مدمنة

على الرياضة. كانت تتقن لعب كرة السلّة بفضل طول قامتها. صحيح أنّها طويلة، لكنّها كانت تشعر في قرارة نفسها بأنّها صغيرة وضعيفة تماماً كطفل رضيع.

كان مبعث ضعفها ذلك الجرح الغائر الذي لا تزال تحمله بداخلها. فموت أمّها لما كانت تبلغ السادسة من عمرها جعلها تواجه مبكّراً عالماً مليئاً بالحزن والرعب.

خرجت من هذه التجربة محطّمة. كانت شديدة التعلّق بأمّها، أشدّ تعلّقاً ممّا يمكن أن تكونه صبيّة يتيمة الأب في سنّها، لكن جودي لا تلتمس الأعذار لنفسها.

أودعوها في البداية لدى عائلة مُضيفة، لكن الأمور لم تجرِ على ما يرام. قيل إنّها لا تُطاق، ولربّما كانت تلك هي الحقيقة. كانت معذّبة يسكنها على الدوام شعور بعدم الأمان، لم تدّخر جهداً لتهدئته منذئذٍ. شرعت وهي في العاشرة في استنشاق المذيبات التي كانت تعثر عليها في الحمام، ثمّ دأبت على إفراغ صيدلية المنزل بحثاً عن التراكسين. وبناء على ذلك، لم تعُد الأسرة التي تضيفها ترغب فيها، فعادت للعيش في البيت. اقترفت بعض السرقات هنا وهناك، لكنّها لم تكن سرقات خطيرة: بعض الألبسة وبعض الحليّ (اثنتان أو ثلاث)، لكن البوليس قبض عليها وسُجنت لستّة أشهر بمركز خاص بالأحداث.

اكتشفت منذئذٍ موادّ أخرى أكثر فعاليّة من المذيبات. والحقيقة أنّها كانت تتناول كلّ ما تسقط عليه يدها: الأمفيتامينات، الكراك، الهروين، الحشيش، الأقراص... بل إنها لم تعد تعيش منذ فترة إلا من أجل هذا.

كانت تقضي كلّ وقتها باحثة عمّا تدفع به خوفها. في المرّة

الأولى التي حقنت نفسها بالمخدّر، عاشت لحظات في منتهى الروعة بحيث رغبت في أن تسترجع حالة الانتشاء تلك مرّات ومرّات. لا يتحوّل الأمر إلى جحيم إلا فيما بعد، لكن المرّة الأولى تكون هائلة، لماذا ستنكر ذلك؟

بدت لها المخدرات باختصار مخلّصاً من هذه المعاناة التي لا تطاق. كانت تساعدها على إخفاء رقّتها وعواطفها. كلّ الناس كانوا يعتقدون أنّها قاسية، لكنّ ذلك لم يكن صحيحاً. كانت دائمة الخوف من الحياة ومن كل شيء. وسرعان ما صارت للأسف مدمنة. لا داعي للكذب: لقد مضى وقت طويل وهي لا تستطيع أن تتحكّم في استهلاكها. والحلّ الوحيد أمامها الآن هو أن تزيد الجرعات وتقلّص الفاصل الزمني بينها.

قضت شهرين في الشارع قبل أن تجد ملاذاً هنا لدى فتاة تعرّفت عليها أثناء «التزوّد» بالحي. لم تطأ قدمها المدرسة منذ أن غادرت المركز رغم أنّها كانت مجتهدة، بل لقد كانت متقدمة عن سنها، وكثير من الأساتذة كانوا يقولون عنها إنّها ذكية. وهذا صحيح، فقد كانت تعشق القراءة، لكنّ الكتب لا تحمي من الخوف، ولا تجعل الإنسان قويّاً، وإلا فإن جودي لم تحسن قراءتها.

فقدت الثقة بالراشدين منذ زمن بعيد. كلّ ما كان يقوله لها المربّون ورجال الشرطة هو أنّ عاقبة ما تفعل لن تكون حميدة. شكراً لهم على هذه النصيحة، فهي كانت تشكّ في هذا الأمر. تنبّهت إلى أنها تزحف ببطء نحو الموت، بل إنّها تتناول يومياً علبة من الأقراص المنوّمة لكي تقوم بالقفزة الكبرى، لكن تلك الأقراص لم تكن قوية بما فيه الكفاية، وألفت نفسها في الأخير تقضي أسبوعاً مغمى عليها. كان حريّاً بها أن تقطع أحد شرايينها. ربّما فعلت ذلك يوماً...

وفي انتظار ذلك، كان عليها أن تعثر على المخدرات، وللحصول عليها هي مضطرة للقاء «سيروس».

قامت جولي وسحبت طرّادة الماء. هدأت قليلاً التشنجات التي تشعر بها في بطنها ليحلّ محلّها الدوار والغثيان. كانت تفوح منها رائحة كريهة، لكنّها لم تكن تقوى على الاغتسال. ارتدت بسرعة سروال الجينز القذر، وقميصاً وسترة عسكرية قديمة.

كم معي من المال؟

عادت إلى الغرفة. كانت بالأمس قد نشلت حقيبة امرأة يابانية قرب حديقة سلوب. لم تكن حتّى حقيبة باندا حقيقية. فتّشت في حافظة النقود وأخرجت 25 دولاراً بئيسة. كان مبلغاً زهيداً، لكنّ سيروس سيتدبّر لها شيئاً. وغادرت الشقّة متثاقلة.

كان يتساقط على الحي مطر دقيق بارد، ممّا جعل جودي تخفي عينيها بيديها لتحتمي من الريح الذي كان يجرف أكياس بلاستيك ممزقة وأوراقاً متّسخة فاضت بها صناديق القمامة. شخص واحد هو الذي ساعدها وحماها: إنّه ذلك الشرطي المدعو مارك روتيللي، صديق أمّها السابق، بل إنّه حاول مرّة أن يتستّر على سرقتها لوصفة من أحد الأطباء، لكن الحادثة شاعت وكاد روتيللي يفقد منصبه. منذ ذلك الحين صارت تتجنّبه: لم تكن تريد أن تخلق له مشاكل، ثمّ إنّها تشعر بالخزي، ولا تريد بأيّ حال من الأحوال أن تُقارن بأمّها.

توجّهت جودي إلى بناية نُزعت كل صناديق البريد بمدخلها، وشقّت طريقها وسط مجموعة من الشباب كانوا يروحون ويجيئون في السلّم، وبلغت أخيراً باب الشقّة التي تقصد. ضغطت على زرّ الجرس عدّة مرات، لكن لم يفتح أحد مع أنّها سمعت صوت راديو أو تلفاز واضحاً لما وضعت أذنها على الباب. نقرت نقراً خفيفاً وقالت:

- افتح يا سيروس!

انفتح الباب بعد برهة ليلوح منه فتى أفروأميركي بالكاد تجاوز المراهقة، لكنه ذو بنية ضخمة.

- مرحباً باب-أو-راما.

- دعني أدخل يا سيروس.

أمسك بذراعها ودفعها إلى الداخل.

كان صوت التلفاز من الارتفاع بحيث حال دون سماعه رنين الجرس.

كان المكان أقرب إلى العتمة، وهو عبارة عن شقّة بئيسة يتناثر الطعام في كلّ أرجائها وتفوح منها رائحة كريهة. تقدّم سيروس باتجاه ما كان يعدّ بمثابة صالون وعاد إلى الجلوس على أريكة قديمة متهالكة وهو يخفّض صوت تلفاز بلازما آخر طراز.

كان يلزم فتح النوافذ ليدخل النور وتتهوّى الشقّة، لكن جودي لم تأتِ من أجل هذا. سألته:

- ماذا أعددت لي؟

- الأمر يتوقف على المبلغ الذي بحوزتك. كم معك؟

- 25.

- 25 بوكس فقط! لا يبدو أنك في ثراء بيل غيتس.

فتّش في جيبه ليُخرج كيساً بلاستيكياً صغيراً حرّكه تحت أنف جودي.

اقتربت ونظرت إلى السلعة بازدراء.

- أليست لديك غيرها؟

ارتسمت على وجهه ابتسامة عريضة ثمّ أجاب وهو يفتح أزرار سرواله ويحرّك لسانه بكيفية فاحشة:

- لتحصلي على غيرها يلزم أن تمنحيني شيئاً إضافياً.
- لا داعي لأن تحلم.
- هيّا، تعالي إلى هنا يا حبيبتي.
تراجعت إلى الخلف وهي تقول:
- دعني عنك أيّها اللعين!
ظلت ترفض حتّى ذلك الحين أن تزني مقابل المخدرات.
كان ذلك هو آخر خطّ كرامة ما زالت لم تتجاوزه، وهي تعلم أنّه سيأتي يوم ستحلّ بهذه الشقّة محتاجة إلى المخدّر وليس معها دولار واحد. لم تجب إذن بشيء.
قذف الدولارات في وجهها، ورمى لها بالكيس فالتقطته في الهواء، ثمّ قال وهو يرفع من صوت جهاز التلفاز ويردّد كلمات أغنية راب يبدو أنّه يحفظها عن ظهر قلب.
- تسلّي جيداً يا باب-أو-راما.
صفقت جودي الباب واندفعت تنزل السلم بسرعة.
مضت جارية بين العمارات وهي ترتعد من البرد، وبينما كانت تجري، ساورتها أفكار رهيبة. لم تعد أمامها سوى بضعة أمتار لتتمكّن من حقن هذا المخدّر في شرايينها. كانت ستفعل ذلك حتّى وسط الساحة أو في موقف السيارات حيث كان الأطفال يتزلّجون بين صناديق القمامة. لم تكن تطمح إلا لشيء واحد: أن تصير كالحجر، مخدّرة تماماً، أن تنفجر، وذلك حتّى تكفّ عن التفكير، وتنزل للحظة إلى مستوى من الوعي تكون فيه واثقة بأنّ خوفها سيتلاشى.
صعدت السلم بسرعة البرق، وأغلقت الباب بِرَكلة، ثمّ انزوت في المرحاض.
مزّقت الغلاف البلاستيكي وهي ترتعش، وتركت كُريّة بنّية تنزل

على راحة يدها. وبما أنّ كميّة المخدر كانت أقلّ من أن تُدخّن، قرّرت أن تحقنها. كانت ثمّة مخاطر بطبيعة الحال: فالنذل سيروس قادر على مزجها بأيّ شيء: مسحوق الطلق، مسحوق الشوكولاتة، أقراص مسحوقة. ولِمَ لا سمّ الفئران!

مهما يكن، فهي متعوّدة على المجازفة، وتمنّت ألا تموت اليوم بجرعة زائدة.

فتحت علبة الصيدلية المثبتة فوق المغسلة وتناولت مُعدّاتها. وضعت الكريّة في علبة كوكا مقطوعة وأضافت الماء وبضع قطرات من الليمون. سخنت العلبة من الأسفل بولاعتها ثم رشحت السائل بقطعة قطن. ولحسن حظها كانت قد احتفظت بمحقنة تعود إلى آخر جرعة تناولتها لاستعمالها في مثل هذه الحالة. غرست الإبرة في القطن وسحبت كلّ السائل. إثر ذلك تحسست ذراعها للعثور على الشريان، قرّبت منه الإبرة، غرستها وهي تغلق عينيها وتسحب نفساً عميقاً ثمّ حقنت المحلول.

اكتسحت كلّ جسدها موجة من الحرارة مهدّئةً التوتّر الذي كان يغلي بداخلها. تمدّدت أرضاً مسندة رأسها إلى حوض الاستحمام. عندئذٍ شعرت بنفسها ترحل وتغوص بلطف فيما يشبه فقاعة، كما لو أنّها تنفصل عن جزء من ذاتها.

كان عزاؤها الوحيد هو أنّ أمّها لن تراها قطّ على هذه الحال. ممّا لا شك فيه أنّها ماتت وهي تعتقد أنّ مستقبلاً زاهراً ينتظر ابنتها. حياة مليئة بالحب والسعادة.

آسفة يا أمّي، ما أنا إلا مدمنة قذرة.

الواقع أن مزيّة موت الوالدين الوحيدة هو أنّ المرء غير مهدّد بتخييب أملهما.

أخرجت من محفظتها صورتها الوحيدة المتبقّية. كانت جودي في الثالثة أو الرابعة من عمرها. وكانت أمّها تحملها بين ذراعيها، وفي الخلفيّة كانت تظهر بحيرة وجبال. لعلّ روتيللي هو من التقط الصورة.

وبينما كانت جودي تتقدّم شيئاً فشيئاً في مجاهل جحيم ناعم، راحت تدندن بأنغام أغنية كانت تغنيها لها أمّها، وهي ألحان لجيرشوين[1] حوّلتها إلى تهويدة: Someone to watch over me?[2].

كانت الغيوم قد تبدّدت في الخارج، واخترقت فضاء البنايات بعض أشعة الشمس، لكن جودي لم تبصرها.

---

(1) (George Gershwin) ملحن أميركي (1898-1937).

(2) هل من أحد يحميني؟

19

ما الحياة إلا نَفَس.

كتاب جوب

لـمّا دفع سـام بـاب الغرفة 808 كـان ليونـار مـاكوين ينهي جولة شطرنج على رقعته الإلكترونية.

سأله سام وهو يلقي نظرة على نتيجة المباراة.

- من المنتصر يا ترى؟

أجاب ماكوين:

- تركته ينتصر.

- تركت آلة تنتصر؟

- نعم، رغبت في القيام بعمل خيري. يحدث لي هذا لمّا أكون رائق المزاج. أمّا أنت فلا تبدو بالمقابل على خير ما يرام...

- كلا، ولكنّي أنا الطبيب...

- ... وأنا المصاب بالسرطان.

وما كاد ينطق بهذه الكلمات حتّى انتابه سعال طويل، ورانت على نظرة سام مسحة من القلق، لكن ماكوين طمأنه بطريقته الخاصة.

- إنني بخير يا دكتور، لا تقلق عليّ. لن أموت اليوم.

- هذا شيء سارّ.

- أتعلم ما الذي سيسعدني أنا؟

تظاهر سام بالتفكير.

- لست أدري... سيجار كوبي؟ راقصة عارية؟ زجاجة فودكا؟

- الواقع أنني أريد أن أشرب معك كأساً.

- كفاك مزاحاً...

- لست أمزح يا دكتور. نشرب كأس جعة معاً. يوجد مقهى غير بعيد من هنا، مقهى بورتوبيللو...

- لا تحاول حتّى التفكير في هذا يا ليونار.

- ومَن سيمنعني من الذهاب إلى هناك؟

- قانون المستشفى.

هزّ ماكوين كتفيه وعاد للهجوم:

- هيّا يا دكتور، آخر كأس نشربه معاً، في حانة حقيقية، مصحوبة بالموسيقى والدخان...

- أنت لا تستطيع الوقوف يا ليونار...

- أشعر بأنّ حالي تحسّن هذا المساء! هناك سترة ومعطف في الخزانة. مُدَّهما لي.

حرّك سام رأسه.

كان ماكوين مقاولاً، مقاولاً حقيقياً. لمدّة أربعين سنة وهو يخلق الشركات ويطوّرها. نجح في تكوين ثروة في سنّ مبكرة، ثمّ أفلس قبل أن يعود إلى الثراء مجدّداً. كان يحبّ المجازفة، وكان يملك قدرة غير معهودة على الإقناع حافظ عليها حتّى وهو يُحتضر فوق أحد الأسرة بالمستشفى بسبب السرطان.

- هيّا! مجرّد سُويعة. أعطني سبباً واحداً مقبولاً لرفضك.

أجاب سام دون أن يرتبك:

- أستطيع أن أستعرض لك بسهولة مئات الأسباب. أوّلها أن في ذلك مخاطرة بمنصبي...

- مجرّد هفوة بسيطة... أعدك بألا أموت بين يديك.

- كلا، في ذلك كثير من المخاطرة...

- ... لكنك ستقبل مع ذلك، أليس كذلك؟ فأنت رجل طيّب.

لم يستطع سام أن يمنع نفسه من الابتسام وأدرك ماكوين بأنّه انتصر.

*

بلاغ صحفي - سفارة فرنسا.

ستمثل مواطنتنا الشابة جولييت بومان في الساعات القادمة أمام محكمة كوينز الثالثة التي ستقرّر في أمر إطلاق سراحها. ذلك أنّ شرطة نيويورك برّأتها من حادث تحطّم الطائرة الذي أحزن الولايات المتحدّة قبل أيام.

ونحن مبتهجون للنهاية التي يبدو أن هذه القضية ستعرفها، والتي تعبّأت لها قنصليتنا العامة بنيويورك وسفارتنا بواشنطن.

*

جلس سام وليونار في زاوية هادئة، بأقصى صالة مقهى بورتوبيللو. كان المصباح الموضوع على طاولتهما ينشر نوراً هادئاً. وراح ليونار، المبتهج بوجوده هناك، يستمتع بجعته مرتشفاً رشفات صغيرة، بينما أنهى سام شرب كأس آخر من القهوة أضافه إلى الكؤوس العديدة التي شربها خلال اليوم.

- يخبرني خنصري أنّ هناك امرأة جديدة في حياتك...

- ما الذي أوحى لك بهذا؟
- إنّها أمور أستشعرها.
- ماذا لو تحدّثنا في أمر آخر؟
- حسناً. أما زلت لم تقرّر زيارة منزلي بكونيكتيكوت؟
- سأزوره يوماً.
- عليك أن تزوره برفقة عشيقتك. سيروقها...
- ليونار!
- حسناً، حسناً، لم أقل شيئاً. على كلّ حال، لمّا تزوره، لا تتردّد في النزول إلى القبو.
- لأتذّوق خمورك المعتّقة؟
- نعم، هناك زجاجة على الخصوص، زجاجة بوردو شوفال بلان تعود لسنة 1982 احتفظت بها بورع. نبيذ رائع ذو نكهة متفجرة...

ردّد سام عبارة «شوفال بلان» بنبرة فرنسية سيّئة.

فقال ليونار وهو يرشف من جعته مترجماً:

- White Horse.
- White Horse، كنت أظنّها علامة ويسكي.

رفع ماكوين عينيه إلى السماء:

- دعك من هذا، فأنت لا تعرف شيئاً!
- هذا صحيح.
- على كلّ حال، اشرب تلك الزجاجة معها.
- إنّها فرنسية.
- ستعجبها إذن.

وخيّم الصمت لبضع دقائق. ترك سام دون أن يشعر يده في جيبه

حتّى يتحسّس علبة السجائر وهو يعلم أنّ التدخين غير مسموح به.
وأخيراً كسر ماكوين الصمت قائلاً:

- لماذا لست برفقتها هذا المساء؟

- لا أستطيع يا ليونار.

- تظنّ أنّ لديك الوقت؟ هذا ما يقوله المرء في الحياة، لكن...

- إنّها في السجن.

- أتمزح يا دكتور؟

هزّ سام رأسه:

- سأشرح لك.

قصّ على العجوز بكثير من الحياء تعلّقه بجولييت منذ النظرة الأولى يوم العاصفة الثلجية. وحدّثه عن عطلة الأسبوع التي قضياها وعن ارتباكهما في المطار. ثمّ أشار إلى عدم فهمه:

- لست أدري لماذا ادّعت جولييت أنّها محامية.

- هيّا، لا تكن غِرّاً! لم تقل لك إنّها نادلة حتّى لا تظنّ أنّها بلهاء ترغب في الإيقاع بطبيب لامع وثري.

- لست ثرياً ولا حتّى لامعاً. مجرّد طبيب ماهر، حسب ما يزعمون.

- همم... ليس في مجال سيكولوجيا النساء على كلّ حال!

تظاهر سام بالضيق، ثمّ انتهى به الأمر إلى البوح:

- ليست جولييت فقط هي من كذبت، أنا أيضاً زعمت أنّي متزوّج.

همس ماكوين:

- بفيديريكا دائماً!

لوّح سام بيده ليوقفه:

- هناك أمر ينبغي أن أقوله لك.

وهكذا روى سام، الذي لم يسبق أن باح بأسراره لأحد، للعجوز بعض النتف من قصّته الأليمة مع فيديريكا. أنصت له ماكوين باهتمام، وسرعان ما تحوّل فضوله إلى تعاطف حقيقي. ورغم طبعه المتحفّظ، تحدّث سام بدون خوف. لم تكن معرفته بليونار قديمة، لكنّ شيئاً ما فيه جعله يطمئنّ إليه. كان ماكوين يملك حكمة مَن يرضون بموتهم، وهذا ما كان يثير إعجاب سام بقدر ما يثير مشاعره.

أنهى سرد قصّته في وقت متأخّر من الليل. كانت حركة المرور في الشارع أخفّ، وكان المقهى على وشك أن يغلق أبوابه قبل انصراف آخر الزبائن. عاد الرجلان إلى المستشفى في صمت، وكان ليونار متعباً. رافقه سام إلى غرفته وهو يساعده دون أن يظهر ذلك. وفي لحظة فراقهما، أشار ماكوين إلى آلة التسجيل التي كان يحملها سام دائماً في جيب سترته، ويستعملها في تسجيل فحوصاته.

- أظن أنّ عليك أن تحكي لجولييت كل ما قلته لي.

*

كانت جولييت جالسة في زنزانتها على الفراش مُسندة ظهرها إلى الجدار وقد دفنت وجهها بين راحتيها. لم تعُد تشعر لا بالتعب ولا بالخوف، وكان يتزاحم في رأسها حشد من الأسئلة:

علامَ تتوقّف الحياة؟ علامَ يتوقّف الحظّ؟ ما مقدار حرّيتنا فيما يقع لنا؟ من له الكلمة الفصل في تصريف الأمور، الصدفة أم القدر؟

هدّدها المفتش دي نوفي بإيداعها سجن لابارج، السفينة العائمة الراسية قبالة برونكس، وذلك حتّى يجعلها تعترف بأيّ شيء، لكنّها

صمدت. وكانت السجينات الموجودات في الزنازن المجاورة، وأغلبيتهنّ سوداوات أو أميركيات لاتينيات، يناديها الفرنسية دون أن يدركن حقّاً سبب وجودها هناك.

اعترفت جولييت بأنّها زوّرت تاريخ تأشيرتها، لكنّ هذا لا يجعل منها إرهابية. لم تقُم بذلك إلا من أجل رجل، رجل عاملها بطريقة مختلفة، رجل أشعرها بأنّها مختلفة وذكية وغالية.

ولو اقتضى الأمر أن تقترف الخطأ نفسه من جديد... لفعلت.

ثمّ فكّرت في والديها وأختها: حتّى ولو أطلقوا سراحها ورحّلوها إلى فرنسا، سيستمرون في النظر إليها بوصفها بلهاء الأسرة. فمهما فعلت، لا تصل أبداً إلى أن تكون في مستوى تطلّعاتها. كانت تحلم بأن تصير نجمة سينما، فوجدت نفسها نادلة؛ كانت ترغب في نيل إعجاب رجل، فألقي بها في السجن. ما هي إلا فتاة خرقاء!

انفتح باب الزنزانة، ووضع أحد الحراس صينية طعام، وتقدّمت بخطى متعثّرة نحوها كطائر مكسور الجناح. كان حلقها جافاً ففتحت قنينة الماء المعدني الصغيرة وأفرغت نصفها.

لمحت وجهها المنعكس على الصينية المعدنية: تراءى لها شحوبها وملامح وجهها المنهك، وبؤبؤ عينها الممدّد بسبب قلّة النوم. وتذكّرت ساخرة كلّ تلك الساعات التي قضتها في السعي لأن تكون الأجمل. أضاعت كلّ تلك الساعات لكي تمتثل لمعايير الجمال الحاليّة.

لماذا يعتقد الناس أنّ خلف الوجه الجميل توجد بالضرورة روح طيّبة؟ لماذا يرغب كلّ الناس في عصرنا في أن يكونوا شباباً ممشوقين رغم بلوغهم سنّاً متقدمة، ورغم علمهم المسبق بأنّهم سيخسرون المعركة؟

وبما أنّها اهتدت إلى القرارات الصائبة، أقسمت على أن تؤثِر منذئذٍ الجوهر على المظهر. وإذا كان عليها أن تتشبّه بأحد، فلتكن هي نفسها. دوّت صفارة إنذاراً بموعد إطفاء الأنوار، فآوت إلى فراشها بينما كان ضوء مصباح زنزانتها يتناقص شيئاً فشيئاً إلى أن انطفأ تماماً.

بمجرّد ما خيَّم الظلام، شعرت فجأة كما لو أنّ بطنها يعجّ بدويدات لزجة. انقبض قلبها، وما هي إلا لحظة حتّى أحسّت بحرارة دموعها تنزل على خديها في صمت. كانت تعلم وقد شلّها الخوف والبرد أنّ جفنيها لن يعرفا للنوم طعماً. وبمجرّد ما أطفئت الأنوار، تذكّرت من جديد من ماتوا في حادثة الطائرة. واستحضرت في ذهنها بوضوح بعض الوجوه التي التقتها بشكل عابر لمّا كانت تغادر الطائرة.
وفي كلّ مرّة كانت تحاول أن تنام، أيقظتها أصوات تناديها.

أصوات قادمة من القبور، محمّلة بالألم والذعر.

أصوات تلومها على أنها لا تزال حيّة.

أصوات تقول لها إنه كان عليها أن تموت.

*

كان سام يهمّ بمغادرة المستشفى لمّا نادته ممرّضة الفرز وهي تومئ إلى طيف موجود في الطرف الآخر من الردهة:

- دكتور غالواي، هناك امرأة بانتظارك.

- مريضة؟

- لا أظن.

عبر سام الردهة الطويلة وقد تملّكه الخوف من زيارة أخرى لغريس كوستيللو.

كان ثمّة امرأة واقفة بمواجهة زجاج النافذة وقد أدارت له ظهرها شاردة تنظر إلى الظلام. كانت تتوشّح بوشاح «بيربوري» وترتدي معطفاً طويلاً تغطي ياقتُه شعرَها المشعث.

هذا اللباس وهذا الشعر... هتف وهو يتقدّم نحوها:

- جولييت!

انتفضت المرأة وهي تلتفت: كانت لا تزال تلبس البذلة نفسها والملابس نفسها، لكنّها لم تكن جولييت.

- الدكتور غالواي؟ اسمي كولين باركر، أنا من تقتسم الشقّة مع جولييت.

انتاب سام شيء من الضيق بسبب خطئه، وحيّا المرأة التي لم تتردّد في تفحّصه من أعلى إلى أسفل. تفرّسها سام بدوره، ملاحظاً قسماتها الدقيقة وعينيها المائلتين إلى الخضرة. فقد كانت كولين جميلة، وهي تعلم ذلك.

قالت موضّحة:

- قرأت الجريدة هذا الصباح، وما زلت لا أصدق: جولييت متّهمة بتفجير الطائرة! هي من لا تعرف حتّى كيف تستخدم فرن الميكرووايف!

ابتسم سام ابتسامة مجاملة، فاسترسلت المرأة:

- أخبرني محاميها بكلّ ما قمتَ به، وهو من أعطاني عنوانك.

- أظنّ أنّ ثمّة أمل في أن يطلقوا سراحها غداً.

هزّت كولين رأسها، وخمّن سام السؤال الذي كان يؤرقها، وهو ما لم تتأخّر في طرحه:

- أتعرف جولييت منذ فترة طويلة؟

- ليس كثيراً.

- منذ شهور؟

- منذ أيام.

حدّقت الشابة من جديد باهتمام في الطبيب. وكلّما أمعنت في الإنصات إليه، زاد فهمها لِما جذب جولييت إليه: مزيج من التصميم واللطف، بريق نظرته الذي يضفي عليه طابع الإثارة...

قالت بعد قليل من التردّد:

- هل تسمح بأن أطرح عليك سؤالاً؟

أومأ سام بيده داعياً إيّاها إلى الاسترسال:

- ما الذي دفعك إلى مساعدة امرأة لم تتعرّف عليها إلا منذ أسبوع؟

- إنّها قصة بسيطة ومعقّدة في آنٍ.

صمتت كولين لثوانٍ، ثمّ قالت:

- لا أعرف إلا شيئاً واحداً يجمع بين البساطة والتعقيد.

- ما هو؟

- الحبّ.

*

بعد ذلك بساعات، في جوف ليل نيويورك بحي هارليم، تسلّل طيف بخفّة إلى بناية من الطوب. إنّه مخزن شاسع غير بعيد عن المكان الذي فتح فيه كليتون مكاتبه بعد مغادرة البيت الأبيض، كانت تُحفظ فيه ملفّات التشريح الطبي بعد حفظ القضايا الجنائية أو حلّها.

دخلت غريس كوستيللو إلى ردهة البناية الإدارية. كانت هادئة تماماً. نظرت إلى ساعتها: تجاوزت الثالثة صباحاً بقليل. وكما توقّعت، لم يكن في المداومة الليلية غير عدد قليل من الموظّفين.

قالت وهي تقترب من موظّف كان يتثاءب خلف مكتب الاستقبال:

- مساء الخير.

- مرحباً. يا له من برد في الخارج!

ردّت وهي تقدّم له بطاقتها وشارتها كما ينصّ على ذلك القانون:

- نعم.

كانت تعلم أن ثمّة كاميرا مراقبة تصوّر كل حركاتها في هذه الأثناء، لكنّها قبِلت بالمخاطرة. كانت تعتقد أنّ لا أحد سيشاهد هذه التسجيلات، على الأقل ممّن يستطيعون التعرّف عليها.

قالت وهي تفرك يداً بيد:

- لو منحتني قهوة لن أرفضها.

أجاب الموظف وهو يشير إلى موزّع آلي في أقصى الردهة:

- توجد آلة قهوة هناك...

ابتسمت غريس في وجهه ابتسامة هي وحدها من تعرف سرّها. ابتسامة تستطيع إرباك أكثر الرجال حزماً. كانت تعلم أنّها سلاحها الفعال، وأنّها سلاح غير شريف إلى حدّ ما، لكن للضرورة أحكام، وهذا هو الحال هذه الليلة.

قال الموظف:

- انتظري، أنا من سيدفع ثمن القهوة.

- إنّه لطف منك.

- اسمي روبي.

- تشرّفت بمعرفتك.

ابتعد عن مكتبه، فاغتنمت غريس الفرصة لتتسلّل إلى حاسوبه. رقنت إذن اسمها، فظهرت لها على الشاشة المعلومات المنشودة:

غريس كوستيللو

ملف رقم 1060-674

سجّلت هذه الأرقام على قطعة ورق وانتظرت عودة روبي لكي تطلب منه الملف انطلاقاً من رقمه لا من اسم الضحية.

علّق قائلاً:

- لم يسبق لي أن رأيتك هنا.

- عشت بعض المتاعب الصحيّة في السنوات الأخيرة.

- مع أنك تبدين بصحة جيدة.

عاد بعد دقائق ومدّ لها جيب كرتون سميك. حمداً للرب، لم ينتبه لتشابه الاسمين.

بعد أن شكرته، انزوت في مقصورة صغيرة لكي تطّلع على الملف وهي واعية بأنها مقبلة على تجريب إحساس لم يعرفه ميّت قبلها: أن يطّلع على تقرير تشريحه الطبي...

رغم محاولتها الحفاظ على هدوئها، لم تستطِع منع أصابعها من الارتعاش وهي تفتح الصفحة الأولى من الملف.

معلومات عامة.

غريس لوران كوستيللو

الجنس: أنثى - العرق: بيضاء - السن: 38 سنة.

القامة: 179 سم - الوزن: 66 كلغ.

قالت في نفسها حتّى تخفّف من وطأة الموقف: 66 كلغ! لو كنت أعلم ما كان ينتظرني لما اتبعت تلك الحمية.

واصلت القراءة محاولة التعرّف على عنصر قد يساعدها على تذكّر ملابسات موتها. يقول التقرير إنّهم عثروا على جثّتها على الساعة

الخامسة صباحاً في سيارتها الخاصة مركونة في زقاق صغير غير بعيد عن جسر مانهاتن.

لكن كلّ هذا لا يخبرني بما كنت أفعل هناك.

وعثرت في ظرف على مجموعة صور بولارويد شقّ عليها النظر إليها. رغم قدرتها على التحمل، لم تستطع الصمود أمام هذا الشعور السريالي الذي ينتاب المرء وهو يشاهد جثّته. فقد قُتلت بطلق ناري في الرأس. وبما أنّ الطلق كان من الخلف، فجّرت الرصاصة الجزء الأيسر من جمجمتها قبل أن تعلق في الجزء العلوي الأيمن من المخ. لم تكن مؤخّرة جمجمتها على الصور سوى كتلة دامية.

لم تكن تبدو على بقية جسمها غير كدمة - انتفاخ واضح بإحدى الوجنتين - دون آثار تعذيب ولا اغتصاب ولا جروح دفاعية. لم يتوفر لها الوقت حتّى للمقاومة أو الاحتماء، لأنّها كانت تدير ظهرها لمن أطلق النار على رأسها.

كادت في البداية ألا تطّلع على الصفحتين الأخيرتين المخصّصتين للتقرير المتعلّق بالسموم، مقتنعة بأنّها لن تعثر فيه على طائل. وحتّى لمّا قرأته، أجهدت نفسها لتعيد قراءة هذه المعلومات مرّات ثلاث، بما أنّ ما اكتشفته تركها مشدوهة: تكشف عيّنات من دمها عن وجود آثار مخدّر الكوكايين في جسدها.

تكوّمت فوق مقعدها. صعُب عليها تحمّل الصدمة. هناك شيء ما في غير موضعه. فهي لم تتناول المخدرات قطّ! قامت مصعوقة وأعادت الملف لروبي.

لمّا خرجت إلى الشارع، لسع وجهها برد قارس ولاذع، لكنّها لم تحفل به. كانت تتشابك في ذهنها ثلاث أسئلة كأفاع سامّة: من

قتلها؟ لماذا كان المخدر في دمها؟ وهل لهذا صلة بالمهمة الملغزة التي كُلّفت بها ذلك اليوم؟

*

الثلاثاء صباحاً

عُرضت جولييت بومان على محكمة كوينز الثالثة على الساعة التاسعة صباحاً. لمّا دخلت إلى القاعة بحثت بيأس عن عينين ووجه مألوف، لكن الجلسات لم تكن عمومية. فلا كولين ولا سام تمكّنا من الحضور. وقد اعترفت أمام هيئة القضاء، بناء على نصيحة محاميها، بعدم الامتثال للشرطة وخرق قانون الهجرة.

وبما أنّ الشرطة لم تستطع أن تثبت تورّط الشابّة الفرنسية في حادثة الطائرة، تنازلت المحكمة عن كلّ التهم الموجّهة إليها في هذا الملف، وبعد مداولة مع وكيل النيابة، حكم عليها بكفالة فقط، بمبلغ 1500 دولار.

بعد أن عادت إلى مفوضيّة الشرطة لتستعيد أغراضها الشخصيّة، اقتيدت إلى مصلحة الهجرة التي كانت ستُفعّل إجراء ترحيلها. إلا أنها في الوقت الذي كانت تنتظر فيه أن ترحّل إلى فرنسا بصورة فظّة، أبدت لجنة تحقيق غامضة، أنشئت بعد الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر، رغبتها فجأة في التحقيق معها في غضون الأيام القادمة. عُلّقت إذن إجراءات ترحيلها على الساعة الثانية عشرة. ومن غرائب الاتفاق أنّها غادرت البناية وفي جيبها تمديد استثنائي لتأشيرتها يمتدّ حتّى اليوم الموالي لاستدعائها!

كانت كولين قد جاءت للقائها، فارتمت كلّ منهما بين ذراعي الأخرى، وراحتا تقبلان بعضهما بعضاً وهما تبكيان، وشعرتا بأنّهما

قريبتان إحداهما من الأخرى أكثر من أيّ وقت مضى.

امتطيتا سيارة تاكسي أقلّتهما إلى شقّتهما. كان الجو صحواً وجافّاً، ولم يسبق أن بدا ضوء النهار لجولييت أكثر إنعاشاً ممّا بدا لها ذلك اليوم.

وما كادت تصل حتّى دخلت الحمام، وتركت الماء الساخن يتدفّق إلى أن تحوّلت الحجرة إلى حمام سونا. نزعت ملابسها ودخلت إلى الماء المعطر، وتركت الحوض يمتلئ إلى أن كاد يفيض. غطست تحت الماء لأكثر من دقيقة محاولة إفراغ ذهنها لعلّها تستعيد قواها.

مثّل اعتقالها على ذمة التحقيق محنةً لم تكن مستعدة لمواجهتها، ولن تنساها أبداً. لم تكن تأمل مع مرور الزمن إلا في ألا تترك هذه التجربة آثاراً عميقة على نفسيتها. أما الآن فهي تسعى لأن تمحوها من ذهنها، وهي ممتّنة لأمها التي لم ترهقها بالأسئلة.

أخرجت رأسها من الماء لتتنفس، وشعرت كما لو أنّها تجدّدت. هي منهكة ومفعمة بالحيوية في الآن نفسه، وتهيّأ لها أنّ قدرتها على النوم لثلاثة أيام متواصلة لا توازيها إلا قدرتها على الركض لعشر كيلومترات في أرجاء سانترال بارك.

التفّت في بشكيرها ولحقت بكولين في الصالون.

- شكراً على مجيئك للقائي.

أومأت كولين لحقيبة سفر كانت موضوعة على الأريكة.

- حضّرت لك بعض الملابس، عثرت عليها في دولابك.

شرعت جولييت تبحث في الحقيبة كما لو كانت صندوق كنز. معظم الملابس تعود إلى الحقبة التي كانت فيها طالبة، وبعضها إلى طور مراهقتها.

علّقت كولين عرَضاً:

- أتعلمين، لقد قلق عليك كثيراً...

- من؟

- من سيكون في نظرك؟

- لست أدري، السيد أندرو، جارنا التسعيني؟

استرسلت كولين وقد ارتسمت على وجهها ابتسامة خفيفة:

- انظري، أنا أفهم هيامك به... إنه حقاً... ماذا سأقول؟ وسيم، لا أظن أن الكلمة تفي بالغرض... ولا حتّى جذّاب... على كلّ حال، إنّه رجل حقّاً.

- لست أدري من تقصدين.

- حسناً، كما تشائين، لن نتحدّث في هذا الموضوع ثانية.

واصلت جولييت التنقيب في ألبسة شبابها باحثة عن شيء يمكن أن ترتديه. أخرجت قميصاً بعُقد خيط كبيرة مزيّن بالخرز والأحجار، وبلوزة بوُرودٍ مطرّزة لا تزال تثير الإعجاب وسروال جينز باهت اللون مليء بالجيوب والخدوش، اشترته - حسبما تذكر - في منتدى هالز عند اجتيازها امتحان البكالوريا.

بينما كانت تتظاهر بالدهشة من هذه الكنوز التي عثرت عليها، ظلّت تجترّ ما قالته لها كولين. ندمت على إنهاء تلك المحادثة، وظلّ سؤال يلحّ عليها: كيف علمت رفيقتها في الشقّة بسام غالواي؟

- قولي لي...

- همم؟

- ماذا قصدت بالضبط بقولك إنه قلق عليك؟

تظاهرت كولين بعدم فهم قصدها:

- لا شيء يا عزيزتي. تريدين الحفاظ على حديقتك السرّية، وهذا من حقكِ.

- كفّي عن إيلامي!

رفعت كولين عينيها عن شاشة حاسوبها راضية:

- حسناً، لقد تحدّثت قليلاً إلى سام غالواي، وأظنّ أن هذا الرجل حريص عليك.

- الأمر في غاية التعقيد: هو طبيب ومتزوّج... ولا أظنّ أنّه يمكن أن يحبّني كما أنا حقيقة.

ردّت كولين وهي تمدّ لها آلة التسجيل الصغيرة:

- وأنا أظنّ خلاف ذلك.

مطّت جولييت شفتيها مستفهمة، لكن كولين زادت من ترقبها.

- حسناً، سأتركك، الآن وقد اطمأنيت على مصيرك، سأخرج للتسوّق. لقد عثرت على فستان ظريف عند ساكس، وأظنّ أنّني لن أقوى على مراقبته ولدي الرغبة في شرائه...

بمجرّد ما انسحبت كولين بخفّة، ضغطت جولييت على زرّ تشغيل الجهاز، فتردّد صوت سام في غرفة الفندق بعيد جداً وفي منتهى القرب في آن.

- عزيزتي جولييت...

20

ما تعلّمته يمكن إجماله في ثلاث كلمات: يوم يُغرم بك أحد يكون يوماً جميلاً. لا أستطيع أن أعبّر بصيغة أفصح: الجو الآن في منتهى الجمال.

جان غابان

عزيزتي جولييت...

أرجو أن تتريّثي وتنصتي لكلامي، رغم أنّك غاضبة منّي...

أعلم أنّ الأيام الأخيرة كانت في غاية القساوة، وصدّقيني إن قلت لك إنّني لم أكفّ لحظة عن التفكير فيك.

أعلم كذلك أنّ لا شيء ممّا وقع كان سيحدث لو أنني تحلّيت بالشجاعة وطلبت منك البقاء معي عوض ركوب تلك الطائرة اللعينة. لم يكن الشوق هو ما ينقصني، بل ربّما عدم الثقة في الحياة والخوف من أن تكون علاقتنا قائمة على مجرّد كذبة.

جلست جولييت على الأريكة وركبتاها ملتصقتين بصدرها دون أن يخطر ببالها ما سيبوح لها به سام.

لأنّني كذبت عليك: كنت متزوّجاً ولم أعد، ذلك أنّ زوجتي توفيت منذ سنة.

كانت تُدعى فيديريكا، وقد عرفتها منذ الطفولة. نشأنا في الحيّ

نفسه ببروكلين، وهو حيّ فقير شبيه بالأحياء الفقيرة الموجودة في المدن الكبرى. لم أتعرّف على والديّ، وجدّتي هي من ربّتني في حدود إمكاناتها، في حين أنّ فيديريكا لم يكن لها من أهل سوى أمّ مدمنة تقضي كلّ يومها في المخدرات من الصباح حتّى المساء. هكذا قضينا طفولتنا. ولكي أعطيك فكرة أخرى عنها، اعلمي فقط أنّنا ما كنّا نشاهد صور الصفّ الدراسي في السنوات الأخيرة إلا لكي نلاحظ بأنّ زملاءنا القدامى إما ماتوا أو يقبعون في السجون.

في حين كنّا نحن ما نزال أحياء. أنا طبيب وهي رسّامة، ونعيش في شقّة فاخرة. نجحنا في التخلّص من ذلك الوضع البئيس.

هذا ما كنت أتصوره على الأقلّ إلى أن حلّ ذلك المساء الرهيب...

أذكر أنّنا كنّا في منتصف كانون الأول/ ديسمبر، وأنّني استسلمت لنشوة المرحلة. احتفلنا بعيد الميلاد بالمستشفى في فترة الظهيرة في جو بهيج، حيث زين الأطفال شجرة ميلاد بتماثيل ورقية من صنع أيديهم. كان قد مضى أسبوعان لم أفقد فيهما مريضاً من مرضاي. كانت فيديريكا تنتظر مولوداً وهو ما غمرني بالبهجة.

لمّا غادرت المستشفى ذلك المساء، تجوّلت لحظة أمام واجهات المحلات الفاخرة لشراء بعض الهدايا: كتاباً عن رفائيل لفيديريكا، دمية خشبية ملوّنة وفيلاً محشوّاً لتزيين غرفة الوليد...

لأوّل مرّة بدا لي المستقبل هادئاً وزاهراً، وعدت إلى البيت مطمئنّ القلب. كان الباب مفتوحاً، فناديت فيديريكا من السلّم، لكنّها لم تجب. دفعت باب الحمام بشيء من التوجّس لأكتشف ما لا أستطيع وصفه. كان الجدار والبلاط ملطخين بالدم، وجثّة فيديريكا مستلقية في ماء يميل لونه إلى الحمرة. كانت مشقوقة عروق الرسغين. لقد انتحرت زوجتي وهي حامل.

كفكفت جوليت دمعة سالت على خدّها وقد تشوّش بالها.
خرجت إلى الشرفة لتأخذ نفساً وآلة التسجيل ملتصقة بأذنها. استرسل سام:

مهما يقع لي في المستقبل، فأنا واثق أنّه لن يكون في فظاعة موت زوجتي.

ينبغي أن تفهمي يا جولييت: إن عملي كطبيب يقوم على اقتناع مفاده أن المعاناة ليست أمراً حتمياً. فأنا أستقبل يومياً في عيادتي أطفالاً حطّمهم العنف أو الحزن أو المرض، وواجبي هو أن أقنعهم بأنّهم يستطيعون القيام من جديد وتجاوز الصدمة. وكثيراً ما أنجح في ذلك. وهذا ما يفسّر جزئياً سبب اختياري للطب: لأنّني مقتنع بأنّ الحياة تبقى ممكنة بعد المحن المهولة. إنّ معالجة الناس لا تقتصر على البحث عن أسباب مرضهم، بل هي إعطاؤهم الأمل بأنّ الغد يمكن أن يكون أفضل من الأمس.

لكنني لم أنجح قطّ في إقناع فيديريكا. كانت المرأة التي أحبّها تعيش أزمة، ووجدت نفسي عاجزاً عن تخليصها من معاناتها. كنّا نعيش تحت سقف واحد، ولكن لكلّ منا حياته الخاصة، ولم ننجح يوماً في أن نعيش معاً.

أعتقد أن المرء لا يمكن أن يساعد غيره إلا إذا قبل هذا الغير المساعدة، لكن انكفاء فيديريكا على نفسها كان يزداد يوماً بعد يوم. لم تتحرّر قطّ من ماضيها. فقدت الرغبة في الكفاح إلى حدّ لم أكن أتوقعه. ينبغي أن يبلغ اليأس بامرأة مبلغاً كبيراً ليدفعها إلى الانتحار وهي حامل...

خلال الشهور التي تلت تلك الحادثة، ما عاد شيء يعنيني، ولم أعد أحفل بفرح ولا ترح، ولم يعد الموت يخيفني، بل انتظرته في بعض الأيام لعلّه يكون الخلاص.

الشيء الوحيد الذي ظلّ يثير اهتمامي هي مهنتي، لكنّني صرت أمارسها بقدر أقلّ من الاقتناع. لم يعد لي أمل في شيء، وصرت أعيش كروبوت.

إلى أن أتيت...

كم كان احتمال لقائنا في نظرك؟ لا أذكر أين قرأت أن مليوناً ونصفاً من البشر يلتقون يومياً بتايمز سكوير. مليون ونصف، هل تقدرين هذا؟

كم كان يلزم لكي نخطئ موعد لقائنا؟ ثانية واحدة على الأكثر...

لو أنك عبرت الطريق قبل لقائنا بثانية لأخطأنا بعضنا. لو أنني غيّرت الاتجاه ثانية واحدة من بعد لكنا أخطأنا بعضنا.

كل ما وقع بيننا يتوقف على تلك الثانية.

ثانية واحدة وما كان لي أن ألمح وجهك.

ثانية واحدة وما كان لك أن تعلمي حتّى بوجودي.

ثانية واحدة وما كان لك أن تنزلي من الطائرة...

وقالت جولييت في نفسها: ثانية واحدة وكنت سألقى حتفي.

ماذا لو كانت هذه الثانية هي ثانيتنا؟ شرارتنا غير المتوقعة، فرصتنا.

الفرصة التي بإمكانها أن تغيّر حياتنا إلى الأبد...

فكّري في هذا!

أعلم أنّني كذبت عليك، ثقي بأنّني ندمت على ذلك.

أعلم كذلك أنّك لست محامية، لكن لا تظنّي أنّ هذا الأمر ضايقني، بالعكس. نادلة أو ممثّلة، الأمر عندي سيان. فأنا لا أبحث عن الثروة ولا عن الشهرة. ولم يكن المال يوماً عاملاً حاسماً في قراراتي. لا

ثروة لي ولا أملك شيئاً، ولا حتّى شقّة أسكن فيها، كل ما أملك لا يتعدّى مهنة، وهي كلّ حياتي. ثمّ أملك أملاً أترك لك عناية تخمينه...

أطفأت جولييت آلة التسجيل وقد ترقرقت عيناها بالدموع. نزعت بشكيرها وارتدت ما انتقت من ملابس في طرفة عين من دون حتّى أن تتجمّل، ثمّ توشّحت بوشاح طويل ذي ألوان ناصعة وسترة من القطيفة المخططة المبطنة بالفرو. وما هي إلا لحظة حتّى غادرت الشقّة.

لكنّها لم تلبث أن عادت: من عجلتها خرجت حافية القدمين. بحثت في الحقيبة، فعثرت على حذاء «الكيكرز» الجلدي ذي اللونين ونعل الكاوتشوك.

سوّت هندامها قليلاً أمام مرآة المصعد. الواقع أنه لم يكن هنداماً سيئاً. أضفت عليها ثيابها القديمة مسحة بوهيمية. لم تكن بالطبع في قمّة الأناقة، لكنّها كانت هي نفسها على الأقل.

*

لحقت بسام في المستشفى، وحذتهما الرغبة معاً في قضاء الظهيرة خارج المدينة. ومن حسن حظّهما أنّ ليونار ماكوين اقترح على سام أن يزور بيته بحي إنجلترا الجديدة، ولم يرفض هذه المرة.

غادرا نيويورك إذن عبر الطريق 95، وحتّى وهما في السيارة ظلا متشابكي الأيدي بحيث كان يعالج محوّل السرعة وقد وضعت يدها على يده، وعند كلّ وقوف في ضوء المرور كانا يتبادلان القبل. كانت قبلاتهما بمذاق الربيع، وهو ما أثار دهشتهما. وما إن خرجا من نيويورك وبلغا هيفن حتّى تركا الطريق السيّار لكي يتمكّنا من الاستمتاع بجمال المناظر الطبيعية. كان الساحل الممتدّ نحو الشمال الشرقي

مرصّعاً بالخلجان والأجوان والمرافئ، وقادهما إلى قرية صيادين صغيرة واقعة على الحدود بين كونيكتيكوت و«رود أيلاند» هناك حيث كان يوجد منزل ماكوين.

يجذب هذا المكان خلال الأيّام المشمسة العديد من السياح وأصحاب اليخوت بفضل أروقته الفنيّة ومحلاته الحرفية، لكن القرية تبدو اليوم شبه فارغة، ومن ثمّة أكثر أصالة ممّا تكون عليه في موسم الصيف.

بعد ركن السيارة، تجوّل سام وجولييت للحظة في الشارع الرئيس الذي تطغى عليه بنايات القباطنة البحرية القديمة، ثمّ توجها إلى الشاطئ. كان الجوّ صحواً منذ الصباح والحرارة معتدلة على نحو لا يصدّق، كما لو أن هذا اليوم سُرق من الصيف ليحلّ في عزّ الشتاء.

ممّا لا شكّ فيه أنّ التغيرات المناخية تزداد جلاء يوماً بعد يوم. وراحا يتجوّلان تحت الأشعة الذهبيّة يداً في يد على طول رصيف الميناء. كانا يستمتعان بمنظر السفن لمّا قالت جولييت مداعبة:

- لو كنّا في فيلم، لو كنت مشهورة وكنت أنت كيفين كوستنر، لركبنا أحد هذه اليخوت فتأخذني بعيداً عن الشاطئ.

- إنها أمنية لشدّ ما يمكن أن تتحقق: فقد أخبرني ماكوين بأنّه يملك مركباً راسياً هنا.

- ما اسمه؟

قال سام وهو يراجع أوراق المركب:

- الياسمين.

وما هي إلا لحظات حتّى كانا أمام مركب رائع بمقاس ثمانية وعشرين قدماً، مصنوع بكامله من الخشب الملمّع.

سألته وهي تقفز إلى سطح المركب:

- هل تعرف قيادة المراكب؟

- من مزايا دراسة الطب في هارفرد أنّ الطالب يُدعى خلال بعض عطلات الأسبوع لتعلّم سياقة اليخوت لدى الأميركيين البيض (الواسب) بالمنطقة.

- هل تنوي فعلاً القيام بجولة في البحر؟

- ينبغي أن أكون في مستوى مرجعياتك السينمائية.

- لكن إن كانت قيادة مثل هذا المركب تتطلّب رخصة...

- لا تقلقي، إنْ أوقفونا هذه المرّة، فأنا من سيذهب إلى السجن.

بسط الأشرعة وهيّأ المركب، وبعد أن بحث عن المفتاح المناسب في حزمة المفاتيح التي سلمها له ماكوين، أداره فأزّ المحرّك الصغير بدون مشاكل. وهتف سام:

- أرخي الحبال، هذا ما كان سيقوله كوستنر، أليس كذلك؟

ردّت وهي تقبّله:

- لن يبلغ كعبك.

ثمّ قفزت بحركة رشيقة إلى المكان المرتفع من سطح المركب حيث راحت تتأمّل طيور الخرشنة وهي تحوم فوق رأسها. وما إن عثر سام على الرياح المواتية حتّى أوقف المحرّك، ومضى يرفع الشراع ويؤزره. صارت سرعة المركب ترتفع تدريجياً ليبعدهما من الشاطئ. كانت الشمس تميل إلى المغيب بحيث اصطبغت السماء بلون برتقالي. ولحقت جوليت بسام عند ذراع دفّة المركب، فضغطت نفسها إليه. أضفى عليهما ضوء المساء لوناً بهيجاً ولفّهما بوشاح غير مرئي، وراحا يتذوّقان صامتين متعة كونهما معاً، واستسلما لانفلات

هذه اللحظة التي يبدو فيها الوجود، الذي غمره النور فجأة، كما لو أنّه يمنحهما فرصة أخرى.

*

مضت نصف ساعة على عودتهما إلى المرفأ، ولاذت جولييت بأحد مطاعم القرية الصغيرة لتستدفئ أمام فنجان شاي بينما بقي سام بالمركب ليرتّبه كما كان. ولمّا أنهى المهمة، عاد أدراجه مشياً، فقطع الممرّ الطويل الذي يحاذي البحر. شعر بالخفة والابتهاج. لمّا يكون المرء عاشقاً، تتخذ الحياة في عينيه ألواناً مختلفة، وبدا له أنّ وجوده اكتسب معنى من جديد.

كان على وشك اللحاق بجولييت لمّا وضعت رنّة حدّاً لبهجته. لم يكن لا جهاز الإخطار ولا هاتفه الجوّال، بل مجرّد هاتف أحد المخادع العمومية الموجودة في الهواء الطلق. أهي مزحة؟ التفت يميناً وشمالاً: كان الممرّ مقفراً. قرّر في البداية ألاّ يأبه به، لكن ردّ فعله كطبيب سرعان ما هيمن عليه: وإذا كان أحدهم بحاجة إلى مساعدة؟ حريّ به أن يجازف بالردّ من أن يُعرض.

رفع السمّاعة وسأل:

- من؟

سمع في الطرف الآخر صوت الشخص الذي لم يكن يودّ سماعه:

- لا تنس الصفقة التي أبرمناها يا غالواي: ستنتهي الحكاية يوم السبت عند منتصف النهار.

- كوستيللو؟ ماذا تريدين منّي؟ ثمّ، أين أنت؟

- أنت تعلم جيّداً ما أريد.

- لا أستطيع أن أفعل ذلك بالمرأة التي أحبّ!

- أخشى ألا يكون أمامك اختيار!

- لماذا تفعلين هذا بي أنا. لقد عرفت الحزن والحداد! وتحمّلت حظّي من المعاناة!

- أعلم ذلك يا سام، لكن، لست أنا من يقرّر.

فهتف سام:

- من يقرّر إذن؟ من؟

لكن غريس أقفلت الخط.

استشاط سام غيظاً وأهوى بالسماعة على المخدع، فهشمها.

21

على الإنسان أن يعيش حياته وهو ينظر إلى الأمام، لكنّه لا يفهمها إلا بالنظر إلى الخلف.

سورين كيركغارد

الخميس صباحاً

التفت سام إلى جولييت، لم يكن يبدو من الغطاء غير كتفها العاري وجدائل شعرها الذهبي المنتشر على الوسادة كأشعة الشمس. توفّق في النوم لبضع ساعات، لكنه ظلّ يشعر بقلق مريع رغم حضور المرأة الشابة. استفاق من النوم وألقى نظرة على المنبّه: الخامسة وأربع دقائق، وقرّر أن يقوم من الفراش رغم الوقت المبكر.

انطلاقاً من الآن، عليه ألا يكذب على نفسه: هناك خطر يتهدّده، وهو لا يعرف كيف يواجهه. شعر بنفسه وقد اكتسحته الحيرة بأنّه شخصيّة من شخصيات البُعد الرابع، تلك السلسلة التلفزية التي دأب على مشاهدتها في صغره: رجل عادي تخطّى حدّاً لم يكن يتوقّع وجوده، ويدرك بفزع وجود صدع في الواقع.

غادر السرير دون ضجيج. كانت آثار جماعهما في الليلة السابقة لا تزال مبعثرة على الأرض: قميص قصير، كنزة ملوّنة، قميص آراو ملوّن، بعض الملابس الداخلية...

توجّه إلى الحمام وفتح صنبور الرشاش، فزعزع وصول الماء الساخن القنوات، وملأ الغرفة بخاراً. ارتمى تحت الدفق الحارق والهواجس لا تزال تنهشه. كان زمام الأحداث على وشك الإفلات من يده، لا سيما وقد وجد نفسه وحيداً أمام تلك الأسئلة. لمن تراه يستطيع أن يبوح بما يحدث له دون أن يثير ريبته؟ لمن عساه يلجأ؟

وقال في نفسه: هناك شخص يمكن... لكن مضى زمن طويل...

رفض إمعان التفكير في هذه الإمكانية، ثمّ خرج من الحمام ونشّف نفسه بهمّة.

عاد إلى الغرفة ولبس بسرعة ثمّ خط كلمة لجولييت وضعها في مكان بارز على الوسادة. ترك لها أيضاً مفاتيح شقّته بمنهاتن. . .

بحث بيأس عن بقايا قهوة، لكن عبثاً.

عجباً، لا أجدها هذا الصباح الذي أحتاج فيه بالضبط إلى عشرة فناجين!

نظر إلى جولييت لآخر مرّة قبل أن ينصرف، ثمّ خرج ووقف عند الباب حيث استقبله ريح بارد وصوت الأمواج الهادر. نزل الأدراج وهو يفرك يديه مستغرقاً في أفكاره. ولم يجد أيّ صعوبة في تشغيل محرّك سيارته الرباعية الدفع رغم البرد الشديد.

وبما أنّ الوقت كان لا يزال مبكّراً، بلغ نيويورك في أقلّ من ساعة. وبينما كان يهمّ بالانعطاف إلى الشرق لكي يتّجه إلى المستشفى، أدار مقود السيارة بنيّة أن يعود أدراجه نحو بروكلين.

- آآه!

ضغط فجأة على الفرامل لكي لا يصطدم بشاحنة أحد باعة الزهور الذي كان عائداً بعد تسليم بضاعته. صرّت إطارات السيارة وانزلقت على الطريق. كان جهاز الفرامل فعالاً، لكنّه لم يمنع السيارة

من الارتطام بمؤخّرة الشاحنة. لم تكن الصدمة قوية، لكنّها كانت كافية لكي تخضّه.

رجع سام إلى الوراء ثمّ زاد من السرعة ليتجاوز شاحنة بائع الزهور، ولاحظ أنّ السائق الناقم، وهو من أصول إسبانية، لم يصب بأذى، بل لقد راح يلوّح بيديه في كل الاتجاهات ويهدّد بقبضته.

قرّر سام ألا يترجّل من سيارته، وتناول إحدى بطاقات زيارته الموجودة على الدوام بمحفظته، ثمّ قذف بها من خلال زجاج النافذة.

وهتف بالسائق وهو ينطلق:

- سأدفع كل ما يلزم!

كان مستعدّا لتحمّل مسؤوليته، لكن كانت له في تلك اللحظة أولويات أخرى.

كان عليه أن يلقى أحدهم.

شخص سبق وأن لجأ إليه في الماضي، لمّا شعر بأنّه عاجز عن إعطاء معنى للأشياء.

*

ركن سيارته بمحاذاة الرصيف. لقد مضت على مغادرته بيد-ستوي عشر سنوات. وكان قد أقسم على ألا يعود إلى هناك أبداً، وهو قسَمٌ التزم به حتّى تلك اللحظة. ما حيّره أوّلاً هو التحوّل البرجوازي الذي طرأ على الحي. ذلك أنّ التهاب أسعار العقارات طردت الطبقة الوسطى من مانهاتن، ممّا جعل عدداً كبيراً من سكان المدينة يسارعون إلى شراء مباني الحجارة البنّية الصغيرة التي كان يشغلها الرعاع بأثمان زهيدة.

كانت سيارة شرطة أسفل الشارع تقوم بدوريتها في هدوء، بل إنّ

المكان بدا أنظف، كما لو أنّ بيروت الصغيرة صارت في غضون سنوات في هدوء ضاحية سكنية!

لكنه ما لبث مع ذلك أن شعر بقشعريرة تسري في جسده على غرار ما كان يقع له في الماضي. عندئذٍ أدرك بأنّ أشباح مَن كانوا يحتلّون المكان وكذا باعة الكراك لا تزال تحوم حول كلّ أولئك الذين عاشوا هناك خلال السنوات العسيرة.

مشى في الشارع. كانت الكنيسة الصغيرة لا تزال في مكانها، مضغوطة بين ملعب الكرة الطائرة ومخزن منذور للهدم قريباً. صعد سام بضع درجات ووقف أمام المدخل. كان الأب هاثاواي يترك باب «بيت الرب» مفتوحاً دائماً، إلا في بعض الحالات. ومنذ أن مات الأب هاثاواي، عوّضه قسّ آخر. مع ذلك، لمّا دفع سام الباب الخشبي الثخين، انفتح مُصدراً صريراً. ها هو يعثر أخيراً على شيء لم يتغيّر...

كانت البناية تتميز بزينة فاخرة، تجمع بين ضروبٍ مختلفة من الصور والنقوش في نوع من التناسق على غرار ما هو مألوف في كنائس أميركا الجنوبية. كانت الجدران ملبّسة بثوب مذهّب، ومزيّنة بعدد لا يحصى من المرايا الصغيرة. وفوق المذبح انتصب تمثال مجنّح للعذراء وهي تمدّ يديها نحو الزائرين، بينما يصوّر رسم جداري بألوان زاهية آلام المسيح.

مشى سام بين الصفوف بانفعال. كثيراً ما كان يلوذ بهذا المكان في صغره. خصّص له الأب هاثاواي مساحة صغيرة بغرفة المقدسات لكي يتمكّن من إنجاز واجباته المدرسية فيها. ولم يمتلك سام يوماً إيماناً مفرطاً، لكن الأماكن المناسبة للدراسة كانت نادرة في الحي.

دنا الطبيب من تجويف مغمور بضوء شاحب. كانت ثمّة مبخرة

معلقة في سلاسل صغيرة، وحولها كانت تتّقد عشرات الشموع الدقيقة. وضع بضع دولارات في صندوق الصدقات وأشعل ثلاث شمعات: واحدة لفيديريكا والثانية لأنجيلا والثالثة لجولييت.

كانت تفوح في الكنيسة دائماً رائحة مميّزة هي مزيج من رائحة البهار والفانيلا، وهي رائحة كانت بالنسبة إلى سام بمثابة آلة للسفر في الماضي والعودة فجأة عشر سنوات إلى الوراء.

لم يكن ينتظر في قرارة نفسه غير هذا. تهيّأ له لفترة طويلة أنّه تغلّب على المحن التي عاشها في صباه، لكنّ الأمر لم يكن صحيحاً. فقد عاش منذ عشر سنوات بكيفيّة آلية، قضاها في الدراسة وممارسة الطب بلا كلل. قال في نفسه بغباء إنّه إنْ تمكّن من إنقاذ عدد من المرضى، سيشفى نهائياً من هواجسه وسيعيش بسلام، لكنّ الأمور لم تجرِ بهذا النحو: اختفت الكدمات، لكن الجروح ظلّت في مكانها، وهو لا يعرف كيف يداويها. كان بإمكان انتحار فيديريكا أن يجبره على مواجهة واقع ماضيه لكي يتخلّص منه على الوجه الأمثل. وعوض هذا، تجمّد في موقف الأرمل التعيس، إلى أن اعترضته نظرة أمل... لكنّ هذا اللقاء غير المتوقع بجولييت كدّرته كذبتها ثمّ نبوءات غريس كوستيللو المفزعة.

جلس سام على أحد المقاعد البسيطة المصطفة على جانبي الممرّ، واستسلم لذكرياته في ضوء الكنيسة المؤاسي.

وطفت على السطح نتف من الماضي كانت محبوسة في أعماق ذاكرته لتعود به إلى شهر آب/ أغسطس من سنة 1994.

إنّه الصيف الذيَ انقلبت فيه حياتهما رأساً على عقب...

*

إنها السنة التي أكملا فيها التاسعة عشرة. كان قد نجح هو وفيديريكا حتّى ذلك الحين في البقاء خارج دوّامات العنف بالحي رغم المصاعب.

تدبّر أموره بالمدرسة على أحسن ما يرام. وأمضى عاماً وهو يدرس العلوم بالجامعة. كان يقضي وقته بين الكتب، وأتت جهوده أُكلها: تقدّم على كلّ زملائه، وإن استطاع أن يحافظ على تفوّقه، أمكنه الالتحاق بأفضل مدارس الطبّ في الضفة الشرقيّة، لكنّه كان بحاجة إلى المال. كان حينئذٍ يستفيد من منحة متواضعة سينتهي صرفها في السنة الموالية. حصل إذن على قرض لمتابعة الدراسة، لكنّه لم يكن كافياً. دأب لمدّة أربعة عشر سنة على الاشتغال خلال مواسم الصيف، مدّخراً كل مليّم على نحو سرّي تقريباً لعلّه يجمع مبلغاً لا بأس به من المال. كان قد عثر على عمل في ذلك الصيف كنادل بأحد أفخم الفنادق المحاذية للمحيط يدعى أتلانتيك سيتي. وقد كانت مدينة اللعب تلك على بعد ساعتين ونصف من نيويورك ممّا جعله يقيم هناك، ولا يعود للقاء فيديريكا إلا مرّة كل أسبوعين، خلال عطلته.

أما سبيل فيديريكا فكان أكثر اضطراباً. أنهت تكوينها في أحد مدارس البستنة وهي تعمل نصف وقتها بالموازاة مع ذلك لدى أحد مربّي النحل من ماساشوستس، كان قد ثبّت عشرات الخلايا بحدائق ومنتزهات مانهاتن.

وهي إن كانت في الحقيقة لم تستهلك المخدرات قط، فقد كانت بالمقابل تُتاجر فيها بين الفينة والأخرى في فترات متقطّعة، وذلك حتّى تتمكّن من شراء ما تحتاجه أمّها من مخدّرات ودواء، لا سيّما وأن صحّتها كانت في تدهور مستمرّ.

كان سام قد اقترح عليها إقراضها بعض المال، لكنّها رفضت بإصرار جعله لا يلحّ عليها. حاول أيضاً أن يعيدها إلى رشدها محذّراً إيّاها من أن يكون لذلك عواقب سيئة، بل بلغ به الأمر أن كان يعطيها دروساً في الأخلاق: فهي تعرّض حياة الآخرين للخطر بتوزيع المخدرات مشاركة بذلك المهربين جرائمهم، لكن كلامه كان يذهب سدى. «لا تطلب منّي أن أترك أمّي تموت». كان هذا هو جوابها الوحيد الذي يضع حدّاً للمحادثة.

اكتفت لفترة طويلة بتوزيع بعض الكميات الصغيرة هنا وهناك خلال جولاتها على خلايا النّحل. ثمّ في بداية ذلك الصيف المشار إليه آنفاً، اشتدّ المرض على أمها، وكان عليها أن تخضع لعملية جراحيّة عاجلة ممّا كان يتطلّب دفع مبلغ كبير كتسبيق.

عندئذٍ ظهر على نحو مفاجئ داستفاس في حياتهما. كان هذا المهرّب العنيف يسيطر على جزء من الحي. وقد كان يضع عينه على فيديريكا منذ فترة. ذلك أنّ الفتاة كانت تملك جاذبية عجيبة شائعة لدى نساء أميركا اللاتينية، حتّى ولو كنّ يعشن في الفقر. إنّها مزيج من العزّة والسمو، وهي التي تفسر بلا شك عدم تعرّض الشرطة لها لمّا كانت تحلّ بالحي. وهذه الهبة هي التي جعلت داستفاس يفكّر في أمر: استعمال فيديريكا كوسيلة لتهريب الكوكايين للولايات المتحدة.

لو علم سام بهذا الأمر، لكان اعترض عليه بالطبع، حتّى ولو اقتضى منه ذلك استعمال القوة حفاظاً على صديقته. ومن سوء حظّه حدث ذلك في الفترة التي كان يشتغل فيها بأتلانتيك سيتي. استقلّت فيديريكا الطائرة إلى كاراكاس دون أن تخطره بشيء، وجلبت معها في رحلة العودة ثلاثين كريّة من الكوكايين ابتلعتها قبيل سفرها. كانت هذه اللحظة من أرهب لحظات حياتها القصيرة. قضت الرحلة بكاملها

وهي تصلّي، ينهشها الخوف من أن يتمزّق المطاط الذي يغلّف المخدر وينتشر في معدتها.

وما إن خرجت من هذا الكابوس حتّى أقسمت ألا تعود لهذا الفعل، لكن داستفاس ما لبث أن رجع إليها مقترحاً مهمّة أقلّ خطراً مقابل عمولة أكبر. كان عليها هذه المرّة أن تسافر إلى المكسيك وأن تعود بسيارة حشيت إطاراتها بالكوكايين.

ولسوء حظها، لم تستطع أن ترفض. فطارت إذن إلى مكسيكو حيث تلقّت سيارة تويوتا عادية مليئة بالغبار الأبيض. ولما اجتازت نقطة الحدود بتخوانا دون تفتيش، توجّهت إلى نيويورك مستعملة الطرق الأقلّ ازدحاماً، ومحترمة إشارات تحديد السرعة. إلى هذا الحدّ، سارت الأمور على أحسن ما يرام، لكنّ كان عليها أن تتّخذ الحذر، لأن الحظ كما يُقال لا يحالفك دائماً.

توقّفت في طريق باتون روج بإحدى المحطّات للتزوّد بالوقود والذهاب إلى المرحاض، لكنّها لما عادت إلى موقف السيارات، تفاجأت باختفاء العربة.

أهو سوء الحظ أم نصب؟ بالنسبة إليها لا فرق من حيث العواقب: لن تستطيع أبداً تسديد ثمن السلعة الباهظ، ووحش مثل داستفاس يستطيع أن يعذّبها، أن يستعبدها وقد يقتلها.

وأمام تعذّر العودة إلى بروكلين، استقلّت الحافلة إلى أتلانتيك سيتي لكي تنهار بين ذراعي سام.

لمّا سمع حكاية صديقته، أصابه الذهول. أخبرته فيديريكا بنيّتها في مغادرة عن نيويورك نهائياً، فحاول أن يقنعها بالعدول عن هذه الفكرة. لا يمكنهما أن يتخلّيا عن كل شيء بين عشية وضحاها، وإذا قبلا بالهروب اليوم، فسيقضيان كلّ حياتهما هاربين، لكنّه لن يتخلّى

عنها مهما كان. فهما مقتنعان تمام الاقتناع بأنّ مصيرهما واحد، وأنّهما إن فرّا سيفرّان معاً وإن مكثا سيمكثان معاً. هو ذاته ينبغي أن يلوم نفسه على كونه لم ينتبه لمَقدَم هذه الكارثة، لكن ألسنا نرفض رؤية ما نخشى رؤيته؟ قضت فيديريكا الليل كلّه وهي تعتذر لسام عن الزجّ به في هذه المطبّة، لكن وقت التراجع كان قد فات.

وفي الأخير قرّر سام العودة بمفرده إلى نيويورك، وظنّ بسذاجة أن الأمور ستنتهي إلى الحلّ تلقائياً. ترجّل من أوتوبيس كرايهوند بينما كان الليل يخيّم على الحي. ذهب أوّلاً إلى بيته ثمّ قرر أن يبحث بنفسه عن داستفاس. استخرج قبل ذلك الصندوق الحديدي الذي كان يودع فيه مدّخراته لتمويل دراسته. كان يحوي 6000 دولار تقريباً، وكان مستعدّاً لعرضها على داستفاس مقابل تخلّيه عن الانتقام من فيديريكا، لكنّه عرّج قبل ذلك على صديقه شايك باويل. لم يكن الصديق في بيته، وقد وجد سام ذلك أفضل. تسلّق واجهة البناية حتّى السطوح، ومن هناك تسلّل إلى أن بلغ نافذة غرفة صديقه، وهناك عثر على السلاح الذي كان يخبئه شايك خلف آجرة بالجدار، فيما يشبه خزنة سوّاها له أخوه قبل أن يمضي لقضاء عطلة في جزيرة رايكرز[1]. تثبّت سام من أنه ملقّم ثم وضعه في جيب سترته الداخلي. لطالما حرص على تجنب السلاح، لكنّه هذه المرّة خشي من أن تسير الأمور على غير ما يأمل.

وهذا يدلّ على أنّه لم يكن بالغ السذاجة...

*

---

(1) وهو سجن واقع على جزيرة بين كوينز ومنهاتن، مشهور بشدة العنف. (المؤلف)

- أما زلت مستغرقاً في أحلامك أيّها الابن الضال؟

أخرج الصوت الأجش الطبيب من ذكرياته، وجعله يجفل كما لو أنّه ضبط بصدد ارتكاب خطيئة. رفع بصره ليرى شايك باويل الذي دخل من توّه من باب بيت المقدّسات.

- شايك!

- مرحباً سام.

مهما بدا الأمر مستحيلاً، فقد صار شايك قسّاً، وخلف الأب هاثاواي. ذلك أنّ موت أخيه منتحراً بالسجن حطّمه، ولا شك أنّه وجد في الإيمان العزاء الذي كان بحاجة إليه.

تصافحا تبعاً لشفرة معقدّة كدأبهما في الأيام الخوالي، ثمّ تعانقا بحرارة. كان الأسود الفارع لا يزال قويّ البنية كلاعب مصارعة، وهو يرتدي سروال جينز باهت وجرزاية ملتصقة بعضلاته الضخمة. كانت لحيته قصيرة بيضاء تبدو أبرز فوق بشرته السوداء التي فقدت بريقها. لقد وهبت الطبيعة شايك قوة بدنية خارقة، ولا يستطيع سام أن يعدّ المرات التي حماه فيها من عنف الحي.

- كيف حالك؟

- أفضل من آخر مرة التقينا فيها.

لم يلتقِ الرجلان منذ عشرة أعوام رغم أنّهما ظلا يتّصلان عن بُعد. ذلك أنّ سام قطع كل صلاته بالحي بناء على نصيحة شايك في تلك الليلة الرهيبة، رغم أن ذلك حرمه من لقاء الصديق الوحيد الأقرب إلى نفسه.

قال سام معلقاً حتّى لا يغلبه التأثّر:

- كما لو أنّنا التقينا أمس.

- بدت لي هذه المدّة دهراً. لمّا التقينا آخر مرّة كنّا لا نزال فتياناً بينما أراك ترتدي اليوم زيّ رجل أعمال وتشتغل في مستشفى كبير.

- لك يد في هذا.

- كفاك هراء!

خيّم الصمت على الصديقين، ثمّ قال شايك:

- علمت بما حل بفيديريكا، وحاولت الاتصال بك هاتفياً مرّات عديدة...

- أعلم ذلك، توصّلت برسائلك، وقد واستني رغم أنّني لم أتصل بك.

ثمّ سأل شايك كما لو كان يتمتّع بحاسة سادسة:

- لديك متاعب يا رجل!

- ومَن ليس له متاعب؟

- هيّا، تعال وحدّثني عن ذلك ونحن نشرب فنجان قهوة. إنه منزل الرب، لكنّه بارد بشكل لا يطاق!

كان شايك يقطن بشقّة صغيرة نظيفة وأنيقة، واقعة خلف الكنيسة مباشرة. دعا سام للجلوس على أحد مقاعد غرفة الجلوس، ثمّ مرّ خلف الكونتوار لكي يهيئ كوبَي إكسبريسو على آلة قهوة عتيقة معدنية اللون، جديرة بمقهى إيطالي قديم. وعلى الرفّ اصطفت العديد من الجوائز التي فاز بها شايك في بطولات الملاكمة، لكن حتّى لا يبدو الأمر دعوة للعنف، وضع القسّ مقولة لشكسبير داخل إطار: «لا ينبغي غسل الدم بالدم، بل بالماء».

وضع كوباً من القهوة علته الرغوة وهو يقول:

- ذقْ هذا، وقلْ لي ما رأيك؟

- هل هو بنٌّ كولومبي؟

- بل جامايكي: بلو ماونتين. رائع، أليس كذلك؟

وافق سام بتحريك رأسه.

قال شايك وهو يومئ لقطعة من جريدة معلّقة على دعامة خشبية:

- انظر، لقد قصصتُ المقال الذي نشرته نيويورك تايمز عنك.

- يتحدّث عن المستشفى بخاصة، وليس عنّي أنا.

- أرى أنّك مولع بالتواضع...

هزّ سام كتفيه.

- تلقّيت أيضاً حوالاتك. خمسة آلاف دولار كل عيد ميلاد من أجل الأعمال الخيرية للأبرشية...

- إنّني أثق فيك: أنا واثق من أنّ ذلك المال صُرف في محلّه.

- نعم، ولكنك لست ملزماً لإرسال كل هذا المبلغ.

- إنّها طريقة لأداء ما عليّ من دين. لمّا رحلت من هنا مع فيديريكا، أقرضنا الأب هاثاواي مالاً.

- أعلم ذلك. قال لي مرّة إنه أفضل استثمار قام به طيلة حياته.

- لكن هذا المال كان مخصّصاً للفقراء...

لاحت ابتسامة خاطفة على وجه شايك:

- ألم يخطر على بالك قطّ بأننا كنّا نحن هم الفقراء آنذاك؟

فكّر سام لحظة في هذه الحقيقة ثمّ التفت نحو صديقه:

- يحدث لي شيء في منتهى الغباء يا شايك...

قصّ عليه سام إذن الوقائع الغريبة التي قلبت حياته رأساً على عقب في الأيام الأخيرة. أشار في البداية إلى لقائه العجيب بجولييت، وإلى ذلك الشعور بالرضا والكمال الذي غمره ومنحه الأمل في الإحساس بالحب من جديد، وفي إنشاء أسرة. كما حكى له عن هواجسه وتصرّفه الأخرق الذي منعه من الاحتفاظ بها، وقادها إلى

المتاعب مع القضاء بعد تحطّم الطائرة. إثر ذلك مضى يحدّثه بشيء من التوجّس عن لقائه بمفتّشة الشرطة تلك التي تدّعي أنها موفدة من السماء للقيام بمهمّة مريعة.

كان شايك باويل رجل العمل الميداني، قرّر أن ينذر حياته لمساعدة الأسر الفقيرة والشباب الذين يعيشون أوضاعاً صعبة. وبذلك لم تكن الميتافيزيقا هي مجاله، وكان يترك القضايا اللاهوتية لغيره. هذا فضلاً على أنه لم يكن شغوفاً بالخوارق، لكنّه مع ذلك أنصت باهتمام بالغ لكلام صديقه، وكان يعلم أن سام لم يكن صاحب رؤيا ولا شخصاً سريع التصديق. وقد صادف هو نفسه، خلال حياته كقسّ، مرّة أو مرتين أشياء مستعصية على التفسير. وحين حدث له ذلك، انحنى خاضعاً أمام هذا الشيء الذي يتجاوزه. لا شك في أنّ على المرء ألا يصرّ على فهم كل شيء. ومنّى نفسه بأنّ الأجوبة قد تأتي لاحقاً.

لكنّه بمقدار ما كان سام يتقدّم في سرد حكايته، كان ذهن شايك يزداد تشويشاً. ولمّا أخبره بالصفقة المريعة التي عرضتها عليه الموفدة، تضاعف قلقه.

لاذا بالصمت لفترة طويلة، ثمّ نطق شايك بسؤال ارتأى أنّ عليه أن يطرحه رغم علمه بالجواب:

- أما زلت لا تؤمن؟

- لا، أفضّل ألا أكذب في هذا.

- انظر، إنّ الربّ أحياناً...

لكن سام حاول تحويل مجرى هذا الحديث:

- اترك الربّ جانباً أرجوك.

ثمّ قام واقفاً وجلس على حافة النافذة، ولاح له من خلال

الزجاج ملعب كرة السلّة حيث لعب مراراً، واحتفظ منه بذكريات متباينة. ذلك أنّهم كانوا يتسلّون فيه أحياناً، وأحياناً أخرى كانوا يتعرّضون للاعتداء ممّن يكبرونهم ويفوقونهم قوّة وصلابة. ومهما يكن، فهو لم يسكب دمعة أمامهم أبداً، وكان يعد هذا شكلاً من أشكال الانتصار.

سأل سام صديقه وهو يلتفت إليه:

- ماذا عليّ أن أفعل في نظرك؟

تنهّد شايك.

- ما حكيت لي مقلق، لكن عليك ألا تخضع لابتزاز هذه الموفدة المزعومة.

- لكنّها تهدّدني أنا وجولييت.

- عليك أن تواجهها إذن، لكن دون أن تحشر جولييت في ذلك. عليك أن تحمي المرأة التي تحبّ يا سام.

- لست واثقاً من أنّني قادر.

- ما زلت تهوّن من قدراتك كعادتك...

- كلا، أتكلّم بجدّ. لست أعلم ماذا سأفعل.

قال شايك مقترحاً وهو يضرب يداً بيد:

- دعني أكلّمها. دعني أخيفها قليلاً...

- كلا يا شايك، لن ينجح الأمر هذه المرّة. هذه المرأة تعطي الانطباع بأنّها لا تخشى شيئاً.

- لا وجود لمن لا يخاف يا سام، صدّقني!

رافق القسّ سام إلى سيارته. كان الحي يستيقظ ببطء: البقالة الكورية تفتح أبوابها، حافلة مدرسية تقطع الشارع ببطء والحياة شرعت تدبّ عند فريسكو.

- أتعلم؟ لا يكاد يمرّ يوم دون أن أتذكّر ذلك المساء المشهود الذي مرّت عليه الآن عشر سنوات، لمّا. . .

قاطعه شايك:

- أعلم. سأتذكره كلّ يوم إن كان ذلك يواسيك.

- أأنت واثق من أنّنا اتّخذنا القرار المناسب؟

ولاحت في عيني القسّ مسحة من الكآبة:

- لا يمكن للمرء أن يكون واثقاً من أنّه اتّخذ القرار المناسب. هذا هو ما يضفي الرونق على الحرية التي منحنا الرب إيّاها.

أدار سام مفتاح تشغيل السيارة وأنزل زجاج النافذة:

- مع السلامة يا شايك.

- أخبرني بما استجدّ، ولا تتردّد في الاتصال بي إن احتجت إليّ. لا تنتظر عشر سنوات أخرى لكي تعود! الأمور تسير على نحو أحسن الآن، وليس ثمّة ما تخشاه هنا.

لم يكن سام واثقاً من ذلك.

شغّل المحرك ولوّح لصديقه قبل أن ينطلق.

لطالما طرح على نفسه هذا السؤال: ماذا كان سيقع لو أنّه لم يذهب للقاء داستفاس بسلاح في جيب سترته؟ ثمّ أأنقذ فيديريكا حقّاً ذلك المساء المشهود؟ أم أنّه لم يعمل إلا على تأجيل نهاية لا مفرّ منها؟

علم منذ ذلك اليوم أنّ الناس ينقسمون إلى فئتين على كل حال: من قتلوا شخصاً من جهة ومَن لم يقتلوا من جهة ثانية.

أما هو فينتمي إلى الفئة الأولى.

22

ها أنذا أُبعث أمامك ملاكاً يحرسك في الطريق، ويوصلك إلى المكان الذي هيأتُ لك.

الخروج 23، 20

كانت غريس تتجوّل في شوارع إيست فيلاج وقد وضعت حقيبتها على ظهرها. كثيراً ما كانوا يكلّفونها في بداية مشوارها المهني بالقيام بدوريّات في هذا الحي. لا تزال تذكر أنّه كان مكاناً نابضاً بالحياة يخالط فيه مهاجرو أوروبا الشرقية البانكس والراستاس والقوطيين. وعلى غرار باقي أرجاء مانهاتن، فالحي اليوم في طريقه إلى التبرجز رغم مقاومة بعض جيوب الفقر حول عمارات ألفابيت سيتي السكنية المخصّصة لذوي الدخل المحدود.

كان البرد قارساً، لكن شمس الصباح تبشّر بيوم شتاء جميل. توقّفت في إحدى المخابز لكي تشتري قهوة محمولة وقطعة من حلوى بلاك فورست. فالحياة الإنسانية حافلة ولا شكّ بالمغريات التي تصعب مقاومتها.

مشت جودي كوستيللو في شارع فيرست أفنيو باتجاه حديقة تومبكينز سكوار. يعرض العديد من الباعة على جانبي الشارع سلعاً زهيدة الثمن. تأكّدت وهي متوارية خلف البضائع المعروضة من خلوّ المكان من رجال الشرطة. لمّا ترغب في النشل، تستهدف السيّاح

على الخصوص لأنّ احتمال العثور على المال في حقائبهم أكبر، لكنّها وجدت نفسها في هذا الصباح في مكان غير آهل بالسيّاح، غير أنّ حضور الشرطة فيه ضعيف. لم تكن على خير ما يرام: فهي ترتعش وتشعر بألم في بطنها وبالكاد تستطيع المشي على قدميها، وكان عليها أن تتجنّب وضع نفسها في موقف حرج، كأن يلاحقها شرطي يريد التظاهر بالبطولة في الجري.

رمقت امرأة ترتدي سترة جلدية كانت تدير لها ظهرها، ذات قوام رياضي ويبدو أنّها لا تزال شابّة. كان الأمر محفوفاً بالمخاطر، لكنّها كانت تمسك كوب قهوة بيد وحلوى باليد الأخرى. ولعلّ حقيبتها الجلدية الرفيعة هي ما كان يشي على الخصوص بأنّها على قدر من الثراء.

قدّرت جودي الوضع جيّداً: أأقدم أم أحجم؟ يا إلهي، أأقدم أم أحجم... كانت تكره أن تقوم بهذا، إذ كانت تشعر بالحقارة، وتملّكها الخوف. أأقدم أم أحجم... لكن حاجتها إلى المال ماسّة لكي تشتري المخدّر. وشعرت بقطرات من العرق تسيل أسفل عمودها الفقري. أأقدم أم أحجم... وحسمت أمرها فجأة وبدأت تتأهّب: سأقدم.

شعرت غريس بذراعها الأيسر يُسحب إلى الأمام بعنف كما لو أنّه انخلع، وتطاير كوب القهوة في الهواء قبل أن يسقط على الرصيف، بل هي نفسها فقدت التوازن وسقطت على الأرض. لم تبصر من المعتدي سوى طيفه: إنّه امرأة أو بالأحرى فتاة تلبس معطفاً واقياً عسكرياً. لمحت أيضاً شعرها القرمزي وأظافرها المصبوغة بالأسود، بل إن نظريهما التقيا في لمح البصر، والتمع شيء فجأة في عيني جودي المنطفئتين: مزيج من الأمل والرعب، لكنّ موجة من

الارتياب سرعان ما طمسته. لم يدُم ذلك أكثر من ثانية، لكن اللحظة استطالت كما لو أنها تباطأت وتجمّدت إلى الأبد كشظيّة بلّور في ذهن كلّ منهما.

ثمّ تسارع كلّ شيء. استأنفت جودي عدوها وهي تشدّ الحقيبة المنشولة إلى صدرها، وتعالت الصيحات المندّدة حولها. أمّا غريس فقامت واقفة في لمح البصر وانطلقت في إثرها... كان شيء ما يشوّش ذهنها في هذه الفتاة، لكنّها لا تعرف ما هو. عبرت جودي الشارع وهي تحاذر من أن تدوسها سيارة، والتفتت خلفها لتتبيّن أنّ ضحيتها تطاردها. حاولت أن تزيد من سرعتها وأنفاسها تكاد تنقطع رغم أنّها لم تعُد تشعر بقدميها. وعبَرَت غريس بدورها الشارع تحت أبواق السيارات المتعالية لكي تلتحق بالجانب المقابل. كانت أسرع من الفتاة، وكانت تقترب منها شيئاً فشيئاً. شعرت جودي بمعدتها تنقلب: لو كان فيها شيء لكانت تقيّأته هناك في الشارع. كانت غريس تتدارك ما يفصلها عن غريمتها بعناد، لكنّها كلّما تقدمت إلا وزادت حيرتها دون أن تتمكّن من فهم سبب اضطرابها. خارت قوى جودي، لم تعُد تفصلها عن مطاردتها سوى بضع خطوات، وما إن بلغت الشارع الرابع عشر حتّى انعطفت شمالاً حيث توجد محطة مترو غير بعيدة. كان عليها أن تصمد لبضعة أمتار.

وهتف صوت رجولي:

– ها هي!

أدارت جودي رأسها قليلاً لتلمح شرطيين بزيّهما الرسمي يلاحقانها.

لمّا التقت نظرات غريس بعيني سارقتها للمرّة الثانية، شعرت بقشعريرة تسري في كلّ أوصالها. أدركت إذن سبب الاضطراب الذي

أصابتها به هذه الفتاة، وكان الأمر أبعد ما يكون عن الاحتمال بحيث أنّ فكرها رفض تصديقه.

اندفعت جودي وهي تكاد تموت خوفاً في مدخل محطة المترو، ونزلت السلّم الرئيس مسرعة ثمّ استجمعت قواها وتسلّقت السلّم الآلي وغريس والشرطيان في إثرها. لم ترد غريس أن تتخلّى عن المطاردة إذ دفعت العديد من المسافرين، ونزلت سلّماً متحركاً في الاتجاه المعاكس لكي تبلغ أخيراً رصيف المحطّة، ولمحت من جديد الفتاة فنطق لسانها عوضاً عن عقلها، وصاحت:

- جودي! جودي!

توقّفت الفتاة فجأة كما لو أنها أصيبت بصعقة كهربائية. التفتت ببطء، وتركت الحقيبة تسقط على الأرض وهي تشعر بقلبها يطقطق كما لو أن قنبلة انفجرت بداخله فتطايرت أشلاؤه. هذا الصوت وهذا الوجه...

وقفت المرأتان وجهاً لوجه مشلولتين ومعقودتي اللسان لا تفصل بينهما إلا بضعة أمتار.

بادرتها جودي بصوت متقطع:

- مامـ...؟

فتحت من جديد فمها دون أن تُصدر أي صوت، وراحت تنتحب نحيباً اهتزّ له كل جسدها. ومن جديد طالت اللحظة، وجرى الزمن ببطء. كانت لحظة تعارف واعتراف لطيفة تقع خارج الزمن والعقل.

ووصل المترو محدثاً ضجّة كبيرة وهبّة ريح كالزوبعة. وما إن توقّفت العربة، وخطت جودي خطوة لتقترب من غريس حتّى كان الشرطيان قد لحقا بهما، فارتمى أضخمهما بنية على المراهقة بكلّ ما أوتي من قوة، وهتف وهو يطرحها أرضاً:

- لقد أمسكت بها!

شلّ حركتها بسهولة، وقلبها على بطنها ولوى ذراعها إلى الخلف لكي يثبّت الأصفاد على يديها. وما إن كبّل اليد الأولى حتّى شعر بركلة قوية قطعت أنفاسه. وفي اللحظة التي استدار فيها نحو غريس وهو لا يدري ما وقع له، بادرته بلكمة أخرى على الوجه جعلته يفقد توازنه. قالت لابنتها بلهجة آمرة بينما كان الشرطي الثاني يستلّ هراوته:

- اصعدي إلى العربة!

بقيت جودي مسمّرة في مكانها من أثر الانفعال دون أن تفهم حقّاً ما يجري. كرّرت غريس لحظة سماع إشارة إغلاق الأبواب:

- اصعدي إلى العربة!

هوت الهراوة على قفاها مرّة ثمّ مرّتين، وقبل أن يُغمى عليها تهيأ لها أنّ ابنتها قفزت داخل إحدى عربات المترو.

وبينما كان المترو يتحرك، ألصقت جودي وجهها بزجاج النافذة لترى الشرطيين يسحبان أمّها عبر السلّم.

*

كان شايك باويل يشعر بالقلق، ولم يشأ أن يظهر ذلك أمام سام، لكنّ حكاية الموفدة بلبلت ذهنه، وظلّ سؤال يشغل باله.

هاتف مصلحة الإرشادات، وطلب الاتصال بمستشفى ماتيوس. كشف عن اسمه، وطلب الدكتور غالواي.

- شايك؟

- قل لي يا عزيزي، ما اسم المرأة التي حدّثتني عنها قبل قليل؟

- غريس كوستيللو، أيوحي لك هذا الاسم بشيء؟

أجاب القسّ كاذباً:

- كلا، آسف على إزعاجك.

سارع إلى إنهاء المكالمة خشية أن يطرح عليه صديقه مزيداً من الأسئلة.

ردّد: غريس كوستيللو، إنّه الاسم الذي كان يخشى سماعه، لكن، كيف يمكن ذلك؟ شعر شايك بدقات قلبه تتسارع، وأحسّ بضيق في التنفس. نزل سلّم شقّته مترنّحاً حتّى بلغ ملعب كرة السلة.

غريس كوستيللو! أعليه أن يخبر سام؟ فكّر لحظة في هذه الإمكانية، لكنّه لم يستطِع أن يحسم الأمر. ودخل إلى الكنيسة وقد أوشك على اليأس، وأومأ بيده راسماً رمز الصليب. ظلّ لسنوات يراهن على وجود ربّ متفهّم رؤوف ليحافظ على إيمانه، لكنه ماذا يعرف في العمق عن طبيعة الذات الإلهية؟ من المؤكّد أنّ الربّ الذي كان يناجيه ودود كريم، لكن، ألهذا الربّ وجود حقيقي خارج ذهنه؟

*

استيقظت جولييت وهي تنعم بفراش مريح لا علاقة له بما عاشته في الزنزانة خلال الأيام الثلاثة الأخيرة. سحبت فوقها الغطاء الناعم الدافئ قبل أن تلقي نظرة على الساعة وتقوم مذعورة: إنّها الثامنة والنصف، ومصالح الهجرة ضربت لها موعداً على الساعة العاشرة لتجتاز الفحص الطبي اللازم لتمديد فترة تأشيرتها. فالأمر يتعلّق بلقاح تأخّرت عن القيام به.

قفزت من الفراش وهاتفت شركة سيارات أجرة، ثمّ راجعت مواعيد القطار. بإمكانها أن تكون هناك في الموعد، لكن شريطة أن تسرع.

وبينما هي تُسارع للاستحمام، عثرت على الكلمة التي تركها سام على الوسادة، قرأتها باستمتاع مرّة ومرتين وثلاثاً.

خرجت إلى الشاطئ متدثّرة بغطاء لتستقبلها السماء والبحر والريح. تلذّذت باللحظة وقد راقَ مزاجها بسعادتها الطارئة، ومضت تستعيد شريط ساعاتهما الأخيرة بابتهاج.

كان هواء البحر بارداً، لكن ليس إلى درجة منعها من التشقلب على الرمل.

شعرت بنفسها جميلة ورشيقة، ووجدت الحياة رائعة.

*

لمّا فتحت غريس عينيها، وجدت نفسها مربوطة إلى الباب الخلفي لسيارة شرطة، فصاحت بهم:

- هيه! تمهّلوا! إنّني بنت الدار!

استدار أحد الشرطيين ورمقها شزراً وهو يضع على أنفه خرقة مطلية بالدم...

- إنّكم ترتكبون حماقة أيّها الرجال. أنا مفتّشة شرطة بالمقاطعة 36.

فردّ السائق:

- طيّب، وأنا أمّي هي بريتني سبيرز!

- فتّشوا في جيبي الداخلي وانظروا...

فتّش الشرطي ذي الوجه المجروح بوثوق في جيب سترة غريس، فعثر على شارة NYPD، فصاح السائق وهو يضغط فجأة على دواسة الفرامل:

- اللعنة!

ناور وركن السيارة وسط طريق ليكسينغتون، وسأل متحيّراً:

- وما شأن تلك الفتاة إذن؟

فقالت غريس موضّحة:

- إنّها من مخبراتي!

- رغم أنّها خطفت حقيبتك؟

- تظاهرت بذلك فحسب!

- تظاهرت؟

- اسمعوا يا رجال، لا تسعوا لفهم كل التفاصيل، مفهوم؟

- وكنتِ بحاجة إلى تهشيمنا بهذا النحو؟ كدتِ أن تكسري أنفي!

هزّت غريس كتفيها:

- كان من اللازم اللجوء إلى التضليل لتصليح غلطتكما.

قال السائق مبرّراً وهو يفكّ قيدها:

- لم نقم إلا بواجبنا. لقد انخدعنا بالمظاهر.

- لا بأس! هيّا صلّحا غلطتكما وأوصلاني إلى حيث أريد.

- إلى أين تريدين الذهاب؟

أجابت وهي تفرك رصغيها:

- إلى مستشفى ماتيوس.

*

كانت مرافق مركز جون كينيدي الصحّي موجودة ببرج من المعدن والزجاج واقع بتقاطع بارك أفنيو والشارع 52. اندفعت جولييت داخل البناية مسرعة. كانت متأخّرة عن الموعد بربع ساعة، لكن لا بأس، فلن يعيدوها إلى السجن بسبب ذلك.

بالرغم من أنّ المرء لا يمكن أن يكون واثقاً من شيء هنا. . .

حدّقت بإعجاب في القبة المتعالية فوق باحة المدخل ذات الطراز البيزنطي، والمكسوّة بأوراق الذهب والفسيفساء. هذا ما كان يعجبها أكثر في نيويورك: حتّى وإن كان المرء يعيش هناك لسنوات، نادراً ما يمرّ يوم لا يكتشف فيه رائعة من الروائع لا علم له بها.

استقلّت المصعد إلى الطابق الثالث والثلاثين وقد عزمت على العودة إلى هناك بعد الفراغ من هذا الإجراء لتتأمل القبة بتأنٍّ.

قدّمت استدعاءها لمصلحة الاستقبالات، فطلبوا منها الانتظار قبل أن يدخلوها إلى رواق تفوح منه روائح المستشفى. كانت جولييت لا تزال حالمة، ولم تفلح حتّى الألوان الكالحة والباردة كالحديد في أن تكدّر مزاجها. كانت تفضّل بالطبع لو أنّها في مكان آخر. فقد كانت جدّة أمّها، التي جاوزت الخامسة والتسعين وهي بصحّة جيدة تردّد: تجنّبي الأطباء إن أردت الحفاظ على صحّتك، وهي النصيحة التي ما زالت جولييت تعمل بها إلى الآن.

سأل رجل بوزرة بيضاء:

- السيدة بومان؟

- أنا هي.

- أنا الدكتور غولدواين. إن كنت موافقة، سنبدأ.

تبعته إلى أن بلغا غرفة عارية الجدران وبالغة الطول. كانت الزيارة عبارة عن فحص سريع. جدّدوا في البداية لقاحاتها، وأخذوا عيّنة من دمها، ثمّ أجابت بعد ذلك عن بضع أسئلة تتعلّق بسوابقها الصحية وسوابق عائلتها. وفي الأخير تنصّت الطبيب على دقات قلبها. ولكي تخفّف من وطأة الموقف، قالت بنبرة متوسّلة:

- لا تذكر السرطان اليوم من فضلك: فأنا عاشقة.

لكن الطبيب لم يردّ حتّى بالابتسام. فقد كان المركز الصحي يعالج الناس بالجملة، وإذا كنت تنتظر قليلاً من الدفء الإنساني، فحريّ بك أن تطرق باباً غير هذا.

- انتهينا يا آنستي.
- أأستطيع الانصراف؟
- بالطبع، اتركي لنا عنوانك، وسنوافيك بكشف كامل، إلا إذا كنت تفضلين انتظار النتائج؟
- هل يلزم الانتظار طويلاً؟
- نصف ساعة.
- سأنتظر.

الأولى إنهاء هذه الحكاية مرّة واحدة. رَجوْها أن تنتظر بقاعة انتظار معقّمة. اشترت كوب قهوة من موزّع آلي ووقفت طويلاً عند النافذة تنظر إلى انعكاس ناطحات السحاب المحيطة ببارك أفنيو. كان زجاج كل بناية يعكس السماء والبنايات المحيطة به بشكل أشبه بعلبة مرايا. ووجدت جولييت هذا رائعاً ومرعباً في الآن نفسه، لأنّها ربّما شعرت بنفسها ضئيلة وضعيفة وفانية.

أشعرتها القهوة بالغثيان. مزّقت الكوب الكرتوني وهي تتساءل: لماذا انتابتها فجأة هواجس حول حالتها الصحية؟

كان الأمر سخيفاً. فهي بحالة صحية جيدة، وبوسعها أن تشارك في مارتون نيويورك أو تصعد على قدم واحدة السبعة آلاف درج في مبنى الأمباير ستيت بيلدنغ. طردت هذه المخاوف من ذهنها بالتفكير في أشياء أكثر تفاؤلاً. فبمجرّد ما ستخرج من هنا، ستمرّ على سام لتقبّله. لا شكّ في أنّه يتوقّف عن العمل فترة الزوال، وسيكون بوسعهما أن يذهبا إلى بارينت بارك ليستريحا قليلاً.

انفتح باب الحجرة لتلوح منه ممرّضة.

- نتائج تحليلاتك بين يدي الدكتور غولدواين يا آنسة بومان، اتبعيني من فضلك.

*

ظلّت جودي تلصق جبينها بزجاج النافذة طيلة الرحلة. تتابعت مناظر نفق المترو أمام عينيها بسرعة مذهلة. لم تعد تعرف فيمَ تفكر بعد أن توزّعها الشدوه والإنهاك. لا شكّ في أنها ستجنّ. كيف ستفسّر ما تهيأ لها من رؤية أمّها؟

إنّها لا تمنّي نفسها بالأوهام، فهي تعرف جيّداً أن غريس ماتت ودفنت منذ عشر سنوات. وكلّ ما رأت لا يعدو أن يكون من أثر ذلك المخدر اللعين، ضرباً من الهلوسة التي شوّشت عقلها.

ومع ذلك بدا لها الأمر في منتهى الواقعية. فأمّها تبدّت لها كما هي تماماً في ذاكرتها: في العمر نفسه، والهيئة نفسها، والصوت الحنون المطمئن نفسه. كانت صور هذا اللقاء الغريب تتعاقب في ذهنها كما لو جرى تبطيئها بينما كان طنين عنيف يتردّد في رأسها على نحو متزايد. وكان ثمّة سؤال يلحّ عليها: كيف عرفت هذه المرأة اسمها ولماذا حمتها من الشرطيين؟ لا تملك جودي أيّ جواب، بل أكثر من ذلك لم تكن متأكّدة تماماً ممّا رأت، لأنّها منذ أن صارت تستعمل المخدرات، لم تعُد متيقّنة من شيء.

نزلت الفتاة بمحطة أونيون سكواير واستقلت المترو المتّجه شمالاً. وفي العربة التي ركبتها في طريقها إلى برونكس، خفض أحدهم عينيه ليلمح الأصفاد المتدلية من رسغها، فدسّت يدها في جيبها لإخفائها.

راحت تبكي والدموع تسيل على خديها، ولم تستطع كفكفتها. لم تشعر قطّ بمثل ما تشعر به الآن من ضعف ووحدة.

*

دفعت جولييت باب مكتب الدكتور غولدواين.

- اجلسي يا آنسة بومان.

جلست أمامه، وقد ظهر بمظهر الطبيب الذي يعرف شيئاً عن مريضه لا يعرفه هو، ممّا يمنحه سلطة عليه.

سألت جولييت حتّى تضع حدّاً لهذه المسرحية.

- ماذا يا دكتور؟

مدّ الطبيب للمرأة الشابة ورقة واحدة: نتيجة التحليلات الطبية. خفضت جولييت رأسها، لكنّها لم تبصر غير سلسلة من الأرقام المتراقصة أمام عينيها.

- سألت بنبرة تجمع بين الجدّ والخوف:

- سأموت قريباً؟

- كلا، بالعكس...

- بالعكس؟

- إننا نقوم باختبار الحمل لكلّ مريضاتنا اللواتي يكنّ في سن الإنجاب...

- و...؟

- أنت حامل يا آنسة بومان.

23

لسنا مصنوعين إلا من أولئك الذين نحبّهم،
ولا شيء غيرهم.

كريستيان روبان

مستشفى سان ماتيوس

- غير مسموح بالدخول إلى هذه المنطقة يا سيّدتي!

التفّت غريس كوستيللو على مكتب الاستقبال بمصلحة الطوارئ، واقتربت من الجدول الذي يلخّص توزيع مهامّ الموظفين لتبحث عن اسم سام، وإذا بحارسين فارعين ينبّهانها:

- هذا المكان مخصّص للموظفين!

كانا يهمّان بالقبض عليها، وقبل أن يمسكا بتلابيبها لوّحت أمام أعينهما بشارتها العجيبة.

- أنا من البوليس! أبحث عن الدكتور غالواي، الأمر في غاية الاستعجال.

بحثت «كوني» في الجدول وقالت:

- اصعدي إلى الطابق الثاني، الغرفة 203.

صعدت غريس الأدراج أربعة أربعة، وتوقّفت في القاعة التي كان ينهي فيها سام تضميد صبيّ حاول أن يقلّد في بيته بعض الحركات

الخطيرة التي شاهدها في سلسلة جاكاس[1].

وما كاد يراها تدخل عليه حتّى رفع بصره إلى السماء، لكنّ غريس لم تترك له الوقت لإبداء غضبه:

- أنا بحاجة إلى مساعدتك يا غالواي.

تطلّع إليها باهتمام أكبر وقد فاجأه طلبها. سألها وهو يومئ إلى الكدمات الناتجة من الضربات التي تلقّت.

- لا تشكّل خطورة.

- لكنّك تنزفين...

رفعت غريس يدها لتتحسّس حاجبها وقد علتها الدهشة: كان الدم يسيل على صدغها من جرّاء اصطدام رأسها بالأرض لمّا ضربها الشرطيان، لكن لم يخطر ببالها أنّها جرحت.

ولمّا أنهى سام علاج الصبي، اقترح عليها قائلاً:

- اجلسي لأضمّد جرحك.

نزعت غريس سترتها وجلست على الكرسي، فتناول سام ضمّادة وشرع ينظّف الجرح.

- من شجّك هكذا؟

- شرطيان، لكن ينبغي أن ترى ما فعلت بهما.

لم يستطع سام أن يمنع نفسه من الابتسام أمام حميّة الكبرياء هذه، وفهم عندئذٍ لماذا لم يجرؤ رونيللي على البوح بمشاعره لهذه المرأة المسيطرة المعتزّة بنفسها.

- لا داعي لأن تتظاهري بالصلابة أمامي.

---

(1) برنامج أثار كثيراً من الجدل عرضته قناة MTV، وهو يقدم ثلاثة أصدقاء يقومون في حياتهم اليومية بأعمال خطيرة. (المؤلف)

- حسناً. جئتك لأنني بحاجة إليك، لكن لا تنتظر أن أركع أمامك.

- فيمَ ستفيدك مساعدتي؟

- لكي أعثر على ابنتي.

تغيّرت نبرة صوتها بشكل لا يكاد يُلحظ، وتهيّأ لسام أنّه لمس في صوتها شيئاً من الضعف.

- أرأيت ابنتك؟

- كان ذلك بشكل غير مقصود: حاولت أن تنشل منّي حقيبتي قبل نصف ساعة.

قال وهو يتنهّد:

- بالطبع، يا لها من أسرة!

نظرت إليه مؤنّبة:

- أتحدّث بجدّ يا غالواي. أنا قلقة حقّاً. رأيت في عينيها ذلك الشيء...

- قطّب حاجبيه:

- ما هو؟

- ... تلك المسحة الحزينة القلقة التي تُرى في عيون المدمنين على المخدّرات.

- ولكن كيف أمكن أن تلتقيا صدفة؟

قصّت عليه بتفصيل ظروف لقائها العابر مع جودي في ذلك المكان، فلم يستطِع أن يخفي تأثّره.

ثمّ اقترح عليها:

- لماذا لا تحاولين التحدّث إليها؟

تنهّدت وهي تقول:

- لأنني ميّتة يا غالواي. كنت أظنّ أنّك ستفهم هذا الأمر مع مرور الزمن.

فردّ وهو يتفحّص الجرح بعد تنظيفه:

- يا له من جرح، ينبغي أن يُغرز. سأضع غرزتين.

وبينما كان يهيّئ لوازمه، استرسلت غريس:

- أرغب في أن تساعدني في العثور على جودي وفي أن تُكلّمها.

- ماذا سأقول لها؟

- أنا واثقة من أنّك ستجد ما تقول لها.

- ولماذا أنا بالضبط؟

- ... لأنك طبيب وهي بحاجة إلى علاج... ثمّ ليس لي أحد سواك يا سام. فأنا ميّتة بالنسبة إلى الجميع، وعليّ أن أبقى كذلك. لا يحقّ لي التدخل في حياة الناس مهما كانت الذريعة.

رفعت عينيها إليه. كان يمتزج في نظرتها الأمل بالخوف من الرفض. ولبضع ثوانٍ، تغلّبت المرأة في غريس على مفتّشة الشرطة، فتأثّر سام لهذا الخليط من الصلابة والأنوثة، لكن غريس قالت وهي تصرخ:

- آاي! إنك تؤلمني، أتتعمّد هذا؟

- نعم، أستمتع برؤيتك تتألّمين.

- يسعدني إذن أن أمنحك هذه الفرصة لتستمتع، إلا أنني أنتظر منك الآن جواباً: هل ستساعدني أم لا؟

ودون أن يجيب سام عن السؤال مباشرة، استرسل في الاستخبار:

- أين تقطن ابنتك الآن؟

- لو كنت أعلم لما لجأت لك.

- أنتِ هي البوليس، أمّا أنا فمجرّد طبيب.

لم تجب بشيء. استغرق في التفكير لبرهة قبل أن يضيف:

- إن شئنا العثور على جودي، أظنّ أنّنا سنكون بحاجة إلى أحدهم...

قطّبت غريس حاجبيها، وأخرج سام من حافظة نقوده البطاقة التي سلّمه إياها روتيللي، وقدّمها لغريس، فكانت ردّة فعلها عنيفة:

- دع مارك بعيداً عن هذه القضية من فضلك.

- اسمعي، قلت لي إنّك رأيت أصفاداً عالقة بيد جودي. هذه جزئية لا يمكن التغاضي عنها. قد يخبر أحدهم الشرطة بذلك، فينتهي الأمر إلى علم روتيللي.

- ليس بالضرورة. أنت تعرف أنّهم قهقروه...

فقال سام ملحّاً:

- لو أخطرناه، أنا على يقين بأنّه سيساعدنا بشكل من الأشكال. لقد كان مفتّشاً بارعاً، أليس كذلك؟

فردّت غريس على الفور:

- أفضل مفتش على الإطلاق.

- دعيني أتّصل به إذن، ونحن من جانبنا لن نمكث مكتوفي الأيدي.

ظلّت غريس متردّدة، لكن سام حاصرها.

- هذا الشخص هائم بك يا كوستيللو، وأنا أظنّ أنّك لا تجهلين ذلك.

لم تُجب غريس بُشيء، لكن شيئاً ما برق في عينيها. ليس دمعة، بل مجرّد بريق ملوّن بالحنين والأسف.

واصل سام كلامه:

- جعل موتك، شيئاً ما يخبو إلى الأبد في روتيللي.

- أتظنّ أنني لست عالمة بذلك؟ لا داعي لنكئ الجراح وإشعاري بالذنب. أذكّرك بأنّني قُتلت، وأنا لم أختر مصيري!

نظر إليها سام بإشفاق. ولأوّل مرّة بدت له غريس إنسانة ذات مشاعر. ممّا لا شك فيه أنّها لا تختلف عنه كثيراً، ولو أنّهما التقيا في ظروف مخالفة، لربّما نشأت بينهما صداقة وثيقة. وتبادر إلى ذهنه سؤال:

- من قتلك يا غريس؟ أتعرفينه؟

ظلّ السؤال معلّقاً في هواء المستشفى الدافئ لبضع ثوانٍ إلى أن انفتح الباب ولاحت منه جانيس فريمان بصحبة أحد المرضى.

- ظننت أنّ لا أحد بهذه الغرفة...

فردّ سام:

لقد أنهيت، لكنّني بحاجة إلى يوم العطلة الذي طلبته منك.

فقاطعته جانيس:

- لا يخطرنّ ذلك على بالك، فقاعة الانتظار غاصّة، ولا داعي لتذكيرك بأنّك استفدت من نصف يوم بالأمس...

- لم أطلب منك يوم عطلة منذ أن التحقت بالعمل هنا قبل عامين!

- ما عليك إلا أن تستمرّ في مواظبتك.

فقال ملحّاً:

- الأمر بغاية الأهميّة.

- قلت لك لا يا غالواي، لديّ مصالح يجب أن أسهر على سيرها.

فرغ صبر غريس التي اعتادت على الأساليب الفظّة، فتدخّلت وهي تتطلّع إلى رئيسة المصلحة البدينة:

- أنا ضابطة من بوليس نيويورك. نحن بصدد التحقيق في قضيّة خطيرة وبحاجة إلى مساعدة الدكتور غالواي.

*

نزلت جودي من المترو بإحدى محطات ساوث برونكس. كانت شفتاها ترتعشان وجبينها ملتهباً. كانت تشعر بنفسها ضعيفة بحيث قرّرت أن تتوجّه مباشرة عند سيروس رغم علمها المسبق بأنّها ترتكب حماقة. فهي لا تملك مالاً، وهو لن يتردّد في العودة إلى مراودتها على نفسها، لكن لا خيار للمدمن بما أنّه يفقد السيادة على نفسه. يصير المرء عبداً للمارد الداخلي الذي يفترس أحشاءه ويعذّبه بلا هوادة. وهو أمر لا دخل للإرادة والعقل فيه.

عبرت جودي الساحة المحاطة بالبنايات العتيقة ذات الجدران المليئة بالرسوم والخربشات، ثمّ اختصرت الطريق بالمرور عبر مكان خالٍ مطوّق بالأسلاك الشائكة. لقد تمّ تجديد بعض الأماكن منذ بضع سنوات بفضل أموال عمومية، لكنّ ذلك لم يشمل منطقة هايد بيرس. كان يحلو لوسائل الإعلام أن تطري على الطابع الخلاق لهذا الحي، والمجهودات التي يبذلها سكانه لإشاعة الأمن، لكن جنوب برونكس بقي مع ذلك من بين أكثر مناطق البلد فقراً. ومعظم الناس الذين يعيشون فيه لم يختاروا العيش هناك طوعاً. وإذا قيض لك أن تقوم بجولة في المدينة، فحريّ بك أن تختار مكاناً آخر غير هذا. بلغت أمام الجناح الذي يقطن به سيروس كما لو كانت قوة مغناطيسية تجذبها. على واجهة البناية يظهر رسم قاتم يمثّل سجيناً خلف القضبان

ينظر إلى حمامة وهي تطير. وفي أسفله رسمت عبارة محذّرة: «غياب الأمل هو الجحيم»، وهو شعار جميل لم يمنع أحداً يوماً من تناول المخدرات...

لمّا اقتحمت جودي السلّم، التقت بإحدى زبونات سيروس، وهي امرأة أشبه بالشبح، هزيلة تكسوها الندوب. لعلّها كانت أنثى في يوم من الأيام، لكن لم يفضُل من أنوثتها الآن شيء. وسمعت هاتفاً بداخلها يقول: اسمعي، ما زال أمامك وقت لكي تُحجمي عن الصعود... كان همساً بغيضاً، صوتاً هازئاً يلتذّ بألمها، ولم تستطِع إخراسه، لكن الأمر كان هكذا: الشعور بالذنب هو أيضاً جزء من العذاب. وسمعت الصوت يقول: لعلّك خائفة، أليس كذلك؟

أجهدت جودي نفسها حتّى لا تنصت له. صعدت أدراج السلّم كالآلة محاولة ألا تفكر في شيء. هي لا تملك القدرة على المقاومة على كلّ حال. كانت تشعر بالبرد، برد شديد حتّى إنّها تمنّت لو تلتفّ في غطاء وتغطّ في نوم أبدي، لكنّ الصوت لم يترك لها مهرباً: أنت مستعبدة، أتدركين ذلك؟ عبدة قذرة مدمنة على المخدرات.

بلغت أمام باب شقّة سيروس، وسمعت تلك الموسيقى المزعجة التي كانت من الارتفاع بحيث يهتزّ لها الباب.

تظنّين أنّك تألّمت بما فيه الكفاية، أليس كذلك؟ لكنّك إن دفعت الباب ودخلت، فستقومين بخطوة أبعد في الظلمات.

توقّفت جودي لبضع ثوان، كما لو أنّها أرادت أن توهم نفسها بأنّها لا تزال سيّدة مصيرها.

وسمعت الصوت يأمرها: هيّا، ادخلي! لكن الأمر سيكون أدهى ممّا تتصوّرين، صدّقيني!

ودّت لو كان بإمكانها أن تضغط على زرّ لإيقاف آلامها،

وشعرت بساقيها يتأرجحان، واستجمعت قواها ثمّ طرقت الباب:

- هذه أنا، يا سيروس!

سمعت صوت قفل يُفتح، ثمّ شعرت بنفسها تغور في الشقة كما لو أنها تسقط في هاوية.

*

صعد سام وغريس جنباً إلى جنب الشارع المحاذي للمستشفى. كان سام مستغرقاً في مكالمة هاتفية مع روتيللي. كان يريد أن يعرف منه ما إذا كانت لديه أخبار عن جودي.

سأله روتيللي بارتياب:

- فيم يعنيك هذا؟

- لأنّني أظنّ أن جودي في خطر.

- مضت عشر سنوات على هذه الصبية وهي في خطر: منذ أن فقدت أمّها.

ورانت على نظرة غريس التي كانت تتابع المكالمة مسحة من الحزن.

سأل سام:

- أتعرف مقرّ سكنها؟

- فرّت من ملجأ للشباب المنحرف منذ ستّة أشهر. ومنذ ذلك الحين، من المستحيل تحديد المكان الذي تستقرّ به. أبصروها مؤخّراً بناحية برونكس ساوث، لكنّني لا أتوفر على عنوان محدّد، ومن الصعب القيام بدوريات هناك والاعتماد على الحظ والصدفة للعثور عليها.

- اسمع، كاد شرطيان هذا الصباح أن يلقيا القبض عليها.

- أين؟

- بحي إيست فيلاج. استطاعت الإفلات منهما، لكنّ أحدها كان قد شرع في تصفيدها.

- اللعنة! كيف عرفت كلّ هذا؟

- لا أهميّة لذلك، يا روتيللي.

- ألَقيتها من جديد؟

- من؟

- تلك المرأة التي تتنكّر في صورة غريس، هل لقيتها؟

استفسر سام غريس بعينيه، لكنّها هزّت رأسها، وأومأت له بأن يُنهي المكالمة.

- أنا مضطر لقطع المكالمة يا روتيللي. هاتفني إن توفرت لك أخبار.

*

كان التاكسي عالقاً في زحمة المرور ممّا جعل صبر جولييت ينفد. طلبت من السائق أن يتخلّى عنها أمام موراي هيل. سيكون بإمكانها أن تمشي بسرعة أكبر، وسيساعدها الهواء البارد ربّما على تجلية أفكارها.

لم تتمكّن من تهدئة نفسها وهي لا تزال تحت وقْع مفاجأة الحمل. فإذا كان قلبها يطالبها بأن تعيش هذه اللحظة السعيدة بكلّ ما أوتيت، فإنّ عقلها كان يحذّرها من الإغراق في الحماس.

تذكّرت من جديد كلّ ما عاشته في الأيام الأخيرة. هناك لحظات نشعر فيها بأنّ كلّ شيء في الحياة يتسارع. فهذا الجنين نشأ منذ

أسبوع، في ليلة ثلجيّة عاصفة، مع رجل لم تعرفه إلا قبل ذلك بساعات.

حاولت تنظيم أفكارها. هل هذه هي اللحظة المناسبة للإنجاب؟ من المؤكد أنّها ليست كذلك. لكن، هل هناك حقّاً لحظة مناسبة؟ كانت دائماً تقول في نفسها إنّ اللحظة المثلى لذلك هي حين تحصل على عمل قارّ وشقّة بملكيتها، وتكون على علاقة برجل. ولكن، لماذا لا تنتظر نهاية المجاعة بأفريقيا، أو ظهور مسيح جديد؟

كانت مفلسة بالطبع، ولم تكن حياتها نموذجاً للاستقرار. والعالم بالطبع مضطرب، والكوكب يرزح تحت التلوّث، ولكن أيّ معنى سيكون لحياة هذا العالم بلا أطفال؟

كان يتردّد في ذهنها سؤالان اثنان. هل ستخبر سام بحملها؟ وإذا كان الجواب بالإيجاب، كيف سيكون ردّ فعله؟

كادت سيارة كانت تشقّ طريقها في الزحمة وقد أطلقت العنان لبوقها، أن تدوسها، وأوسعها السائق شتماً. وحتّى لا تنتهي مسحوقة تحت العجلات، فتّشت في حقيبتها وأخرجت نظارتها الطبية. وما كادت ترتديها حتّى أبصرت سام في الجانب الآخر من الشارع.

تسارعت دقات قلبها. همّت بمناداته والتلويح له لمّا تنبّهت إلى أنّ امرأة ترافقه. لم تميّزها بوضوح في البداية، ذلك أنّها كانت تواجه شمس الزوال. تنحّت قليلاً إذن لتلمح غريس بجلاء. بدت لها امرأة سمراء طويلة القامة ورشيقة، تنتعل حذاء طويلاً ذا كعبين عاليين. ويظهر ساقاها المستدقّان من خلال سروال جينز، كما أنّها تلبس سترة جلدية على مقاسها تماماً، ممّا يمنحها قدّاً جذاباً ورائقاً. ولكي لا يلحظ سام وجودها، أعرضت عن عبور الشارع، وتوارت خلف واجهة أحد محلات الكعك.

مَن هي هذه المرأة يا ترى؟ أهي زميلته في العمل؟ صديقة؟ عشيقة؟

في غضون ثانية تبخّر كلّ ما شعرت به من بهجة الحمل، لتكتسحها كآبة مفاجئة.

رغم ما بذلت من جهد، لم تستطِع تحويل بصرها عن تلك التي بدأت تعتبرها غريمتها. كان يبدو كما لو أنّ العلاقة بينهما تقوم على ضرب من الألفة الغريبة. كانا يتحدّثان معاً بنوع من الطلاقة والحيويّة، وفي لحظة من اللحظات أمسكت المرأة بمرفق الطبيب لتدعوه للدخول إلى أحد المقاهي. وبما أنّهما جلسا إلى طاولة قرب المدخل، كان بوسع جولييت أن تواصل مراقبتهما من خلال الزجاج.

غريبة هي الكيفية التي تسرق بها هذه المرأة الأضواء. كانت متألّقة، تنطوي على شيء يتعذّر الإمساك به. فيها شيء من كاترين زيتا جونز[1]، لكن دون أن تفقد عفويّة الفتاة العادية التي تبعث على الثقة. كانت جولييت واثقة من أنّها نيويوركية حقيقيّة على كلّ حال. تصوّرت أنها ذات شخصية كاريزمية قويّة، وأنّها من أولئك النساء اللواتي يستطعن التحكّم في مصائرهن.

وفي غضون لحظة تساءلت عن سبب شعورها بذلك الغضب والإحباط. ربّما لأنّ هذه المرأة «أفضل منها»: أطول وأجمل وأكثر رضاً على نفسها. هكذا أيقظت رؤيتها مع سام كلّ شكوكها في قدرتها على الإغراء.

أهي الغيرة؟ إنّه شيء مؤلم على كلّ حال. تمنّت لو تثق في سام وهي تعلم يقيناً أنّ ما ينقصها هي الثقة في نفسها.

---

(1) Catherine Zeta-Jones ممثلة بريطانية ولدت سنة 1969. (المترجم)

لكي تطمئن نفسها فكرت في الرسالة التي سجّلها لها، وفي الكلمة التي تركها لها هذا الصباح، وفي الساعات الأخيرة المفعمة بالحبّ التي قضياها معاً.

لكن كلّ ذلك لم يستطِع تهدئة عذابها.

*

كان سام وغريس جالسين إلى مائدة قرب النافذة وهما يفكّران فيما يمكن فعله للعثور على جودي.

- إن كانت ابنتك تتناول المخدرات، فلا شكّ أنّها تردّدت على مستشفى أو مراكز من مراكز علاج المدمنين.

- أتظنّ ذلك؟

- تستقبل مصالح الطوارئ كثيراً من المدمنين فضلاً عمّن تناولوا جرعات زائدة ومن جاؤوا يبحثون عن الميثادون. بإمكاني أن أراجع سجلات القبول لأتأكد ممّا إذا كانوا قد احتفظوا بأثر لزيارة جودي.

- هل لديك الحقّ في القيام بهذا؟

- نظريّاً ليس من حقّي، لكن بإمكاني أن أقوم ببعض الاتصالات الهاتفية. أعرف أطباء في معظم المستشفيات: أناس تعرّفت عليهم خلال البعثات الإنسانية إلى أفريقيا والبلقان. إنّها تسمح بنسج علاقات: لن يرفضوا مساعدتي إن ألححت عليهم.

- حسناً، ولكن ينبغي القيام بذلك على نحو منظّم. فقد قال مارك بأنّ جودي شوهدَت بحي برونكس ساوث.

- طيب، سأتّصل بمصلحة الهاتف بالمستشفى لأحصل على أرقام هواتف مستشفيات هذه المنطقة.

*

- ألا يوجد أيّ أثر لجودي كوستيللو؟ أنت متأكّد؟ حسناً يا أليكس، أشكرك.

أنهى سام المكالمة. إنّها المكالمة الخامسة بلا نتيجة. كان يعقد أملاً كبيراً على مكالمة أليكس ستيبل، وهو طبيب تعرّف عليه بنيجريا خلال حملة التلقيح الأخيرة ضدّ شلل الأطفال. كان ستيبل رئيس الأطباء المعاونين بمصلحة طوارئ مستشفى مونت كراون، أكبر مستشفى ببرونكس، وقد كان سام واثقاً من أنّه سيعثر هناك على خيط يوصله إلى جودي. وقرأ خيبة كبيرة على وجه غريس، فحاول أن يطمئنها:

- سنصل إليها، أنا واثق من أنّنا سنعثر عليها.

وليؤكّد لها انخراطه في البحث، همّ بتركيب رقم آخر، لكن هاتفه رنّ. فتح الخط وقال:

- غالواي.

- أنا جولييت يا سام...

- أردت الاتّصال بكِ، لكنني لا أتوفّر على رقمك. كيف كان الفحص الطبي؟

- جيّد.

- أين أنت؟

- في بارك أفنيو. هل بإمكاني أن ألحق بك؟ ربّما تغذّينا معاً...

- اسمعي، تمنّيت ذلك، لكنني لا أستطيع. لدينا عمل كثير بسبب وباء الأنفلونزا. يسمع الناس التلفزة تتحدث عن أنفلوانزا الطيور، فتلتبس عليهم الأمور، وبذلك علينا طمأنتهم. أنا عالق في

مصلحة الطوارئ حتّى الثانية بعد الزوال، بعد ذلك عليّ أن أستقبل مرضاي.

- أين أنت؟

تردّد سام، ولم يكن يرغب في الكذب، لكن الوقت غير مناسب ليحدّثها عن غريس كوستيللو. سيحكي لها كلّ شيء، ولكن ليس الآن، لمّا سيتأكّد بأن جودي لم تعد مهدّدة.

- أين أنا؟ إنّني في الشغل.

- بالمستشفى؟

فأجابها بضيق:

- نعم بالمستشفى.

حدجته غريس بنظرة غريبة، كما لو كانت تحذّره من شيء.

- ماذا كنت تفعل لمّا اتصلت بك؟

- كنت مع إحدى مريضاتي، رضيعة في شهرها السادس.

- مِمَّ تشكو؟

- من التهاب القصيبات. إنّه نوع من الالتهابات التنفسيّة التي تصيب الرضّع و...

- أعرف ما معنى التهاب القصيبات. ما اسم مريضتك؟

- آه... مايا. اسمعي، رنّة صوتك غريبة يا جولييت. أنت متأكّدة من أنّك بخير؟

- كلا، لا شيء على أحسن ما يرام.

- لماذا؟

- لأنّك تكذب عليّ.

فقال مدافعاً:

- كلا!

فصرخت به وهي توجه ضربتين براحتها لواجهة المقهى:

- أنت تكذب!

انتفض جميع زبائن المقهى في الوقت نفسه الذي انتفض فيه سام، وراحوا ينظرون إلى النافذة الزجاجية.

كانت جولييت واقفة هناك خلف الزجاج. نظر إليها سام مشدوهاً. همست له بشيء، ومن النظر إلى حركة شفتيها، خمّن الرسالة:

- I don't trust you anymore[1]

نهض الطبيب وخرج من المقهى جارياً، لكن جولييت هربت منه. حاول أن يستوقفها:

- انتظري من فضلك!

لكنّ المرأة اقتربت من الطريق وشرعت تلوّح لسيارة أجرة.

- اسمعيني يا جولييت من فضلك! أعطيني فرصة لأشرح لك على الأقلّ!

وقفت سيارة أجرة أمام الفرنسية التي اندفعت إلى داخلها دون أن تلتفت لسام. جرى الطبيب في إثر السيارة وهو يطرق زجاج النافذة بلا جدوى. زاد السائق من السرعة فاختفى التاكسي.

قال سام بخيبة:

- اللعنة!

لما عاد أدراجه، رأى غريس تومئ بيديها دلالة على عجزها:

- أنا آسفة يا غالواي!

- كفّي عن الكلام!

---

(1) لم أعد أثق بك.

كان يهمّ بأن يقول شيئاً لما رنّ الهاتف من جديد. أجاب بلهفة معتقداً أنّ جوليت هي من تهاتفه.

- اسمعي يا حبيبتي، سأشرح لك كلّ شيء! على كلّ حال، فالأمر لا علاقة له بتاتاً بما تخيّلت...

أجابه صوت أليكس ستيل:

- أنا أصدّقك وإن كنت مقتنعاً بأنّني لست من تريد إقناعه...

- اعذرني يا أليكس، اعتقدتك شخصاً آخر...

قال ستيل متنهّداً:

- سينتهي الأمر بالنساء يوماً إلى القضاء علينا.

ردّ سام مؤيّداً وهو يحدج غريس بنظرة قاسية:

- هذا صحيح...

- على كل حال، إن كان أمر جودي كوستيللو ما زال يهمّك، فقد عثرنا عليها.

أجاب سام وهو يومئ بإبهامه باتجاه غريس:

- حقّاً؟

- أخذ منّا الأمر بعض الوقت لأنّنا لم نعالجها هي قبل ثلاثة أشهر، بل رفيقتها التي تعرّضت لمحنة. لديّ عنوانها إن كنت لا تزال تريده.

فقال سام وهو يخرج قلماً من جيب سترته الداخلي:

- هيّا، أمله عليّ!

سجّل على راحة يده العنوان الذي أملاه عليه صديقه، ثمّ شكره وأنهى المكالمة. لقد استعاد شيئاً من حماسه واقترح على غريس:

- سيارتي ليست بعيدة من هنا، لكن مع اكتظاظ الطرقات في هذه الساعة، حريّ بنا أن نسرع.

مشى سام بخطى ثابتة نحو موقف السيارات بالمستشفى بحيث تجاوز غريس ببضع خطوات. نادته قائلة:

- غالواي، أريد معرفة بعض التفاصيل!

- أيّ تفاصيل؟

- صدّقني إن قلت لك إني ممتنّة لمساعدتك، لكنّي لن أستطيع بالمقابل أن أقدم لك شيئاً.

فردّ سام وهو يقطّب حاجبيه:

- ماذا تقصدين؟

- أنا هنا من أجل العودة بجولييت معي، ومساعدتك لن تغيّر من هذا الأمر شيئاً، هل تدرك هذا؟

لزم الصمت لثوانٍ كما لو أنّه ما زال لا يصدّق هذه الحكاية رغم الحيثيات المشوّشة التي تراكمت. نظرت إليه غريس بحيرة كما لو أنّ حيويته أبهرتها. ذلك أنّ في هذا الرجل إصراراً على عمل الخير مثيراً للانتباه.

قال وهو يرفع ذراعه وينظر إلى ساعته ليُفهم غريس بأن الدقائق محسوبة:

- هيّا أسرعي، سنعثر على ابنتك.

*

التمعت في وجه سيروس ابتسامة سادية. فها هي جودي تستعطفه ليمنحها شيئاً ما، أيّ شيء: أقراصاً كانت أم «كراك» أم هيروين... فهي لا تملك مالاً، لكن بإمكانها أن تؤدّي بطريقة أخرى.

ابتهج بائع المخدرات، ذلك أنّه كان متأكّداً من أنّ جودي ستركع أمامه يوماً. هذا هو شأن المدمنات: تقفن أمامه في البداية بكبرياء، لكنهنّ لمّا يسقطن في الإدمان، يعدنَ إليه زاحفات على بطونهنّ، تاركات كرامتهنّ جانباً، مستعدّات لتنفيذ كل ما يطلبه منهن.

ولعلّ ما أثاره أكثر هو أن جودي فتاة جميلة. فرغم ميلها إلى النحول بسبب ما كانت تتناوله من سموم، فقد كانت فاتنة مع ذلك.

لم تثِر الفتيات شهوته بهذا النحو إلا نادراً. ولم يشعر إزاء معاناة هذه الفتاة بشفقة ولا رحمة، ذلك أنّه كان يعيش في عالم لا تحكمه إلا القوة. وقبل أن ينتقل إلى الأمور الجدّيّة، ودّ أن يتسلّى قليلاً. أمرها أن تجلس على الأريكة وتنزع سترتها الفرائية. وبما أنها أطاعت أوامره بانقياد، التصق بها وأمسك بطوقها ومزّق قميصها.

- دعيني أرى تخاريمك!

أخرج الاعتداء جودي من استكانتها. صرخت وهي تحاول الإفلات منه، لكنّ سيروس أهوى عليها بقبضة من حديد، وأمسك برقبتها.

- لا تستعجلي يا باب-أو-راما.

شعرت بالاختناق، وحاولت التخلص من قبضته، لكن عبثاً. كان الشاب الأسود يخنقها بيد واحدة وهو يضغط بسبابته وإبهامه على قصبتها الهوائية. لم تعد تتنفّس، وشعرت بدفق من الدم يطنّ قرب أذنيها. ضغط سيروس أكثر وأحسّت بأنها على وشك الإغماء، ممّا جعله يغتنم الفرصة ويحاول إسقاطها. هكذا أسقطها أرضاً ووجد نفسه فوق ظهرها فزاده ذلك إثارة، لكن جودي ظلّت تقاوم بقوة استنفدت كلّ انتباهها.

- اهدئي!

وضع ركبته على عمودها الفقري لكي يشلّ حركتها، وهو ما لم يتطلّب منه جهداً كبيراً بالنظر إلى أنّه كان يزن ضعف وزنها، ثمّ لوى ذراعها وسحبه إلى الخلف، فطرطق شيء جعل جودي تصرخ عالياً من الألم.

صاح بها وهو يهوي عليها بصفعة كافية لتُفقد مصارعاً مُحترفاً وعيَه.

ارتطم رأس جودي بالأرض وبدت كما لو أغشي عليها. تصلّبت أعضاؤها وتجمّدت عضلاتها كما لو أنّ إغماء تخشبيّاً أصابها. اغتنم سيروس الفرصة لكي يفكّ المنديل الذي يلفّ رأسها، وسدّ به فمها.

لمّا استعادت وعيها، وجدت نفسها مكمّمة ومكبّلة وسيروس ينزل بها السلم وقد حملها على كتفه ككيس إسمنت حقير. ولمّا بلغ الباحة، فتح صندوق سيّارة لوكسوس آخر طراز، ورماها فيه بدون اكتراث، ثمّ جلس إلى المقود.

أخرج من جيبه وهو يقود هاتفاً نقّالاً ذا لون فضّي ثمّ ركّب رقماً لكي يعلن عن وصوله.

سأله صوت:

- أأتيتني بما طلبت منك؟

أجاب سيروس:

- نعم سيدي.

ثمّ أنهى المكالمة.

حرّك الشاب يده وهو يكشّر من الألم: ذلك أنّ هذه البلهاء الصغيرة قد خمشته حتّى أدمته، وكشطت بشرته على مدى عشر

سنتمترات. كان عليه أن يوسعها ضرباً قبل أن ينال وطره منها. هذا ما تستحقه.

وهو إن كان كبح جماح نفسه فليس رأفة بها، بل لأنّه يخبئ لها مباهج أخرى.

ثمّ إنّ قليلاً ممّن دخلوا هذا المكان الذي يقودها إليه عادوا ناجين.

24

الشرور التي يتسبّب فيها البشر تبقى بعدهم،
بينما يدفن الخير مع رمادهم.

شكسبير

كان سيروس يقود سيارته الرياضيّة بسرعة البرق بين بنايات هايد بيس. كان يرغب في إنهاء ذلك الأمر بأسرع ما يمكن. لو خُيّر، لما اختار أن يكون هنا، لكن حين يطلب منك العُقاب خدمة، فحريّ بك ألا تتلكّأ في القيام بها، على الأقلّ إن كنت تنوي تمديد إقامتك هنا...

كان اسم العقاب في الحقيقة هو كلارانس ستيرلينغ، وهو يدير جزءاً لا بأس به من تجارة المخدرات في برونكس ساوث، وكان هو مالك معظم شحنات المخدرات التي ينقلها سيروس. كان ستيرلينغ في البداية مجرّد قاتل مأجور، يعير خدماته لمن يدفع أكثر، لكنّه استغلّ تصفية حسابات مميتة بين عصابتين متنافستين لكي يدخل بدوره عالم الأعمال.

ومع مرور الأيام أكسبته قسوته وطريقته الرهيبة في قتل أعدائه لقب الفوتور (العقاب)، وإن كان لا أحد يتجاسر على النطق به أمامه. ولعلّه من المؤكد أنّ العنف يشكل جزءاً لا يتجزّأ من هذا النوع من

الأعمال، لكن كلارانس ستيرلينغ كان يضمّنه جرعة زائدة من الوحشيّة.

الواقع أنّه كان يعشق التعذيب. وقد بنى جزءاً من أسطورته بصلْب مروّج مخدرات إلى طاولة بلياردو: دقّ مسمارين كبيرين في رسغيه واثنين آخرين في كعبيه. إلا أن هذه لم تكن هي الفظاعة الوحيدة التي ارتكب، بل تحدّث شهود عيان عن ممارسته التعذيب وبتر أعضاء ضحاياه، هذا في الوقت الذي كان يكفي فيه إطلاق رصاصة على رؤوسهم.

ويبدو أنّ هذا العنف تضاعف في الأيام الأخيرة. كانوا يتهامسون هنا وهناك إن العُقاب مريض، وأنه لم يعد في كامل قواه العقلية (رغم أن عقله لم يعرف يوماً معنى الانسجام).

قبل أيام، وبينما كان سيروس ينقل شحنة من الهروين وصلت حديثاً، عبّر له ستيرلينغ عن رغبته في العثور على فتاة لمهمة خاصة. لم يكن سيروس يرغب في معرفة ما كان يقصده العُقاب بهذه المهمة، وحرص على ألا يطلب أي تفاصيل، لكن لما جدّد ستيرلينغ طلبه في آخر اللقاء، فكّر في جودي.

عاد إلى الوراء قليلاً لكي يدخل إلى زقاق صغير يطلّ على صفّ من المخازن جرى ترميمها مؤخراً، ثمّ توقّف أمام مرآب وضغط على البوق بلطف لكي يعلن عن وصوله، ثمّ أومأ بيده لكاميرا المراقبة المثبتة فوق المدخل.

قال في نفسه وهو يسمع جودي تصوّب ركلة للصندوق الخلفي للسيارة: متى ستنفتح هذه الباب وننتهي؟ وما هي إلا ثوانٍ حتّى انفتح الباب الآلي، فدخلت سيارة لوكسوس نازلة الرصيف المنحدر الذي يقود إلى الطابق التحت-أرضي.

طبّق سيروس الأوامر التي تلقاها إذ فتح صندوق السيارة الخلفي، وأمسك بشعر جودي مجبراً إياها على مرافقته.

- أرجوك يا سيروس، لا...

- اسكتي!

حاولت جودي أن تتخلّص من قبضته، لكنّها كسرت ترقوتها، وبذلك أصبحت كلّ حركة مباغتة، تزيد من ألمها. عبرا موقف سيارات صغير معتِم ثمّ قادها إلى غرفة طويلة وضيّقة حيث أجبرها على الجلوس على مقعد مائل شبيه بالكرسي الذي يستعمله أطباء الأسنان. عندئذٍ ربط يديها إلى مسندَي المقعد قبل أن يكمّم فمها بشريط لاصق.

وما إن أنهى مهمّته حتّى سارع إلى إخلاء الغرفة دون أن ينبس بكلمة.

وعندما همّ بإطفاء النور، ألقى نظرة أخيرة على الفتاة واثقاً بأنّه لن يراها مرّة ثانية.

*

أوقف مارك روتيللي سيارته أمام المدخل الرئيس لمكاتب NYPD.

أنذرته حارسة شابة ببزّتها الرسمية قائلة:

- لا يُسمح بالوقوف هنا!

- اسمعي يا بنيّتي، لن أركن سيارتي هنا فحسب، بل ستحرسينها أيضاً.

صعد بعض الدرجات، لكنّه ما لبث أن توقّف لمّا حذرته الشرطية:

- سأطلب نقل سيارتك إلى المحجز.

عاد أدراجه، وانتصب أمام الشرطية التي كانت تفوقه طولاً. إنّها إحدى أولئك الشرطيات الموظفات حديثاً، جميلة وذات قوام رياضي، أقرب إلى الراقصة منه إلى الشرطية كما يتمثلها روتيللي.

- لن تحجزي شيئاً يا بنيّتي.

- أهو تهديد؟

أجاب روتيللي وهو يُحكم قبضته على عنقها ويضغط بقوة:

- إن خرجت ووجدت أن هذه السيارة نقلت من مكانها ولو لملمترات، سأهشم وجهك، وسأجمع ما يكفي من الدم لأعيد صباغة هذه البناية باللون الأحمر. هل تهديدي واضح بما فيه الكفاية؟

- أظنّ ذلك...

- ما معنى أنّك تظنّين؟

فردّت الشرطية الحديثة العهد بالمهنة وهي بالكاد تستطيع النطق على مرأى من المارّة المذهولين:

- الأمر... في منتهى... الوضوح.

حرّر روتيللي عنقها من قبضته بعنف قائلاً:

- أعتقد أنّنا تفاهمنا.

دلف إلى البناية دون أن يلتفت. لم يكن يلبس البزّة، لكن خبرته مكّنته من الإفلات من مراقبة موظفي الاستقبال. فضّل استعمال السلّم على المصعد، ووصل أخيراً إلى الطابق الذي يوجد به مكتب جاي ديلغاديو مدير دوريات NYPD.

كان روتيللي على معرفة عميقة به، إذ كانا في بداية مشوارهما المهني مفتّشين شابّين متألّقين. ثمّ تفرقت بهما السبل: غار روتيللي في حياة الوحدة والإدمان في حين تسلّق ديلغاديو كلّ أدراج سلّم

التراتبية الأمنية بسرعة فائقة. وقد كان يحرّكه طموح سياسي بحيث لم يكن يخفي رغبته في أن يصبح أوّل عمدة من أصول إسبانية لنيويورك.

اجتاز روتيللي كل الحواجز كما لو أنّه مكلّف بمهمة إلى أن بلغ مكتب صديقه القديم.

JAY DELGADILLO
CHIEF OF PATROL

توجّه رأساً إلى المكتب، لكنّ الكاتبة حاولت ثنيه عن قصده:

- كلا يا سيدي، غير مسموح بـ...

لكن روتيللي لم يعِرْ كلامها انتباهاً، واقتحم المكتب.

كان ديلغاديو مستغرقاً في الحديث مع شخصين آخرين، وما إن رأى روتيللي يقتحم مكتبه بهذه الطريقة حتّى بادره بحدّة:

- لا يمكن أن تدخل مكتبي بهذه الكيفية يا مارك، أطلب منك الخروج!

- امنحني ثلاث دقائق يا جاي، الأمر في منتهى الأهمية.

ما كان جاي في ظروف أخرى ليتردّد في طلب الحراس، لكنّه خشي ردود فعل روتيللي غير المتوقّعة، وفضّل عدم المجازفة، فقال للرجلين:

- هلا تفضّلتما بالانصراف أيّها السيدين!

ما إن خلا المكتب حتّى دارت بين الرجلين محادثة حادّة.

- ماذا تريد منّي ثانية يا مارك؟

أخبره مارك بقصته باقتضاب شديد، وشرح له بأنّه يبحث عن جودي كوستيللو، وطلب أن يكون أوّل من يُخطر في حالة العثور على فتاة مصفّدة الرسغ الأيمن.

فأجابه ديلغاديو:
- طلبك مرفوض تماماً! فأنت لست غير شرطي دوريّة يا مارك. وبعد الحماقات التي ارتكبت السنة الماضية، لم يعُد من حقّك أن تطلب أيّ شيء.
صمت قليلاً ثمّ أضاف:
- وإن أردت رأيي، عليك أن تحمد الرب على كونك لم تُطرد من عملك.
تنهّد روتيللي، وراوده شعور مفاجئ بأن يرتمي على ديلغاديو ويهشّم وجهه، لكنّه فكّر في جودي، وتمالك نفسه.
قال ديلغاديو وهو يشير إلى الباب:
- انتهت المقابلة.
عوض أن يتوجه روتيللي إلى الباب، اقترب أكثر من رئيسه وقال:
- اسمع يا جاي، السياسة ليست هي الشيء الوحيد الموجود في الحياة. أنت أيضاً كنت تعرف غريس، وإذا كانت ذاكرتي لا تزال تُسعفني، فقد كنّا أصدقاء أنا وأنت...
- صحيح أنّنا كنا أصدقاء، لكن قبل أن تصير حثالة.
- توقّف عن هذا يا جاي.
- اسمع يا مارك، أنت إنسان عاجز، وأنا لم أعد أستلطف أمثالك. لقد جلبت العار لجهاز الشرطة، ولمّا سيفكّرون في تنظيف هذا البيت، فستكون أوّل من سيتخلّصون منه.
وبذل روتيللي جهداً كبيراً من جديد لكي يتمالك نفسه. وفكّر في أنّ ديلغاديو يحاول أن يدفعه إلى الانهيار. وعوض أن ينتفض، تسمّر أمام النافذة الكبيرة المطلّة على الشارع وقال:

- أترى البناية المكسوّة بالرخام الوردي هناك؟

- نعم.

- خلفها توجد ساحة صغيرة مبلّطة يلعب فيها الأطفال كرة السلّة.

فسأل ديلغاديو بضيق:

- وماذا بعد؟

فردّ روتيللي وهو يحدق في عينيه:

- لو طرحنا سلاحينا وشارتينا هنا، ورحنا إلى هناك وسوّينا الأمر كما يفعل الرجال لنرى من منّا القوي ومن العاجز...

أجابه ديلغاديو مستهزئاً:

- نذهب إلى تلك الساحة الصغيرة لنتعارك! «كما يفعل الرجال»! عد إلى رشدك يا مارك! أين تحسب نفسك؟ في فيلم؟ لقد عفا الزمن عن هذه الأساليب.

هزّ روتيللي رأسه:

- تعتقد أن الأمر انتهى لأنّك لم تعُد في الميدان، لأنّك تلبس بذلات أرماني، ولأنك تتوهّم بأنّك صرت شخصيّة مرموقة.

- إنّك تثير شفقتي.

- أثير شفقتك؟ حسناً. دعني أذكّرك بأمر: أتذكُر يوم استدعينا أنا وأنت بشكل طارئ حين تعرّض ذلك الصائغ ببرودواي للسرقة؟

- فهمت مقصودك...

- أتذكُر شعورك لمّا وضع أحد اللصين سلاحه على قفاك؟ أنا متأكّد بأنّك لا تزال تذكر هذا، بل واثق من أنّك لا تزال تحلم به ليلاً. يومها كنت مسروراً بوجودي معك...

فقال ديلغاديو موافقاً:

- طيّب، لقد أنقذت حياتي منذ خمس عشرة سنة لمّا صرعتَ ذلك اللص، لكن لم تقُم إلا بواجبك لا أقلّ ولا أكثر. وإذا كنت تصرّ على معرفة كلّ التفاصيل، فلولا تدخّلاتي لكنت طُردت من عملك منذ زمن بعيد. أظنّ إذن آنّني أدّيت الدين الذي أدين لك به يا مارك...

فقال روتيللي ملحّاً:

- لا تزال مديناً بقسط، وأعدك بأنّه سيكون الأخير: إن ساعدتني في هذا الأمر، لن أطالبك بشيء بعده أبداً.

شبَكَ ديلغاديو يديه وتأرجح بلطف على مقعده وهو يتنهّد. وراح يفكّر قبل أن يقول وهو يرفع سماعة الهاتف:

- حسناً، سأصدر تعليماتي. إن علمت دورية شيئاً عن جودي كوستيللو، سيخبرونك أوّلاً، وسيتركون لك المجال لكي تتصرّف.

- شكراً يا جاي.

- لكن ثمّة شرط بالمقابل: أريد أن تأتيني باستقالتك صباح يوم الاثنين. أنت مخيّر بين الرفض والقبول.

لم يكن روتيللي ينتظر هذا الابتزاز. عليه أن يقدّم استقالته! كيف سيعيش إنْ حرم من عمله؟ هو مَن فقد كل شيء تقريباً. إلا أنّه تحمّل الصدمة دون أن يظهر شيئاً.

- حسناً، سآتيك بها.

- هي وسلاحك وشارتك.

*

ترك سام إيست هارليم وسار باتجاه جسر تريبوروث قاصداً برونكس. قالت غريس محذّرة:

- إن عثرنا على جودي، لا تحدّثها عنّي مهما كانت الذريعة، مفهوم؟

- سيكون أمراً صعباً...

- أعلم، لكن تدبّر أمرك لكي تقنعها بالخضوع لعلاج الإدمان.

حرّك سام رأسه:

- لكن كيف سأبرّر تدخلي؟ فجودي مراهقة، وهي لن تقبل أن يتدخّل أجنبي في حياتها لكي يلقّنها دروساً في الأخلاق.

- إذا تعلّق الأمر بك أنت، فإنها ستقبل. فأنت تملك تلك القدرة على كسب الثقة، وهو أمر تعرفه.

حجبت الغيوم في الخارج ضوء الشمس، وكانت بعض ندف الثلج تتساقط هنا وهناك على زجاج السيارة الواقي. ضغطت غريس على أحد الأزرار الموجودة في المسند لكي تشغّل تدفئة المقعد. كان صالون السيارة الرباعية الدفع يوحي لها ببخت فاخر يتجاور فيه الخشب والجلد والتكنولوجيا العالية. وقرأت للمرّة العشرين بتوجّس العنوان الذي يفترض أنّ ابنتها تقطن فيه.

- اسمع يا غالواي، العنوان الذي بين أيدينا يقع بهايد بيرس. إنّه مكان قد يكون خطيراً، لهذا أطلب منك أن تحتفظ بهذا.

حوّل سام عينيه عن الطريق لحظة ليُلاحظ بأنّ غريس تمدّ له مسدّسها.

- كنت أظنّ أنني صادرت مسدّسك.

- الشرطي الحاذق يحمل معه دائماً مسدّساً احتياطياً. هيّا خُذه.

رفض الطبيب وهو يقول:

- أكره الأسلحة.

- كفّ عن مواعظك، حين يُستعمل السلاح في محلّه، يستطيع أن ينقذ أرواحاً.

- لن تقنعيني بذلك. آخر مرّة استعملت فيها السلاح، انتهت بشكل سيئ.

- ما معنى ذلك؟

- قتلت شخصاً.

اندهشت غريس، ولاذت بالصمت لبرهة، ثم أدركت أنّ سام صادق فيما يقول.

- متى كان ذلك؟

- قبل عشر سنوات، ببدفورد-ستويفيسوند.

- أعرف هذا الحي.

- هناك نشأت مع فيديريكا. كانت مَدينةً بالمال لأحد مروّجي المخدرات، شخص يدعى داستفاس. كان يضرب مواعيده بأحد دُور تناول الكراك.

- وأنت من ذهب للقائه...

- جمعت جزءاً من المبلغ، وكنت أعتقد بأنّ ذلك سيهدئ من غضبه، لكنني كنت قد استعرت سلاحاً من أحد الأصدقاء لأستعمله في حالة ما إذا...

فخمّنت غريس:

- صرعته إذن؟

- كلا.

- لكنّك قلت لي...

- ليس هو من قتلت.

- من إذن؟

شغّل سام الوامض وقد لزم الصمت. وشعر بنفسه فجأة مضطرباً ومتوتّراً، كما لو أنه يعيش المشهد من جديد.

- لما دخلت إلى منزل الكراك ذاك، لم أجد أحداً بانتظاري. كان داستفاس يتشاجر مع أحد الزبائن: شخص يرتدي قبعة رأيته من الخلف فقط. ارتفعت حدّة الكلام بين الرجلين، فأخرج داستفاس سلاحه.

- وماذا فعلت أنت؟

- كنت أعلم أنه سيطلق النار، لردعه إذن هدّدته بسلاحي. كان التوتّر على أشده. أغلقت عيني، وانطلقت الرصاصة. لم أعد أذكر حتّى ما إذا كنت قد ضغطت على الزناد حقّاً. كل ما أعلمه هو أنني لمّا فتحت عيني، لم يكن داستفاس هو من قُتل، بل الرجل الآخر. ذلك أن داستفاس احتمى به.

- إنّها حكاية رهيبة.

- لا يكاد يمرّ يوم دون أن أذكرها. إنّ هذه الحادثة دمّرت حياتي بمعنى من المعاني. لن أنعم بالسكينة أبداً بسببها...

فتح النافذة لكي يتنفس هواء نقياً، ثمّ أضاف:

- لهذا لا أرغب في سلاحك.

- أفهمك يا سام، أفهمك.

*

كانت جودي ترتعش من الخوف وهي غارقة في ظلام دامس. حاولت أن تتخلّص من قيودها، لكن سيروس كان قد أحكَمَ تكبيلها بسلك حديدي أخذ يغور في لحمها كلما قامت بحركة للتخلص منه.

كما أن الكمامة كانت تقطع أنفاسها وتمنعها من الصراخ. وحتّى لو صرخت، فمن سيسمعها؟

حاولت أن تستعيد أنفاسها لمّا سمعت وقع أقدام، وعبرت جسدها قشعريرة. كانت الخطوات تقترب، كما لو أنّ أحداً كان ينزل السلم الحديدي. وصلّت جودي بكلّ ما أوتيت من خشوع لكي لا ينفتح الباب، لأنّها كانت تعلم بأن الشخص الذي سيدخل لا يمكن إلا أن يؤذيها.

سُمع صرير، وأضيئت الغرفة بضوء خافت صادر عن مصباح زجاجي مغبرّ، ولاح رجل في فتحة الباب ولاح لها طيفه الطويل الأعجف. شعرت بالدم يتجمّد في عروقها. تقدّم الرجل نحوها. كان مفتول العضل رغم نحالته. وكان حليق الرأس فاتح البشرة، تبدو على عنقه الطويل العاري - وهو سرّ تلقيبه بالعقاب - بعض الأوشام.

كانت جودي، شأنها شأن معظم ساكنة الحي، تعرف سمعته، لكنّها لم تعتقد يوماً بأنّها ستصادفه في طريقها. ماذا يريد منها العقاب؟ راحت تجيل حدقتيها في عينيها كحيوان يبحث عن مهرب، لكن الغرفة لم تكن تحتوي إلا على المقعد الذي قيدت إليه وطاولة.

كان ستيرلينغ يحمل حقيبة حديدية وضعها على الطاولة، ثمّ اقترب من المراهقة وحدجها بنظرة ثاقبة. كانت بشرته البيضاء المرقّطة تلمع كالصدف، فتجعله يبدو ككائن أثيري.

ودّت لو تصرخ، لكن حنجرتها لم تعُد تقوى على النطق. وبخلاف ما كان منتظراً، فكّ العقاب كمامتها:

- هيّا: اصرخي، ابكي، هذا يمتعني...

حوّلت بصرها، وراحت تنتحب.

فتح كلارانس الحقيبة ليتثبت من محتواها: تشكيلة متنوعة من المحاقن والقناني والمباضع المتباينة الأحجام.

قضى لحظة في البحث داخل الحقيبة، ولمّا استدار كان يحمل في يده محقنة مليئة بمحلول مائل إلى الصفرة.

راحت جودي تتخبط لعلها تفلت منه، لكن عبثاً. ثبّت بسهولة رسغها، وغرز الإبرة في أحد عروقها البارزة وهو يقول:

- تريدين المخدر؟ حسناً، ستحصلين عليه...

ثمّ ضغط على المكبس بعنف.

وشعرت جودي فجأة بفتور مقاومتها وأنّها لم تعُد تتحكّم في نفسها. وأحسّت بألم شديد أشبه باحتراق قرب قلبها. مالت برأسها إلى الخلف فبدا لها السقف يدور كالدوامة بسرعة جنونية.

ثمّ أغمي عليها.

25

مصاصو الدماء محظوظون: فهم يتغذّون على الآخرين. أما نحن، فنضطر إلى أن يأكل بعضنا بعضاً.

مقتطف من فيلم «باد ليوتنان» لأبيل فيرارا.

فتحت جودي عينيها بصعوبة. لم تميّز في البداية غير غبار نار كثيف وساطع يدور حولها، كما أنها سمعت ضوضاء أيضاً: صراخ أطفال أشبه بالصراخ الذي ينبعث من ساحة مدرسة. وضعت يديها على عينيها لتحميهما من الضوء الشديد ثم أخذت تزيح أصابعها الواحد تلو الآخر، وكان أوّل ما أبصرت هو قوس ساحة واشنطن.

كيف حطّت بهذا المكان جالسة على مقعد منزوٍ في قلب غرينيتش فيلاج؟ نظرت إلى ساعتها: لم يكن قد مضى أكثر من نصف ساعة على اعتداء العقاب عليها. حاولت الفتاة الوقوف، لكنّها ما لبثت أن أحجمت عن ذلك. شعرت كما لو أن مشدّاً يضغط على صدرها، هذا فضلاً عن فقرات عنقها التي تؤلمها.

حاولت تحريك رأسها، لكنّ ألماً شديداً أعاق حركتها، وسرى إلى كتفها فتأوّهت. وشعرت بقشعريرة تسري في كل جسدها، وسمعت عظامها تطقطق كالزجاج. وضعت يداً مرتعشة على جذعها:

لماذا تشعر كما لو أنّ ستة أضلاع أو سبعة مكسورة؟ فتحت سحّاب سترتها الفرائية بمهل، فوجدت أنّ ما يشبه سترة نجاة تشدّ خصرها وصدرها. لماذا ألبسوها هذا الشيء؟ مضى وقت طويل قبل أن تستوعب ما وقع لها، وذلك لما أدخلت يدها في جيبها فعثرت على هذا التحذير المكتوب على بطاقة:

One move: you BLOW

One word: you BLOW

Never forget I'm WATCHING YOU[1]

فتحت من جديد معطفها وتفحصت الشيء الذي يحيط بصدرها: لم يكن سترة نجاة، بل حزاماً ناسفاً.

*

لقد فهمت!

كان العقاب جالساً إلى الشاشة وهو في منتهى الانتشاء. كان باستطاعته أن يراقب على حاسوبه كلّ ما يقع بساحة واشنطن بفضل شبكة كاميرات الويب المثبتة في أرجاء الحديقة. قسّم شاشته إلى أربعة مستطيلات: ثلاثة تُظهر الحديقة من زوايا متباينة، وواحد مصوّب على جودي.

مرّر أصبعه بلطف على زرّ الصاعق البرتقالي الموصول بهاتفه المحمول، وشعر بالرعشة لمجرّد لمسه.

---

(1) حركة واحدة وتنفجرين
كلمة واحدة وتنفجرين
لا تنسي أنني أراقبك.

فكلّ شيء سيتفجر، ذلك أن العبوة الناسفة المثبتة على جودي تتكوّن من كيلوغرام من تي إن تي مضاف إليه قطعاً معدنية، وسيؤدّي تفجيرها إلى مجزرة مروعة. وما أوحى له بهذا هو ما وقع بموسكو قبل شهر لمّا فجّرت انتحارية نفسها بالمترو... أعلنوا في التلفزة عن عشرين قتيلاً وأكثر من ستّين مصاباً. كان يأمل في أن يوقع أضراراً أكبر من ذلك. سيُقام بعد عشرين دقيقة العرض المسرحي الطلابي الأسبوعي أمام النافورة، ذلك الحفل الذي يحضره دائماً كثير من الناس، وهو بذلك يسمح بارتكاب مذبحة رائعة!

لطالما فكّر بأنّ أفضل طريقة لامتلاك شيء هي تدميره. كان بإمكانه طبعاً ألا ينتظر وأن يفجّر العبوة فوراً، لكنّه فضّل التمهل قليلاً لكي يستمتع أكثر بفعلته، ويُسقط أكبر عدد من الضحايا. كان مولعاً بمثل لحظة الانتظار هذه، حيث يسود الهدوء الذي يسبق التفجير.

قام ببضع نقرات على الفأرة حتّى يُظهر وجه جودي مكبّراً ويستمتع بارتعابها. فتنه ضعف هذه الفتاة، وما تبذله من جهد لكي لا تهلك، لكنّه شعر بأنّها على وشك أن تنتهي. لقد مرّ كل شيء على أحسن ما يرام، غير أنّ عليه أن يظلّ حذراً، ومرّر أصبعه من جديد على الصاعق.

عليه ألا يتأخّر كثيراً.

*

تسلّى أحدهم بتكسير كل أزرار الأجراس الموجودة بممرّ الطابق العلوي من العمارة، وبذلك اكتفى سام بالنقر على باب الشقّة. سمع وقع خطوات ثمّ صوتَ تذمّر فأدرك أنّ أحداً يراقبه عبر الكوّة.

صاح به صوت من وراء الباب:

- اذهب إلى حال سبيلك!
تفحّص سام القفل بعناية ليلاحظ بأنّه سبق كسره.
فقال قاصداً طمأنة مخاطبه:
- لست لصاً ولا رجل شرطة.
سمع القفل ينفتح ولاح له وجه مقطّب في فتحة الباب: إنها بوردي، شريكة جودي في الشقّة. كانت الفتاة ترتدي لباساً قصيراً: سروالاً قصيراً مثيراً وقميصاً وردياً يكشف عن سرّتها.
- ماذا تريد؟
- اسمي سام غالواي، أنا طبيب وأريد مقابلة جودي.
أجابته بوردي وقد ندمت على فتح الباب:
- غير موجودة.
ردّ سام وقد أدخل رجله إلى فتحة الباب ليمنعها من إغلاقه:
- أرجوك، إنني أريدها لأمر في غاية الأهمية.
- ماذا تريدها؟
- كلّ ما أريد هو أن أساعدها.
- ليست بحاجة إلى مساعدتك.
- أعتقد أنّها بحاجة إليها.
- هل لديها مشاكل؟
- إنّها تتناول المخدرات، أليس كذلك؟
- قليلاً...
حدّق سام في عيني بوردي. كانت عيناها حزينتين وجامدتين، ملطختين بالماسكارا.
- اسمعي، أعلم أنّك دخلت المستشفى مرّتين بعد أن تناولت جرعات زائدة من المخدرات، وأنّ جودي هي من حملتك إلى

المستشفى. لقد أغاثتك لمّا كنت بحاجة إلى الإغاثة، واليوم جاء دورك لتساعديها. كلّ ما أطلبه منك أن تقدمي لي عنواناً يمكن أن أعثر عليها فيه.

ترددت بوردي

- إنّها تتردّد هذه الأيام على سيروس...

- سيروس؟

- هو مزوّدنا. سأسجّل لك عنوانه، لكن لا تقُل له إنّني أنا من...

- أعدك.

خطّت بوردي بضع كلمات على ظهر قسيمة خصم، فشكرها سام ومدّ لها بطاقة زيارة كتب عليها عنوانه بالمستشفى.

- إن فكّرت يوماً في الانقطاع عن المخدرات، زوريني، أستطيع مساعدتك.

لكن بوردي رفضت تسلّم البطاقة.

- ألديك عشرين دولاراً عوضها؟

أجاب سام بتذمّر بسبب تصرّف الفتاة:

- كلا، آسف.

كان سام يشعر بالذنب في كلّ مرّة يرى فيها أناساً يعيشون في البؤس والفاقة، ويؤنّب نفسه على فشله في مساعدتهم. كان يتمنّى لو أنّه يستطيع إنقاذ كلّ الناس رغم علمه باستحالة ذلك. وقد كانوا كثيراً ما يسخرون منه في المستشفى بسبب هذا النزوع، لكنّه كان يعلم بأنّ ذلك يشكّل أيضاً نقطة قوّته وتوازنه. كان قد نزل بضع درجات لكنّه لم يستطع تمالك نفسه فعاد أدراجه:

- انتظري!

سحب سام ورقتين من حافظة نقوده وطواهما واضعاً داخلهما بطاقة زيارته بحيث لو رغبت بوردي في الورقتين تحتّم عليها أخذ البطاقة معهما.

أمسكت بما مدّ لها وصفقت الباب دون أن تنبس.

رجعت بوردي إلى الصالون وعادت إلى ما كانت فيه: مشاهدة الكليبات على التلفاز، لكن ليس قبل أن تعرّج على المطبخ لكي تتخلّص من البطاقة في القمامة، وحشرت الورقتين بين لحمها ولباسها الداخلي الضيّق. بإمكانها أن تقتني بهذا المبلغ حبّتين أو ثلاثاً تأخذها في سفر بديع...

لحق سام خلال ذلك بغريس التي ظلّت تنتظره وقد أسندت ظهرها إلى غطاء محرّك السيارة، مستعدّة للتدخل في حالة الخطر.

سألته بقلق:

- ماذا؟

- جودي غير موجودة هنا، لكنّني عثرت على عنوان آخر. اصعدي، سأحكي لك...

كانت بوردي ممدّدة بشكل منحرف على الأريكة، رأسها إلى الأسفل وذراعاها مشبوكين على شكل صليب حتّى تتغلغل الموسيقى أكثر في أعماقها. وفجأة قادها وميض من الصفاء لا تعلم مصدره إلى العودة إلى المطبخ من جديد، وراحت تفتّش في القمامة عن بطاقة زيارة سام، وعلّقتها على لوحة الفلّين الموجودة بجوار الثلاجة.

قد أحتاجها يوماً...

*

كانت جودي تتوجّس من القيام بأدنى حركة وهي تسمع قلبها يرتطم بالمتفجرات. وكانت ركبتاها تصطكان وتشعر كما لو أنها تسقط في هوة سحيقة.

كانت تبدو لها الحياة قبل ساعات يائسة وعبثية، وفكّرت في غير ما مرّة بأنّ الموت قد يكون هو الخلاص، لكنّها في هذه اللحظة، لم تكن واثقة إلا من شيء واحد هو أنّها لا ترغب في الموت. إنّ الرحيل بهذه الكيفية المفاجئة، في هذه الظهيرة الشتوية يجعل قلبها ينخلع. مالت برأسها إلى الخلف وهي في منتهى الاضطراب لعلّ السماء اللامتناهية تهدئ من روعها. ارتطمت ندفة قطنية بوجنتها وتحولت إلى دمعة حارقة.

نظرت من فوق المقعد حولها دون أن تتحرّك. وبفعل الذعر الذي تملّكها، صارت تدرك كل شيء بحدّة قصوى، كما لو أنها تتّحد بكلّ من في الحديقة.

تقع ساحة واشنطن في أحد أجمل أحياء مانهاتن. فعوض ناطحات السحاب، توجد عمارات صغيرة أنيقة مبنيّة بالقرميد الأحمر. وبما أنّ أعياد الميلاد كانت على الأبواب، ازدانت الأشجار والشرفات بشرائط من المصابيح الكهربائية في هيئة ملائكة ونجوم.

رغم الثلج، كانت مماشي الحديقة آهلة بجماعات من الطلبة. ذلك أنّ هذا المكان كان من أكثر الأمكنة استقطاباً لطلاب جامعة نيويورك التي كانت العديد من بناياتها تحتلّ مساحات بمحاذاة الحديقة. وقد كان بعض الطلبة يتدرّبون على إحدى المسرحيات بينما راح آخرون يلعبون الفريسبي (الصحن الدوار) أو الرولر أو ألعاب الخفّة.

بل إنّ العديد منهم أخرجوا آلاتهم الموسيقية ومضوا يُتحفون

المارّة بمعزوفاتهم رغم البرد. فهم يفضلون العزف هنا عوض العزف بين جدران الشقق الضيّقة. أمّا في غرب الحديقة فنُصبت موائد خشبية ومقاعد لاستقبال لاعبي الشطرنج، وراح بعض المولعين باللعبة يتابعون أشواط مقابلة حامية تجمع بين يهودي عجوز يعتمر الكيبا وبطل ناشئ.

كان ثمّة أيضاً أمّهات تسوّين أوشحة أبنائهن، وتعدّلن قبعاتهم الصوفية قبل أن تتركنهم يركضون خلف السناجب.

إنّه الطابع الحقيقي للحياة في مدينة نيويورك، حياة تتّسم بالتعدّد العرقي والثقافي، بحيث يخيّل للمرء أنّه أمام عالم طوباوي تسوده الأخوّة.

كانت جودي تنظر لكلّ هذا بتعاطف لم يساورها من قبل. على المقعد المجاور جلس عشيقان راحا يقتسمان كعكة وهما يتبادلان القبل. نظرت إليهما بانفعال: فهي ستموت دون أن تعرف معنى العشق.

وتعالت فجأة أصوات جماعة من الطلاب كانوا ينتظرون بداية المسرحية قرب النافورة الوسطى، إذ راحوا ينشدون أغنية ليوار كوهين «هاليلويا» بطريقة جيف باكلي. وما لبث كثير من المارة أن تحلّقوا حولهم مفتونين بجمال الإنشاد، فخيّم على الحديقة لبرهة شعور بالمودّة والصفاء. إثر ذلك أوقف خطيب يحمل الإنجيل في يده المتفرجين لكي يعلن لهم عن وشوك وقوع كارثة.

لكن لا أحد أبِه بنبوءته...

*

كان مارك روتيللي يتجوّل بميدتاون منتظراً، دون أن يكون واثقاً

من ذلك، اتصالاً بالراديو يخبره بخيط قد يوصله إلى جودي. لم يكن قد شرب شيئاً طيلة الصبيحة، ذلك أنّ ديلغاديو كان سيشعر برضاً بالغ لو رآه ثملاً، فقرّر ألا يمنحه هذه الفرصة. إنّها مسألة كرامة.

إلا أنّه شعر مع ذلك، قبل بضع دقائق بارتعاش متزايد في يديه. ودون أن يستطيع التحكم في نفسه وجد رجله تدوس بقوة على دواسة الكوابح لتتوقف السيارة أمام متجر خمور. لا داعي للحلم: ليس هذا هو اليوم المناسب للتوقّف عن الشرب.

ولج المتجر ثمّ خرج محمّلاً بزجاجة فودكا ملفوفة في ورق كرافت. انتظر إلى أن امتطى السيارة لكي يشرب الجرعة الأولى. لسع الكحول لسانه وحنكه وحلقه قبل أن يوقد شعلته المبهجة في بلعومه ثمّ في سائر جسده. وقد كان روتيللي يدرك بأنّ هذا الشعور لم يكن غير ابتهاج خادع، لكنّ هذا السم كان يسمح له أن يكون حاضر البديهة متوثّباً، على الأقل على المدى القصير. ورغم شعوره بالحزن والذنب، تناول جرعة ثانية، فلاحظ برضاً أنّ يديه توقفتا عن الارتعاش.

شعر بنفسه متصدّعاً من الداخل ومتورّماً من الخارج. يخيّل لمن يراه أنّه رجل قوي جلود، لكنّه كان في الحقيقة بعكس ذلك تماماً. إذ كلّما زاد انخراطه في العمل إلا وزاد شعوره بأنّ نفسه طافحة بمشاعر لا يعرف كيف يسيطر عليها.

إنّ عمل الشرطة لا يسمح لمزاوله برؤية الجوانب الإيجابية في الإنسان. وصار يبدو له في كثير من الأحيان أنّ الواقع لم يكن كما كان يلزم أن يكون، وهذا هو ما يدفعه إلى الكحول. يفعل ذلك لكي يشعر بنفسه خارج العالم، ويستطيع تقبّل المآسي ومظاهر البؤس المحيطة به.

لما كان يشتغل مع غريس، كانت حياته أهون. كان التفاهم القائم بينهما يساعدهما على التغلّب على الجوانب الشاقّة في المهنة. وقد كانت غريس موهوبة في هذا الجانب: كانت تضفي على حياتهما اليومية بريقاً خاصاً، وتضفي المعنى على الأشياء بسهولة، هذا في الوقت الذي كان فيه هو دائم الكآبة، وهي كآبة لا تزال تلازمه إلى الآن.

لقد تركت غريس فراغاً في حياته يزداد شعوره به كل يوم. ولمّا يكون ثملاً أحياناً، يبلغ به الأمر إلى حدّ إقناع نفسه بأنّها لا تزال حيّة، لكن هذا لم يكن ليدوم طويلاً، إذ سرعان ما يعود إلى رشده، فيضاعف ذلك من ألمه.

وبينما كانت هذه الفكرة تجول في خاطره، أعادته خشخشة الراديو إلى الواقع:

– الضابط روتيللي؟

– أنا هو.

– أظن أننا نجحنا في تحديد مكان وجود جودي كوستيللو...

*

ركن سام سيارته أمام حاجز عمارات السكن الاقتصادي، لكنّه ترك محرّك السيارة مشغّلاً. أخلى الثلج المتساقط بكثافة الشوارع، وجعل الحيّ يبدو كما لو أنّ سكانه هجروه. نصحته غريس مرّة أخرى بتوخّي الحذر، فقابل النصيحة بهزّ كتفيه.

قالت ملحّة:

– اسمع يا غالواي، إنّنا في قلب برونكس، وأنت ستقابل مروّج مخدرات. إنّه أمر محفوف بالمخاطر!

- أعلم ذلك.

- احذر إذن، فسيروس هذا ليس من النوع الذي ينبغي الاستخفاف به، مفهوم؟

- Yes, sir.

صمتت غريس قليلاً، ثمّ قالت وهي مستغرقة:

- كنت أتساءل عن شيء...

- ما هو؟

- أماتَ مروّج المخدرات الذي كان يهدّد زوجتك؟

- نعم.

- كيف؟

فتح سام باب السيارة، فاندفع بداخلها هواء بالغ البرودة.

- إنّها قصة قديمة ليس هذا وقت سردها...

غادر السيارة دون أن ينطق بكلمة، وراحت غريس تنظر إليه حالمة وهو يبتعد، ثمّ لحقت به لما صار على بعد بضعة أمتار:

- انتظر يا سام.

أخرجت سلاحها وأزالت شاحنه ثمّ مدته له من جديد.

- إنه فارغ. لن تقتله، لكنّه قد يفيدك في إخافته...

قاطعها الطبيب قائلاً:

- لا داعي للإلحاح من فضلك! لكلّ أسلوبه.

فأجابته بضيق:

- حسناً، اتركه يقتلك إن كان هذا ما يرضيك.

دخل سام إلى العمارة الأولى لكنّه تركها فوراً: كان ثمّة شجار مستعرّ بين الجيران في الدرج. فغريس محقّة على كلّ حال: لا داعي لإبداء البسالة وتلقّي طعنة طائشة والموت في مكان قذر كهذا.

استغرق العثور على عنوان سيروس وقتاً بسبب صناديق الرسائل المنزوعة من مكانها. لم يسأل أحداً عن الطريق إلى الشقّة: ذلك أنّه أمضى طفولته في حيّ شبيه بهذا، وكان يعلم أنّه لا يمكنه الاعتماد إلا على نفسه. ولمّا وصل إلى باب الشقّة، قرع الجرس مرّات عديدة، لكنّ لا أحد فتح الباب رغم صوت الموسيقى المنبعث من الداخل الذي يصمّ الآذان. طرق الباب إلى أن انتصب أمامه شاب أسود، ورشقه بنظرة عدائية.

- ماذا تريد يا رجل؟

- ألأنت هو سيروس؟

- ربّما.

- أبحث عن جودي كوستيللو. أهي معك؟

فأجابه سيروس بفظاظة:

- لا أعرفها.

- لا تهزأ بي، أنا أعرف أنّك تبيعها قذاراتك.

- اغرب من هنا وإلا هشّمت وجهك. أنا لا أعرف أحداً بهذا الاسم.

همّ بأن يغلق الباب، لكن سام اعترضه برجله بحركة سريعة:

- قلْ فقط أين توجد يا سيروس.

لكن مروج المخدرات لم يكن مستعدّاً للتعاون معه. عاد إلى الخلف ورفع رجله ثمّ وجّه ركلة قوية لسام قذفته ليرتطم بجدار الممرّ.

- اللعنة! اغرب!

شتمه وهو منتشٍ بتطبيق ما تلقنه في حصص الكيكبوكسينغ، ثمّ صفق الباب خلفه.

نهض سام واقفاً وهو يشعر بالإهانة وبألم حادّ في يده. لقد أصابته الركلة في الكبد، فأحسَّ بما يشبه الاختناق. وسمع وقع أقدام على الدرج.

بادرته غريس ساخرة:

- يخيّل إلي إذن أن أسلوبك بلغ حدوده.

ردّ سام وهو ينفض الغبار عن معطفه:

- إنه لا يؤتي أكله دائماً.

- بما أننا مستعجلين، سنستعمل أسلوبي إن سمحت.

- لست أعترض.

قالت وهي تُخرج سلاحها من غمده:

- اعذر رعونته.

وقفت أمام الباب وأطلقت طلقتين متقاربتين فجّرتا القفل، ثمّ وجّه سام ركلة للباب فانفتح ودخل في إثر غريس.

26

سأرتمي في السعير لكي أحميك...

مقتطف من فيلم «العرّاب» لفرانسيس كوبولا

شعرت جودي بنفسها متجمّدة. لم يكن معطفها المهلهل كافياً لحمايتها من البرد لا سيما وأنّها تتصبّب عرقاً بارداً. كما أنّ سروالها الجينز كان ملتصقاً بلحمها لأنّها تبوّلت لما التقت بالعقاب. كانت من شدّة ارتعاشها تشعر بجسدها كما لو أنّه يذوب.

- مرحباً جودي.

رفعت عينيها مرعوبة: إنّه مارك روتيللي. كان يتقدّم نحوها وقد حشر يديه في جيبيه. كان بودّها أن تحذّره، أن تنهاه عن الاقتراب والتحدّث إليها، لأنّ العقاب يراقبهما، وأنّهما معرَّضان للانفجار.

جلس روتيللي على المقعد المجاور حتّى لا يجعلها تهرب منه، ولاحظ فوراً الحالة القذرة التي كانت عليها.

بادرها قائلاً:

- كيف حالك؟

ظلّت متسمّرة في البداية، ثمّ أومأت برأسها، فلاحظ روتيللي أنّها تبكي.

- هل أستطيع مساعدتك يا جو؟

قالت وهي تنتحب:

- أظن... أنّني محمّلة بقنبلة...

- قنبلة؟

- نعم... مشدودة إليّ...

- ماذا تقولين؟

- حول خصري.

هزّ روتيللي رأسه ثمّ قال وهو ينهض واقفاً:

- دعيني أرى.

همّ بالاقتراب من المقعد، لكنّها طلبت منه عدم الاقتراب. كان يلوح في عينيها هلع أربك الشرطي ودفعه إلى الجلوس من جديد.

حاول أن ينظّم أفكاره. فحكاية القنبلة هذه لا تستقيم. من الواضح أنّ جودي تهذي. لعلّها تناولت جرعة زائدة مثل كثير من الحالات التي رآها على امتداد مشواره المهني. إن شاء مساعدتها، فالتصرّف الحكيم هو أن ينادي على سيارة إسعاف. وفي اللحظة التي همّ فيها ببث ندائه عبر الراديو، نظر إلى عينيها، وهو أمر كان يتجنّبه دائماً لأنّ نظرتها تشبه نظرة غريس، فشعر بالألم.

كانت عيناها الصافيتان متّقدتين، كما لو أُضرمت النار في البحر. كانت تمتزج فيهما الدموع بالخوف والمخدرات وقلّة النوم، لكن روتيللي قرأ فيهما، فضلاً عن كل هذا، رسالة أو نداء:

أنقذني!

*

أهوى العقاب بقبضته على الطاولة من الحنق. مَن يكون هذا الشخص الذي يتحدّث إلى جودي؟ تبّاً! كان عليه أن يجهّزها

بميكروفون حتّى يسمع ما تقول! لكن من شدّة اهتياجه تعجَّل وكاد ينسى القواعد الأساسية. نقر وقد استشاط غضباً على لوحة المفاتيح بعض التعليمات حتّى يسوّي الكاميرا التي كانت مصوّبة على الصبية، فلاح له في خلفية الصورة خيال روتيللي، قطّب حاجبيه وحدّق بعينين نصف مغمضتين. هل تعرف جودي هذا الرجل؟ لا بالتأكيد. لا شكّ أنّه أحد أولئك المنحرفين الذين يغرّرون بالفتيات القاصرات في الحدائق...

لكن يبدو أنّ الحديث بينهما طال أكثر من اللازم. تردّد العقاب، ونظر إلى شاشاته الأخرى. كان العرض المسرحي على وشك أن يبدأ، وكان الناس يحتشدون حول النافورة أكثر فأكثر. وقال في نفسه وهو يتحسّس الصاعق بيد مرتعشة: لم تفضُل غير دقيقتين.

*

- أتظنّين أنّه يراقبنا؟

هزّت جودي رأسها موافقة بشكل لا يكاد يلحظ.

حكت للشرطي تلميحاً ما عاشته في الساعات الأخيرة: كيف خطفها المروّج وسلّمها للعقاب.

- أتظنّين أنه موجود في مكان قريب؟

أومأت برأسها، فلم يفهم روتيللي شيئاً:

- كيف يرانا إذن؟

- بواسطة الكاميرات.

جال روتيللي ببصره في المكان، ثمّ قال:

- أي كاميرات؟ لا توجد كاميرات هنا.

- كاميرات ويب...

غمغم روتيللي تعبيراً عن تذمّره، فهو عاجز عن إدراك معنى كاميرا ويب، لقد توقّف عن متابعة التطورات التكنولوجية منذ عشر سنوات خلت. الهواتف النقالة، حواسيب الجيب، الرسائل الإلكترونية، الوي في... لم يكن لها كلّها مكان في حياته. وتذكّر ما قاله له ديلغاديو قبل قليل: لعلّه محق حين صرّح إن روتيللي «عفا عنه الزمن»، وهي ملاحظة زادت من عذابه.

قالت جودي بغتة وهي تحاول تمالك نفسها حتّى لا تبكي:

- المعذرة.

- لماذا الاعتذار؟

- عذراً على أنّني لم أثق فيك من قبل...

شعر الشرطي بقلبه يعتصر، ذلك أنّه هو أيضاً كان يعذّبه الندم.

- ليس الخطأ خطأك يا جودي، إنّه خطئي. لم أعرف كيف أحميك. كان عليّ أن أكون أكثر حضوراً في حياتك.

قالت الفتاة معتذرة:

- لم أترك لك فرصة لذلك.

والتقت نظراتهما من جديد، فشعر روتيللي كما لو أنّ قوة مجهولة حلّت بداخله.

- سأخرجك من هذه الورطة، ولكن عليك أن تخبريني أولاً أين يختبئ هذا النذل. أتعرفين عنوان مستودعه؟

تنبّهت جودي بذهول إلى أنّها لا تعرف مقرّ سكن العقاب على وجه الدقّة، ذلك أن سيروس تجوّل بها وهي في صندوق السيارة قبل أن يعتقلها في حجرة مظلمة بلا نوافذ. حاولت أن تتذكّر، لكنّها كانت مرهقة ذهنياً وجسدياً. كانت تشعر بصداع نصفي يشلّ دماغها لم يسبق لها أن شعرت بمثله قطّ.

تمتمت قائلة:

- لم أعد أذكر...

فقال روتيللي مشجّعاً:

- حاولي.

ركّزت جودي وهي تعي أن بقاءها يتوقف ربّما على هذه المعلومة، وحاولت أن تستمدّ القوة من أعماق أعماقها، من أماكن لم يسبق لها أن ارتادتها سابقاً، لكنّها كانت منهكة.

- أظنّ... أظنّ أنّه واقع في مكان ما بترافيرس روود، شرق هايد بيرس.

- ينبغي أن يكون تحديدك أدقّ.

- لست أدري... لم أعد أدري.

حاول روتيللي ألا يظهر خيبته، فقام واقفاً ليلتحق بسيارته وقال:

- طيّب، سأحاول الاعتماد على هذه المعلومة، ولكن عليّ أن أسرع.

فقالت جودي:

- أشعر بالخوف من البقاء وحيدة.

- أعلم، لكن لا تتحرّكي. سأعود بسرعة.

لم يكن في حياته العادية موهوباً في مواساة الناس، ولا سيّما إذا تعلق الأمر بفتاة صغيرة تعيش محنة حقيقية. غير أنّ الكلمات التي تلفّظ بها خرجت من فمه مع ذلك بسلاسة:

- اسمعي، في انتظار عودتي، قومي بجرد كل الأمور التي تودّين تحقيقها قبل بلوغك العشرين. مفهوم؟

حرّكت رأسها موافقة.

- ولما سينتهي هذا الكابوس، سأساعدك على استدراك الزمن الضائع. أعدك بذلك.

*

أشار سيروس بصوت متهدّج:

- إلى اليمين.

كان مروّج المخدرات جالساً في المقعد الخلفي لسيّارة الدفع الرباعي وسلاح غريس مصوب على صدغه. بعد استنطاق عسير، أقنعته بأنّ يقودهما إلى مخبأ العقاب.

سأل سام:

- ثمّ، إلى أين أتوجّه؟

- سِرْ في الاتجاه نفسه ثمّ انعطف شمالاً عند الشارع الثاني.

شغّل سام ماسح الواقية الأمامية لكي يزيح عنها الثلج الذي شرع في التراكم. ودخلت السيارة الرباعية الدفع في زقاق تصطفّ بجنباته مجموعة من المخازن.

سألت غريس:

- هنا؟

- نعم، المرآب الموجود في أقصى اليسار.

تقدّم سام ببطء محافظاً على مسافة آمنة إلى أن بلغ الباب الآلي. ثمّ قال ملاحظاً:

- يلزمنا قنّ. أتعرفه؟

- كلا، هو من يفتح لي الباب لمّا يكون عالماً بمقدمي.

- أعطنا القن؟

رفعت غريس زناد المسدس، وأدخلت بتصميمٍ فوهته في فم سيروس.

- هيّا، أعطنا القنّ!

رفع المروّج يديه دلالة على الاستسلام.

- أمنحك ثلاث ثوان. واحد... اثنان... ثلاث...

هتف سام:

- توقّفي، إنه يقول الحقيقة.

- كيف عرفت؟

- إنني طبيب نفسي، وأستطيع تمييز الشخص الذي يكذب.

- لست مقتنعة بما تقول.

لكنّها سحبت مع ذلك فوهة المسدس من فم سيروس.

- تعال معي.

ترجّلت وهي تسحب الشاب الأسود. أوقفته بمواجهة السيارة وفتّشته بحثاً عن هاتفه الخلوي.

- ما رقم العقاب؟

ردّ سيروس كاذباً:

- لست أعرفه، هو من يخطرني لمّا يتوصل بالبضاعة.

مدّت غريس الهاتف لسام الذي راجع بسرعة سجل الأرقام، لكنّه لم يعثر لرقم العقاب على أثر.

رمت غريس الهاتف أرضاً وهشمته بقدمها، والتفتت إلى سيروس قائلة:

- هيا، اغرب من هنا.

- هل... هل أستطيع...؟

- إنْ حاولت إخطاره، سأبحث عنك وأقتلك. مفهوم؟

- نعم سيدتي.
لكن سام لم يكن موافقاً على تصرّفها.
- إنّه مروّج مخدرات يا غريس، ألا نوقفه؟
- لست ضابط شرطة يا غالواي.
- ألست أنت ضابطة شرطة؟
- دعه عنك. لسنا هنا من أجل هذا.
وبينما كان سيروس ينسحب، أضافت غريس:
- لا يستطيع الأطباء أن ينقذوا كل الناس مثلما لا يستطيع رجال الشرطة أن يوقفوا كل الجناة. هكذا هي الأمور.
- ماذا تقترحين الآن؟
دارت غريس حول السيارة بمهل وهي تفحصها كما لو كانت ستشتريها. إنّها سيارة رباعية الدفع من النوع الفاخر، أنيقة المظهر، لكنّها متينة، أشبه ما تكون بالسيارات العسكرية. دقّقت غريس النظر في الواقية المعدنية الحادة الضخمة في مقدمتها التي تنزل بشكل عمودي بين المصابيح الأمامية المربّعة. تأمّلت أيضاً عرض إطارات السيارة وارتفاع مقاعدها: كلّ شيء فيها يجعلها تبدو متينة وصلبة كما لو أنّها متأهبّة للصدام.
سألت غريس:
- كم ثمن سيارة كهذه؟
- غالية جداً، ولعلمك، لم أُنهِ بعد أداء أقساطها.
- شيء غريب، لم أتصورك بسيارة كهذه.
بدا الارتباك في نظرات سام، فقال معترفاً بصوت متلعثم:
- اشتريتها هكذا... يوم زفّت لي فيديريكا حملها. كنت فَرِحاً بحيث هرعت لأوّل وكيل لبيع سيارات صادفته، كما لو أنّ شراء

سيارة كبيرة سيمنحني أسرة كبيرة تناسبها. اشتريتها وأنا أتخيّل نزهات عطل نهاية الأسبوع والعطل العائلية بالحدائق الوطنية... يا لها من فكرة بليدة، أليس كذلك؟

- كلا يا سام.

ربتت على كتفه لمواساته، ونظر سام إلى سيارته نظرة حالمة وقال:

- أعرف ما تفكّرين به يا غريس. وأنا موافق عليه.

- حسناً، لا داعي لإضاعة الوقت إذن.

- ثمّ صعدت إلى السيارة، وركبت بجانبه. عاد إلى الخلف بحيث يستطيع الانطلاق بأقصى سرعة، لا سيما وأنّ السيارة كانت مجهّزة بمحوّل بثماني سرعات بسعة 4,4 لترات، وبأقوى محرّك لم يسبق أن جُهّزت به سيارة لاند روفر من قبل.

كان يوجد على لوحة القيادة زرّ يسمح باختيار طبيعة الأرض التي تسير عليها السيارة، فحوّل سام المؤشر من أرض عادية إلى أرض وعرة، وضبط نظام الإعدادات الأنسب بالنسبة إلى النوابض والقوة ومقاومة الانزلاق.

- كنت أعلم أنّ هذه السيارة ستصلح لشيء ما في يوم من الأيّام، طالَ الزمن أم قصر.

ثمّ ضغط على دواسة السرعة، فانطلقت السيارة بوزنها الذي يناهز الطنّين بسرعة فائقة ككبش جبّار لترتطم بالباب المعدني.

*

كان العقاب مفتَتِناً بالصور التي تتعاقب أمامه، ذلك أنّ ساحة واشنطن كانت أحد الأماكن الأكثر ازدحاماً بالمدينة، وكان هذا

الازدحام يبهره، هو الذي لم ينجح يوماً في أن يشعر بنفسه حيّاً. كان منتشياً بوجود كلّ هؤلاء الناس، ويتأمّل كل تفصيل من التفاصيل مهما صغر: لون شعر هذه الطالبة، ابتسامة تلك الأمّ لطفلها، الخطوات الراقصة لفناني الراب هذين...

أغلق عينيه لهنيهة وراح يتخيّل ما ستنتهي إليه الأمور. سيُسمع الانفجار على مدى كيلومترات محدثاً صدمة عنيفة. سيبدو الذهول في أوّل الأمر على وجوه الناس، ولن يفهموا كيف عصفت الحرب بحياتهم الآمنة. ثمّ ستتراءى الأشلاء المتناثرة في كل مكان، وسيتعالى الصراخ والعويل من كل جانب، ويفرّ الناجون من الموت مرعوبين في شتى الاتجاهات وقد علا الدم وجوههم.

كانت صور المذبحة المروعة تتوالى في مخيلته تدريجياً، كما لو أنّها وقعت فعلاً.

كان كلّ شيء واقعياً تماماً: فتاة صغيرة تصرخ وهي عالقة تحت المقعد: ماما! ماما! شاب ينهض واقفاً بعد أن قُذف على النافورة فتهشّم رأسه. امرأة تهتزّ من النحيب بعد أن لاحظت مذعورة أنّها فقدت ساعدها.

يتناثر الموتى والجرحى في كل مكان، وتعمّ فوضى عارمة يتعذّر وصفها، ويخيّم على المكان جوّ من الخراب الشامل.

ستخيم المصيبة على الجميع، وستكون من الضخامة بحيث لن تُنسى أبداً.

أهو مجنون؟ لا شكّ في أنّه كذلك. لكن، ماذا سيغيّر هذا؟ بعد تفكير مليّ في الأمر، انتهى كلارانس إلى خلاصة مفادها أنّ المجتمع في حاجة إلى أناس مثله. ذلك أنّ الإنسانية بحاجة إلى كبار المجرمين، لا لشيء إلا لكي يُفهموها معنى الشر، لأنّ الشر هو الذي

يسمح للخير بأن يوجد. فلولا المرض لما وجد الأطباء، ولولا الحرائق لما وجد الإطفائيون، ولولا العدو، لما وجد الجنود. . .

قال في نفسه: أجل، الشر وحده هو ما يُشرع الباب للخير.

*

أعاد سام الكرّة مرات عديدة قبل أن يفسح له الطريق. ففي المحاولة الثالثة تكسّرت أخيراً دعائم الحاجز المعدني، فعبرت سيارة اللاند روفر إلى داخل المخزن.

قفز العقاب من مكانه لمّا سمع صوت الصدمة من فوقه. الشرطة؟ كيف اكتشفت مكانه؟ ألقى نظرة على شاشة مراقبة المكان، فأيقن بأنّه محاصر، لكنّه لاحظ بارتياح أنّه لا توجد إلا سيارة واحدة، وأنّ من على متنها ليسوا من الشرطة.

تناول مسدساً أوتوماتيكياً من أحد الدواليب وهو ناقم على مَن أزعجوه، ومصمّم على جعلهم يندمون على ذلك.

نزل سام منحدر المخزن المرصّف بسرعة، وبلغ موقف السيارات التحت أرضي. كان الظلام مخيّماً على المكان، فهمّ بإشعال أنوار السيارة، لكن غريس نهته عن ذلك حتّى لا ينكشفا. أوقف المحرّك، فإذا بوابل من الرصاص يكسّر الزجاج الأمامي للسيارة، فتطايرت شظاياه.

صاحت به غريس وهي تجذبه إلى الأسفل:

- انحنِ.

لعلع الرصاص من كلّ جانب مصدراً ضجّة تصم الآذان.

ظلّت السيارة مسمّرة في وسط موقف السيارات. ألقت غريس نظرة على سام، فلاح لها وجهه شاحباً.

همست قائلة:

- امكث هنا!

كانا متكوّمين تحت المقعدين، ففتحت غريس الباب من دون حسّ وهي تشهر مسدّسها ثمّ تدحرجت على الأرض.

وانهال وابل من الرصاص على السيارة من جديد.

نجحت في أن تتسلّل داخل تجويف من الخرسانة ثمّ أطلقت بعض العيارات النارية. ساد صمت مفعم بالتوتّر على موقف السيارات لهنيهة ثمّ سُمع فجأة وقع خطوات على الإسفلت. خاطرت غريس بأن خطفت نظرة خارج مخبئها، فرمقت طيف العقاب وهو يفرّ هارباً عبر الممر. صوّبت ثمّ أطلقت النار، لكنّها أخطأته. تركت مخبأها وتقدّمت بدورها بحذر باتجاه الممرّ الذي كان ينيره ضوء خافت لا يسمح بتمييز غير شعاع دقيق خلف الباب.

تمطّى سام وهو لا يزال في السيارة ليتناول معطفه الموضوع على المقعد الخلفي. بحث في جيبه وأخرج هاتفه النقال. عليه أن يتّصل بالبوليس في أسرع وقت ممكن، لكنّه لم يتمكّن من تمييز الأزرار بوضوح في الظلام. ضغط على أحد الأزرار لكي ينير الشاشة، إلا أنه لم يتبيّن شيئاً. اللعنة! نسي شحن بطارية هاتفه. تنبّه إلى أنّ البطارية فارغة بالأمس وهو في بيت ليونار ماكوين، لكنّه لم يكن يحمل معه الشاحن. شعر بندم مرير على تهشيم هاتف سيروس ببلادة، ولم يفكر في الاحتفاظ به.

ترجّل إذن هو الآخر من سيارته. كيف سيساعد غريس؟ حملق في الظلام، فأبصرها على بعد عشرين متراً منه تقريباً. كانت تتقدّم لوحدها في ظلمات الممرّ بإقدام وشجاعة قاصدة ذلك الباب المفتوح الذي قد تكون جودي محتجزة فيه. استبدّ القلق بسام، ذلك أنّ

غريس تخاطر بالتقدم مكشوفة هكذا. لا شكّ في أنّ العقاب ينتظرها مختفياً خلف الباب، متأهّباً لصبّ وابل رصاصه عليها. إن المعركة غير متكافئة: فمسدّس المجرم من النوع الأوتوماتيكي الذي يسمح بإطلاق سيل من الرصاص، في حين لا تملك غريس غير مسدّس الخدمة.

ولمح سام فجأة طيفاً يتحرّك خلف غريس، فشعر بقلبه ينخلع. كان العقاب لابِداً في فجوة عميقة بالجدار بحيث تجاوزته غريس دون أن تراه، فسقطت بذلك في الفخ الذي نصب لها. فتح سام فمه ليحذّرها، لكنّه لم يستطع النطق.

بادرها العقاب:

- أتبحثين عنّي؟

تسمّرت غريس في مكانها لبرهة من أثر المفاجأة قبل أن تستدير بكلّ ما أوتيت من سرعة، لكنّ الأوان كان قد فات. ضغط العقاب على الزّناد، فارتمت غريس أمتاراً إلى الخلف وقد مزّق الرصاص جسدها.

فصرخ سام:

كلا!

وكما لو أنّ المشهد صوّر بحركة بطيئة، اندفع سام نحو العقاب، مستفيداً من أثر المباغتة، ووجّه له لكمة قوية طرحته أرضاً، فانفلت المسدس من يده، ثمّ أمسك سام برقبته ليوجه له ركلة، لكن المجرم أفلت منه، ووجه ضربة إلى قدميه حتّى يفقده التوازن ويسقطه أرضاً هو أيضاً. قام الرجلان في الآن نفسه، ووقفا متواجهين وهما مستعدّان للقتال. كان سام قد نسي خوفه بفعل الغضب. فقد كانت جثّة غريس ممدّدة على ظهرها عند قدميه.

ورغم أنّه لم يتعارك منذ مدّة طويلة، فإنّ الغضب جعله يبادر بالهجوم، ويوجّه للعقاب سلسلة من اللكمات تمكّن العقاب من صدّها قبل أن يدافع عن نفسه بضربة من مرفقه أصابت سام في صدغه. ردّ الطبيب بركلة قويّة أصابت خصمه، فتظاهر بأنّه يتلوّى من الألم. إنّه يدير له ظهره الآن، فبدا لسام أن الفرصة مواتية للإجهاز عليه، لكن ستيرلينغ طوى رجله ووجه للطبيب ركلة أفقدته توازنه.

إثر ذلك استغل العقاب تفوّقه، فطوى ركبته وهوى على قصبة سام بكعبه بكل ما أوتي من قوة، فسقط الطبيب أرضاً وهو يصرخ من الألم، كما لو أنّ عظم رجله انكسر: ثمّ شعر بضربة مرفق تهشّم كتفه، فكانت تلك هي الضربة القاضية.

قال العقاب وهو يستعيد مسدّسه:

- إنّها ضربة في الصميم، أليس كذلك؟

يسمّي اليابانيون هذه الضربة فيموكومي. إنّها تصلح أيضاً لتهشيم ركبة الخصم أو كعبه...

أمسك سام وهو مطروح أرضاً بقصبة رجله لعلّه يخفّف من الألم الذي يشعر به. كان الظلام لا يزال مخيّماً في المرآب، فأدار العقاب مفتاح النور ليرى وجه أسيره قبل أن يطلق عليه النار. ذلك أنه كان من المهمّ لديه أن يرى الأذى لحظة إلحاقه.

سطع في المستودع ضوء باهر اضطرّ سام إلى إغلاق عينيه وهو مرتعب. أسيموت إذن وحيداً بشكل مجّاني ووحشي بطلقة في الرأس داخل مخزن قذر ببرونكس؟ إنّه أمر في منتهى القساوة! وهو غير مستعدّ له. فقد استيقظ ذلك اليوم وهو إلى جانب جولييت، ولم يخطر بباله قطّ أنّه سيكون آخر يوم في حياته. لن يكون بالطبع أوّل من فارقوا الحياة وهم في أوج عنفوانهم، لكنّه عزاء لا يخفّف من

المصاب شيئاً. كان يشعر بخوف شديد كما لو أنّ قلبه يقفز إلى حلقه.

لكن العقاب ما زال لم يطلق النار.

فتح سام عينيه مستجمعاً ما بقي لديه من شجاعة، فحريّ به أن يواجه الموت بإقدام. تبيّن لأوّل مرّة بوضوح وجه خصمه، ولاحظ بذهول أنّه يعرفه.

- إنّه كلارانس ستيرلينغ!

لما ذكر سيروس اسم الرجل الذي سلّمه جودي، لم يشِر إلى اسمه الحقيقي، مكتفياً في كلّ مرّة بتعيينه بلقبه المروع.

ومثلما تعرّف سام على غريمه، تعرّف العقاب عليه أيضاً.

- ها ها ها!... غالواي...

قام سام واقفاً ببطء، وتسارعت في ذهنه كل الذكريات. لم يرَ ستيرلينغ إلا مرّة واحدة في حياته قبل عشر سنوات، لكنّه لم ينسَه قط.

بعد تلاشي الدهشة الأولى، لاحظ العقاب:

- إنّني أعرفك مثلما تعرفني أنت أيضاً...

إنّه كلارانس ستيرلينغ القاتل المحترف الذي أجّره للتخلص من داستفاس. لم يكن ستيرلينغ آنذاك غير وغدٍ حقير من أوغاد الحي، رغم أن الناس كانوا يخشون بطشه.

- ... لست بحاجة إذن لقتلك. هيّا، انهض وتقدّم!

وقف سام وشرع يتقدّم تحت تهديد المسدّس.

بعد لقائه الفاشل مع داستفاس، اقتنع بأن ذلك المجرم لن يتركهما بأمان هو وفيديريكا، ولن يقرّ له قرار حتّى يقضي عليهما. أجال هذه الفكرة في ذهنه مئات المرات قبل أن يرضخ لحكم الواقع:

السبيل الوحيد لبدء حياة جديدة هو تصفية داستفاس. كان الناس في الحي يتهامسون أسماء بعض من هم مستعدّون للتعاقد من أجل القيام بمثل هذه المهمة. تناول سام إذن الخمسة آلاف دولار التي كان قد ادّخرها، وعرضها على كلارانس ستيرلينغ. ولم يكد يمضي يومان حتّى فارق داستفاس الحياة. لم يعرف أحد يوماً أنّ سام كان وراء مقتله، بما في ذلك الأب باويل وفيديريكا. كان ذلك قراره هو، ومسؤوليته. وكان يؤدّي ثمن ذلك كلّ صباح لمّا ينظر إلى نفسه في المرآة بينما يحلق وجهه. إنّه ثمن الدم.

بلغ الرجلان نهاية الممرّ، وشرعا في صعود السلم الحديدي الذي قادهما إلى ما يشبه المكتب، وقد كان سام مقتنعاً بأنّه سيجد جودي مقيّدة في أحد زواياه، لكنّه لم يجد عوض ذلك غير حاسوب بشاشات متعدّدة. عاد العقاب إلى مقعده وأومأ لسام لكي يجلس على مبعدة منه.

- ستكون بصحبتي في الصفوف الأمامية! افتح عينيك وانظر، ستسلّى جيّداً!

أبصر سام على الشاشة الرئيسة جودي جالسة على مقعدها، وفي الخلفية، تعرّف على ساحة واشنطن، لكن دون أن يدرك خطورة الموقف.

قال العقاب:

- سنبدأ!

حاول سام أن يستجمع قواه ويرتمي على المجرم، لكن الإصابة أعاقته، إذ لم يكن يقوى على الحركة السريعة.

كان لستيرلينغ الوقت الكافي لكي يراه يقترب منه، فأمسك بالمسدس الذي بمتناول يده وصوّبه على الطبيب.

- واأسفاه عليك!

ووضع سبابته على الزناد وضغط، فكسرت طلقة أولى الصمت المخيّم على المستودع، ثمّ أتبعها بأخرى دوّت كما لو كانت صدى للأولى، فشعر سام بكتفه ينفجر وتطاير الدم على وجهه، لكنّه لما رأى العقاب يسقط صريعاً عند قدميه أدرك أنّ الطلقتين لم تكونا من مسدّسه.

تهاوى الطبيب من الإنهاك والألم وهو يحملق ويده تضغط على الجرح.

كان مارك روتيللي يقف في فتحة الباب وهو ينظر إلى يده اليمنى التي تمسك بعقب سلاحه.

يدٌ لم ترتعش.

تقدم ببضع خطوات داخل الحجرة وتأكّد من أنّ سام لم يكن مصاباً إصابة خطيرة، ثمّ تقدم من جثة العقاب وأطلق عليها طلقتين أخريين، كما لو أنّه يتخلص بذلك من سنوات من المعاناة والحزن. كانت تُسمع في البعيد صفارات سيارات الشرطة والإسعاف.

مرّ روتيللي خلف المكتب فاكتشف الترسانة المعلوماتية التي كانت تسمح للعقاب بمراقبة ضحاياه. تفحّص الشاشة الرئيسة، فلاحت له عينا جودي في مشهد مكبّر كما لو أنّها كانت تنظر إليه، فدنا من الشاشة وهمس:

- انتهى الأمر. . . سيكون كلّ شيء على ما يرام الآن.

27

... كلّ واحد يحمي الآخر من بقيّة العالم، ويمثّل كلّ واحد بقيّة العالم بالنسبة إلى الآخر.

فيليب روث.

مستشفى سان ماتيوس - مصلحة الطوارئ،
الثامنة وست وأربعون دقيقة صباحاً

- لا تتحرّك يا دكتور غالواي.

أنهت كلير غولياني، وهي طبيبة داخلية شابّة بمصلحة الطوارئ، تضميد كتف سام الذي ارتدى منامة المستشفى بالمناسبة. استجاب لطلب زميلته وكفّ عن التخبّط في سريره وقد أغمض عينيه. فبعد دويّ الطلقات النارية، حلّ صمت المستشفى. ذلك أنّ حشداً من رجال الشرطة والإطفائيين اجتاحوا المستودع إثر مصرع العقاب بدقائق، ودون أن يطلب أحد رأيه، سيق إلى المستشفى الذي يعمل به لكي يخضع لجملة من الفحوص والكشوفات.

قالت كلير معلقة:

- لقد حالفك الحظّ، فالرصاصة اخترقت عِلباءك دون أن تمسّ العظم. لكن عليك بالمقابل أن تقوم بفحوص جرثومية في الأيّام القليلة القادمة: لقد تمزّق النسيج العضلي و...

- كفى، لا تنسي أنني طبيب أيضاً. وماذا عن كعبي؟
فناولته نتائج التصوير بالأشعة.
- لم يتكسّر، لكن أوتاره تعرضت لالتواء شديد. وكونك طبيباً لن يعفيك من الراحة لمدّة أسبوعين، لكن إن لزمت الهدوء، وضعت على كعبك ضمادة ضاغطة...
مطّ سام شفتيه وأشاح بوجهه، لكن أنبوباً بلاستيكياً مغروساً في ساعده أعاق حركته، إلا أنه لم يمنعه من رؤية العملاق الذي كان يحرس الباب المواربة.
- إنّي بحاجة إلى خدمة يا كلير.
- فسألت الشابة وهي تزيل كيس الثلج الموضوع على كعب مريضها:
- وماذا سأكسب بالمقابل؟
- تشكّراتي الخالصة.
- مع عشاء عند جان جيورجيس[1]. يُقال إن تحليتهم مذهلة.
- موافق، اذهبي لتتعشّي هناك.
وبينما أومأ بأصبعه لعنصر الشرطة الفيدرالية، دخلت ممرّضة حاملة عكازين، فاغتنم الشرطي فرصة دخولها ليلج هو أيضاً إلى الحجرة. كان رجلاً فارع الطول، عريض المنكبين، بتسريحة واقفة كالفرشاة شأن الكثير من زملائه. تقدّم من السرير وأشهر بطاقته لكي يؤكّد أن دخوله قانوني.
- مساء الخير سيد غالواي. أنا الضابط هانتر. أعلم أنّها لحظة عسيرة بالنسبة إليك، لكنني مضطرّ لأن أطرح عليك بعض الأسئلة.

---

(1) مطعم فرنسي شهير يقع قرب سانترال بارك. (المؤلف)

فأجاب سام متظاهراً باستعداده للتعاون مع الضابط:

- أنا في خدمتك.

تدخّلت كلير بدورها وقد خمّنت ما كان يهمّ سام بأن يطلب منها، فقالت بنبرة صارمة:

- إنّه أمر غير ممكن الآن نظراً إلى خطورة إصابات المريض. فهو بحاجة إلى الراحة التامة.

فردّ هانتر:

- ستكون أسئلتي مقتضبة للغاية، كلّ ما أريده منه بعض التوضيحات لمقارنتها بتصريحات الضابط روتيللي.

فقالت وهي تدفعه إلى الخارج:

- إنّني أعترض على هذا تماماً.

لكن هانتر لم يبدِ استعداداً لمغادرة الحجرة.

- امنحيني ربع ساعة.

- كلّ ما يمكن أن أعطيك إياه هو الأمر بالمغادرة.

فقال محتجّاً:

- إنّك تهدّدين رجل شرطة فيدرالي.

فأجابت الطبيبة الشابة بلهجة قاطعة:

- وهو كذلك. فالسيد غالواي تحت مسؤوليتي، وحالته لا تسمح باستجوابه الآن. أطلب منك إذن ألا تلحّ.

فردّ هانتر حانقاً من رفض هذه المرأة الضئيلة طلبه:

- حسناً إذن...

- أخطرني بقدومك في المرّة القادمة حتّى أستقبلك بالورود!

خرج هانتر وهو يغمغم باللعنات، متأسّفاً على العهد الذي كانت النساء فيه تعرفن قدرهن، وهو غير بعيد.

بمجرّد ما خرج الشرطي، أزاح سام الملاءات، وجلس على حافّة السرير ثمّ نزع أنبوب الحقن من ذراعه.

- ماذا تفعل؟

- سأعود إلى بيتي.

- عدْ إلى السرير فوراً، من تعدّني؟ جاك بوور[1]؟ لن أسمح لك بمغادرة المستشفى.

دفع سام العربة التي كانت عليها أدوات الجراحة، وتناول ملابسه.

- أنا مستعدّ لأن أوقّع لك إبراء الذمة إن كان هذا يطمئنك.

ردّت كلير حانقة:

- المسألة ليست مسألة إبراء ذمّة، بل مسألة حكمة: فقد كدتَ أن تفقد حياتك، وكتفك وكعبك في حالة بالغة السوء، والساعة الآن تشير إلى التاسعة مساء، ثمّ إن الحرارة بالخارج تنزل عن الصفر بعشر درجات... ماذا بوسعك أن تفعل عدا أن تلزم الفراش؟

أجاب سام وهو ينتصب واقفاً:

- لقاء امرأة.

قالت كلير بنبرة مستغربة:

- امرأة! أتظنّ أنّها ستجدك جذاباً بعكازتيك وضماداتك؟

- ليس هذا هو المهم.

- ومن تكون هذه المرأة؟

- لا أظنّ أنّ الأمر يعنيك.

---

(1) Jack Bauer شخصيّة خيالية، وهو بطل السلسلة التلفزيونية الشهيرة 24 ساعة كرونو. (المترجم)

- ماذا لو قلت لك إنّ الأمر يعنيني!

- إنّها امرأة فرنسية...

فقالت كلير مازحة:

- لا ينقص غير هذا! الليلة الوحيدة التي أردت أن أستفرد بك فيها ها أنت تخونني مع فرنسية...

ردّ سام على ابتسامتها بالابتسام، وتوجّه ببطء إلى الباب.

- شكراً على كلّ ما فعلته معي يا كلير.

قادته عبر الممرّ وانتظرت إلى أن دخل إلى المصعد قبل أن تسأله:

- اشرح لي أمراً أخيراً يا سام!

- ما هو؟

وتلاقت نظراتهما في اللحظة التي شرع فيها الباب ينغلق.

- لماذا يحالف الحظّ دائماً الناس نفسهم؟

*

انفتحت أبواب المصعد على باحة المستشفى. كان المكان محاطاً بكامله بالزجاج ومزيّن بالنباتات بحيث يبدو كحديقة شتوية. عبَر سام الفناء وهو يعرج ليلتحق بالمصلحة التي تأوي جودي. كان يريد أن يطمئنّ على الفتاة قبل أن يلحق بجولييت.

وقف لهنيهة يتأمّل الثلج من خلال زجاج النافذة. كان مغرماً بالمستشفى ليلاً، لمّا تنتهي جلبة النهار. كان يعرف البناية عن ظهر قلب، لأنّها كانت فضاءه، المكان الوحيد في العالم الذي يشعر فيه بأنّه في موضعه، بأنّه ذو جدوى.

دفع باب الغرفة الموجودة في أقصى أحد الممرات التي دلّته عليها إحدى الممرّضات.

كانت جودي تنام نوماً مضطرباً، وبجوار سريرها وقف روتيللي قرب كرسي وقد شبك يديه. كانت عيناه متّقدتين وهو لا يزال متأهّباً ومتوثّباً للارتماء من جديد على كلّ خطر يمكن أن يهدّد محميّته.

استقبل روتيللي سام بعناق صامت، ذلك أنّ الرجلين لم يتبادلا الحديث منذ مصرع العقاب بالرصاص، لكنّهما كانا يدركان معاً أنّ رابطاً خفيّاً نشأ بينهما منذئذٍ. وتساءل روتيللي عن جروحه بتقطيب حاجبيه، فأومأ سام برأسه كمن سبق له أن تلقى إصابات أخطر.

ثمّ تقدم الطبيب من الفتاة التي كان جسدها مسجّى بملاءة بحيث لم يكن يظهر غير وجهها الشاحب.

وكان ضوء خافت مسكّن ينبعث من مصباح موضوع على منضدة السرير. وبطريقة آلية تأكّد سام من أنّ المزرقة كانت مثبتة على النحو المطلوب، واطّلع على الكشف الصحي المعلّق على السرير.

قال روتيللي هامساً بقلق:

- ينبغي أن نعثر على كيفية تساعدها على الإقلاع عن المخدرات نهائياً، وإلا فإنها ستفارق الحياة يوماً.

كان سام قد فكّر في الأمر.

- سأتكلّف بذلك، فأنا أعرف مركزاً لمعالجة الإدمان في كونيكتيكوت. إنّه فعال حقّاً. رغم أنّ عدد من يستقبلهم محدود جدّاً، فإنني سأتصل بهم شخصيّاً.

غمغم روتيللي بشيء شاكراً، ثمّ خيّم الصمت على الرجلين إلى أن أمرهما الشرطي قائلاً:

- اذهبا لتناما الآن، فالأبطال بحاجة إلى النوم، ثمّ إنّ الشحوب قد علا وجهيكما.

فأجابه سام وهو يغادر الحجرة:

- ألم تنظر إلى وجهك أنت؟

*

كانت جولييت تذرع الشقّة مبلبلة الفكر، ذلك أنها لم تعرف شيئاً عن سام منذ خصامهما ظهراً. ثمّ إنّها كلّما حاولت الاتصال بهاتفه النقال، لا تجد غير جهاز الردّ الآلي ممّا دفعها إلى انتظاره بشقّته.

ألصقت جبينها بزجاج النافذة البارد وراحت تنظر إلى الأنوار المتلألئة في البعيد. رغم أنّ علاقتهما كان ينبغي أن تنتهي عندئذٍ، وجدت أنّه من الضروري أن تتحدّث إليه لآخر مرّة حتّى تتوضّح الأمور. لم تكن تعرف ما الموقف الذي ستتّخذه من المرأة الأخرى، لكن كان ثمّة أمر مؤكّد: إنّها ناقمة على سام لأنّه كذب عليها.

أشعلت بعض الشموع، فاستنار الصالون بضوء خافت ذكّرها على نحو حزين بأوّل ليلة قضياها معاً، لكنّها ما لبثت أن طردت هذه الفكرة. لم يكن هذا هو الوقت المناسب لكي تقع في فخاخه! لامت نفسها بشدّة على انخداعها بالحبّ رغم علمها بمصائده وأوهامه. كان حريّاً بها، وهي صاحبة التكوين الأدبي، أن تنصت لنصائح كانط وستاندال: الحبّ مصدر عذاب ومعاناة، ما الحبّ غير شمس خادعة، مخدّر يحجب عنّا الواقع. نعتقد دائماً أنّنا نحبّ شخصاً لذاته، لكنّنا لا نحبّ من خلاله غير فكرة الحبّ. ولكي تتخلّص من هذه الأفكار، أشعلت التلفاز، وكان مضبوطاً على قناة إخبارية. كان الشريط الأحمر يومض معلناً عن تحذير يتعلّق بنيويورك، تحت صدر المذيعة السمراء

المثيرة «مونيكا لوينسكي ستايل» التي كانت تعلّق على الحدث الأبرز ذلك اليوم:

أحبطت الشرطة عملاً إرهابياً كان سيضرب واشنطن سكوار. كان الأمر يتعلّق بريبورتاج أشبه ما يكون بفيلم من أفلام الحركة، يتحدّث عن الواقعة الغريبة التي تعرّضت لها تلك الفتاة التي تبلغ الخامسة عشرة من العمر، والتي حوّلها شخص سيكوباتي إلى قنبلة بشرية موقوتة.

وراحت المذيعة تضغط من جديد على تلك الكلمات المفزعة بغرض دعوة المتفرجين إلى توخي الحذر: القاعدة، غاز السارين، القنابل القذرة، الجمرة الخبيثة...

كانت جولييت قد تعوّدت على هذا النوع من تهويل الأخبار منذ أن حلّت بنيويورك، فضغطت بسأم على زرّ جهاز التحكم عن بُعد لكي تنهي هذا التعليق الممل.

*

كان يوجد بجانب الموزّعات الإلكترونية صفّ من الهواتف العمومية. بحث سام في جيوبه عن بعض القطع النقدية. كان عليه أن يعثر على جولييت، فركّب بمحض الصدفة رقم كولين، ونجح في الاتصال بها، لكنّها لم تكن تعرف المكان الذي توجد به صديقتها، فاعتذر على إزعاجها.

خرج إلى موقف السيارات الشاسع وقد تملّكته الخيبة، واستقلّ إحدى سيارات التاكسي التي تترقّب خروج المرضى. كان قد ترك معطفه بسيارته، وكان جرحه قد أجبره على عدم نزع الجزء العلوي من منامة المستشفى، وبذلك لم يكن يرتدي غير سترته التي لا تقي

من البرد، وهو ما جعل سائق السيارة يسأله بقلق وهو ينظر إليه في المرآة:

- أأنت بخير يا سيدي؟

فأجابه سام وهو يتكوّم على المقعد الخلفي:

- بخير.

انطلق التاكسي على أنغام سيزار إيفورا المنبعثة من الراديو.

وضع سام يده على جبينه ولاحظ بأنّه محموم. كان منهكاً، ذلك أنّ هذا اليوم كان من أكثر أيّام حياته رعباً. فقد تأثّر بعمق لموت غريس ولم يستطِع أن يستوعب ما وقع له.

أغلق عينيه مستسلماً لصوت المغنيّة الهادئ، واستغرق في نوم مضطرب.

*

نافذة غير محكمة الإغلاق، تيار هواء يعبر الشقّة، وباب يصفق، فتملّكت جولييت القشعريرة.

لقد جاءت لكي تخبر سام بأنّها حامل، وهي مضطرة لإخباره بالحقيقة، وبأنّها قرّرت الاحتفاظ بالجنين مهما كان ردّه. فكّرت في ذلك طوال فترة ما بعد الظهر، وما أثار استغرابها هو أنّ القرار فرض نفسه عليها كما لو كان أمراً بديهياً. وتنبّهت الآن إلى أنّها كانت مقتنعة منذ زمن بعيد بأنها ستحمل الحياة بين أحشائها.

رغم المخاوف من المستقبل.

رغم آلام العالم وجنون الإنسان.

شعرت بالتجمد من البرد فحاولت عبثاً أن تزيد من درجة حرارة المدفأة. ولكي تواجه انخفاض الحرارة في الشقّة، لبست إحدى

سترات سام التي كانت موضوعة على مسند أحد المقاعد ثمّ سارعت إلى الاستلقاء على الأريكة. شمّت رائحة سام تنبعث من السترة، فأحسّت بانقباض قلبها، واعترتها القشعريرة بسبب ذلك الشعور كما لو أنّ سائلاً متجمّداً شلّ فجأة حركاتها.

ومسحت بالكمّ دمعة ترقرقت على خدّها.

تبّاً! كيف لرجل أن يوصلني إلى هذه الحال؟ ولاحظت بعينيها المبتلتين ورقة مكمّشة تبرز من أحد الجيوب. فتحتها بتلهّف: إنّها نسخة من مقال صحفي يحكي واقعة تعود لعشرة أعوام خلت.

عُثر على غريس كوستيللو، وهي مفتّشة شرطة من الدائرة السادسة والثلاثين، ميّتة أمام مقود سيارتها الليلة الماضية، إذ تلقّت طلقة نارية في رأسها. وتظّل ملابسات مقتلها غامضة حتّى الآن...

ألقت جولييت على الأسطر الأولى نظرة لاهية، ثمّ نظرت إلى الصورتين المصاحبتين للمقالة، وتعرّفت فيهما على المرأة التي لقيتها في بداية الظهيرة بصحبة سام. دعكت عينيها وهي لا تصدّق، لكنّها انتهت إلى الاقتناع بأنّ الأمر يتعلّق بالمرأة نفسها.

لكن، لماذا لم تظهر عليها ولا تجعيدة واحدة خلال كلّ هذه السنوات؟ ثمّ، ماذا تراها تصنع في أزقّة مانهاتن إذا كانت قد ماتت منذ عشرة أعوام؟

كانت جولييت تقلّب كلّ هذه الأسئلة في ذهنها لمّا سمعت باب الشقّة يُفتح. قامت جارية إلى الدرج، وعلتها الدهشة لمّا رأت سام يسير معتمداً على عكازتين وهو يحاول تعديل الضمادات الموضوعة على كتفه. وتحوّل في لحظة كلّ الغضب الذي كانت تشعر به إلى قلق:

- ماذا جرى لك؟

سحبها إليه ودفن رأسه في حضنها، فكانت رائحة شعرها هي لحظة العزاء الوحيدة خلال ذلك اليوم. تحرّرت منه وراحت تنظر بارتعاب إلى شفتيه المزرقّتين المرتعشتين من البرد.

ثمّ قالت وهي تضع يدها على وجنته:

- أنت محموم.

فردّ مطمئناً:

- لا بأس.

ساعدته ليصعد الدرج، وما كاد يصل إلى الشقّة حتّى أبصر نسخة المقالة موضوعة على المائدة.

سألته وهي تشعر بغصّة في حلقها:

- من هي هذه المرأة يا سام؟

قال وهو موزّع بين الرغبة في عدم الكذب وتعذّر البوح بالحقيقة:

- إنّها مفتّشة شرطة سابقة، صديقة، طلبت منّي مساعدتها على العثور على ابنتها.

- لكنّها ماتت منذ عشرة أعوام!

- كلا، لم تمُت إلاّ اليوم.

وحاول أن يضمّها بين ذراعيه من جديد، لكنّها أبعدته. وقالت بصوت مخنوق:

- لست أفهم شيئاً.

- اسمعي، لا أستطيع أن أقول لك أكثر ممّا قلت، لكنّني ألتمس منك أن تثقي بي، وأؤكّد لك أنّ هذه المرأة ليست عشيقتي إن كان هذا هو ما يقلق راحتك.

- إنّه يقلقني حقّاً!

كان سام يعي أنّ عليه أن يقدّم لها تفسيراً واضحاً، لذلك استعرض لها الخطوط العريضة لقصة جودي وواقعة احتجازها من طرف العقاب، وحكى لها كيف لقيت غريس مصرعها وكيف أنّه كان سيلقى مصرعه أيضاً لولا تدخّل مارك روتيللي. ولكي يشرح لها سبب إعلان المقال عن مقتل غريس، زعم بأنّها اتّخذت هوية جديدة قبل عشر سنوات في إطار برنامج لحماية الشهود. وكانت هذه هي النقطة الوحيدة التي جانب فيها الحقيقة.

وما إن أنهى سرده حتّى بادرته:

- كدت تموت إذن!

- لما صوّب ذلك الغبي مسدّسه عليّ، أيقنت من أنّني ميّت لا محالة، وحينها فكّرت. . .

صمت، ثمّ خطا بضع خطوات باتّجاه جولييت ولمس وجهها بيديه.

- فيمَ فكّرت؟

- بأنّني عثرت أخيراً على إنسان أحبّه وأنّني لم أجد الوقت لأبوح له بذلك.

رفعت رأسها نحوه وقبّلته بلطف وألقت بنفسها في حضنه.

قبّلها قبلتين طويلتين وقال:

- أريد أن أطلب منك شيئاً. . .

ردّت وهي تعضّ شفته بلطف:

- تفضّل.

فكّ أزرار قميصها العليا.

- ستعتبرينني ولا شك غبيّاً، ولكن...

- إنّني أنصت إليك.

- ماذا لو أنجبنا طفلاً؟

*

بعد ساعة

كان سام وجولييت مستلقيين على الأريكة، وأرجلهما متشابكة وجسداهما متلاصقين.

كانت المدفأة مشغّلة في حدّها الأقصى، وفتحا زجاجة نبيذ بينما كانت تنبعث من جهاز الأسطوانات موسيقى الرولينغ ستون عالياً.

أحنى سام رأسه، فلاحظ أن جولييت نامت على صدره. كانت خصلة شعر شقراء تنزل على طول خدّها. داعب بأنامله صدرها الذي كان يرتفع وينخفض على إيقاع تنفّسها المنتظم الهادئ. كان حضورها يشيع فيه شعوراً سحرياً بالسكينة. تجنّب الحركة خشية إيقاظها، مكتفياً بوضع يده على بطنها. ستنجب طفلاً! لمّا أخبرته بذلك، غلبته الدموع من الفرح. لقد عاش قطعاً يوماً غير متوقّع، لكنّه أعظم يوم في حياته، ومع ذلك عليه ربّما ألا يبالغ في الفرح، لأنّه لا يثق في السعادة.

وبينما كان يقول في نفسه: لما تجري الأمور على خير ما يرام، نادراً ما يدوم ذلك طويلاً إذا بجرس الأنترفون يكسّر الهدوء الذي يخيّم على الشقّة ويوقظه من غفوته.

استيقظت جولييت فزعة من نومها، والتقت في ملاءة مستعيدة تيقّظها وحيويتها في طرفة عين.

- أأجيب؟

أجابها سام الذي كان يجد صعوبة في القيام بسبب الإصابة:
- حسناً، أجيبي.
تناولت جهاز التحكم عن بعد وضغطت على الزرّ ليخرس صوت مايك جاغر المنبعث من جهاز الأسطوانات هي-في.
قالت جولييت وهي تعود إلى الغرفة:
- إنّه جارك الذي يزعم أنّ سيارتك مركونة في المكان المخصّص لسيارته في الموقف.
قطّب سام حاجبيه وهو يسأل:
- أيّ جار؟ وكيف لسيارتي أن تكون هنا وقد تركتها في مرآب العقاب؟
وسرعان ما بلغ القلق الذي بدأ ينتابه قبيل لحظات ذروته، فقال وهو يرتدي لباس البيت ويضع فوقه المعطف:
- دعيني أرى.
نزل السلم وخرج إلى الشارع. كان الليل بارداً.
- من هناك؟
لم يجِب أحد.
كانت تغلّف البناية التي تضمّ الشقّة كتلة من ضباب، وتقدّم سام بضع خطى في الظلام وهو لا يكاد يتبيّن شيئاً.
- غالواي...
التفت مشدوهاً من نبرة الصوت الذي ناداه: إنّه صوت غريس كوستيللو. كانت متّكئة على عمود إنارة وهي تنظر إليه بحزن. كان وجهها الذي ينيره ضوء أبيض يلمع كقطعة خزف صيني.
- غريس؟!
تقدّم منها وهو لا يكاد يصدّق.

مستحيل! لقد أبصر جثتها وقد اخترقها وابل من الرصاص وهي ممدّدة أرضاً! ثمّ إن العقاب لم يكن يطلق طلقات فارغة: فكتفه وزجاج سيارته شاهدان على ذلك.

- لست... أفهم شيئاً.

لقد شهد أحياناً، بوصفه طبيباً، شفاء حالات عُدّ شفاؤها معجزة، لكنّ لا أحد بإمكانه أن يقف بعد ساعات من إصابته بوابل من الرصاص من مسدّس أوتوماتيكي.

- ألست... !

فتحت غريس معطفها وفكّت حزامي الفيلكرو اللذين كانا يثبّتان سترة واقية من الرصاص حول صدرها. نزعت الواقية الثقيلة ورمتها عند قدمي الطبيب.

- آسفة يا سام.

عندئذٍ تحطّم شيء ما بداخله، ذلك أنّ عقله لم يسبق له أن تعرّض لرجّة بمثل هذه القوّة. تشظى كلّ شيء بداخله والتبس: الحزن والشعور بالذنب الذي لازمه منذ موت فيديريكا، صدمة المشارفة على الموت على يد العقاب، ذكريات ماضيه المؤلمة التي حاول الهروب منها، والتي كانت تفلح دائماً في اللحاق به، الفرح العارم الذي تملّكه عند علمه بحمل جولييت، والآن ها هي غريس تظهر من جديد بعدما ظنّها ماتت.

ترك نفسه يسقط على الدرج المكسو بالثلج، ووضع رأسه بين يديه وراح يبكي من الخوف والغضب وعدم الفهم.

كرّرت غريس:

- آسفة! لقد سبق لي أن أخطرتك بأنّني سأبقى هنا حتّى أنهي مهمّتي، وأنّني لن أعود إلا وجولييت معي.

فقال سام متوسّلاً:

- ليس الآن! لا تأخذيها منّي الآن!

- لن يتغيّر الموعد يا سام: بعد غد في عربة الكوابل المتحرّكة بروزفلت آيلند.

وقف بصعوبة، وشعر بالألم يعود إلى كتفه، لكن ذلك بدا له الآن هيّناً.

قالت غريس وهي تبتعد:

- ما يحدث يتجاوز إرادتي.

جرى سام خلفها مذهولاً وهو يردّد:

- لن أدعك تفعلين ذلك!

- سنعود لهذا الموضوع، لكن ليس الآن.

- متى؟

- غداً صباحاً. نلتقي في حديقة باتري.

رغم الخلاف الواقع بينهما، لمس سام في صوتها ما يشبه التعاطف، كما لو أنّه هو المريض وهي الممرّضة. أكان كلّ ما وقع مفاجئاً بالنسبة إليه؟ ألم يكن واثقاً في قرارة نفسه بأنّه لن يستمتع طويلاً بلحظات سعادته؟ كما لو أنّ لعنة لا يعرف كنهها حلّت بكلّ خطوة من خطواته.

وقبل أن تختفي في الظلام، نطقت آخر جملة:

- وددت لو أنّني لن أعود يا سام، وددتُ لو أنّ الأمور تنتهي على نحو مخالف...

وأدرك سام أنّها صادقة.

28

لا شيء أيقن من الموت، ولا شيء أشدّ
خفاء من ساعتها.

أمبرواز باري.

الجمعة - الثامنة واثنتا عشرة دقيقة صباحاً

رفعت غريس طوق سترتها، ذلك أنّ الريح كانت عاصفة على حديقة باتري. كانت الحديقة الصغيرة الواقعة في أقصى جنوب مانهاتن عبارة عن جزيرة خضراء صغيرة، محاصرة بين ناطحات سحاب وول ستريت والبحر. تجاوزت غريس الحديقة لتصل إلى المتنزه الممتدّ على طول النهر، والذي يحفل بمشاهد رائعة. ورغم البرد القارس والوقت الباكر، كان السواح وممارسو رياضة العدو يحثّون الخطى بأعداد كبيرة. أخذت مكانها بأحد المقاعد واستغرقت لحظة في تأمّل الخليج الصغير الذي تحرّك مياهُه زوارقَ السّحب والعبّارات.

كان الهواء النقيّ البارد يخِزُ عينيها بينما سرت في جسدها رعشة خفيفة. منذ أن عادت، صارت تولي تفاصيل الحياة انتباهاً فائقاً: لون السماء وصوت النوارس وعبث الريح بالشعر... كانت تعلم أنّ مُقامها هنا أوشك على نهايته، وأنّ عليها أن تتخلّى عن ملذات الحياة، لكنّها منذ أن رأت ابنتها، استعادت طعم الحياة، وهو ما يجعلها أضعف وأوهى وأقرب إلى بني الإنسان.

كانت واثقة طبعاً من أنّها لا يمكن أن تتخلّى عن المهمّة التي جاءت من أجلها، وأنّ عليها أن تنفّذها حتّى النهاية، غير أنها لم تعُد تطيق هذه الفكرة، وظلّت مجموعة من الأسئلة تؤرقها. لماذا لا تزال عاجزة عن تذكّر على وجه الدقة الأيّام التي سبقت موتها؟ لماذا أظهرت نتائج التشريح آثار المخدرات في جثّتها؟ والأهم من كلّ هذا، لماذا اختيرت هي بالضبط للقيام بهذه المهمّة الغريبة التي ما زالت لا تفهم كنهها.

*

لما فتح سام عينيه، لم يجد جولييت. فقد سهرا حتّى الفجر، لكنّ أشعة الصبح الأولى وما تناوله من دواء ضدّ الألم جعلاه يستغرق في النعاس.

قام مذعوراً في لمح البصر، لكنّ ورقة كانت موضوعة على الوسادة بشكل بارز أعادته إلى هدوئه:

حبيبي

أنا مضطرة للذهاب إلى القنصلية لتسوية وضعيتي. أراك لاحقاً. انتبه لنفسك.

أحبك.

جولييت.

ملحوظة: اشرع في التفكير في اسم للوليد. أنا أفضّل أن نسميه ماتيو إن كان ولداً وأليس إن كانت بنتاً.

ولِمَ لا جيمي أو فيوليت...؟

وارتمى سام على الوسادة من جديد بألم باحثاً عمّا تبقّى فيها من

رائحة المرأة التي يحبّ. ثمّ توجّه إثر ذلك إلى الحمام حيث وجد في انتظاره على المرآة مكتوباً بأحمر الشفاه:

أو ربّما أدريانو أو سيليستي؟

أو ماتيس وأنجيل...؟

وفكّر فجأة وقد سرّته هذه اللعبة: ماذا لو كانا توأمين؟

ولمّا ذهب إلى المطبخ لاحظ أنّ الحروف الممغنطة التي تتخذ شكل حيوانات متوحّشة، والملتصقة بالثلاجة قد أزيحت من مكانها لتُشكّل كلمات جديدة: غيليرمو ثم تحته كلير ليز، وتساءل عن كيفية نطقها بالفرنسية. بعد ذلك بذل ما بوسعه ليرتدي ملابسه على الوجه الأنسب رغم إصابة كتفه، ثمّ غادر البيت. وبما أنّ الوقت كان لا يزال مبكّراً، لم يتأخّر في العثور على سيارة أجرة. أمر السائق قائلاً:

- حديقة باتري.

ترجّل من سيارة الأجرة أمام أبراج لاوور مانهاتن، وشعر بفراغ معدته فتنبّه إلى أنّه لم يأكل شيئاً منذ أربع وعشرين ساعة. توقّف عند أوّل مقهى ستاربكس ليطلب فطوراً نيويوركياً: كعكة وكوب قهوة كبير شربه وهو يسير في الشارع.

وبينما كان يمشي، رنّ هاتفه؛ ذلك أنّ أحدهم ترك له رسالة صوتية. إنّه صوت جولييت تقترح عليه: «ربما مانو أو إيما أو لوسي، هوغو أو كليمان أو فالانتان أو غارانس أو طوني أو سوزان أو كونستانس أو أديل...»

ارتسمت على وجهه ابتسامة لا تكاد تلحظ، وشعر بالخيبة من عدم تمكنّه من الاستمتاع بلحظة الفرح هذه مع حبيبته.

التفّ على كاستيل كلينتون، الحصن الصغير الواقع وسط

الحديقة، والذي كان يستعمل في الماضي للدفاع عن المرفأ ثمّ حُوّل إلى مكتب لبيع تذاكرِ العبّارات. كان قد فضّل عدم استعمال العكازين، لكنّه يشعر الآن بالندم الشديد على ذلك.

وبينما كان يجتاز المنحى الواطئ الذي يفضي إلى رصيف الميناء، أبصر غريس آتية للقائه.

لم يستطِع من جديد مقاومة دهشته من رؤيتها حيّة. فقد كاد يتمنّى في الصباح عند استيقاظه لو أنّ لقاءه بها بالأمس لم يكن إلا في خياله، لا سيّما وأنّه كان محموماً وهذى خلال نومه.

لكن لا مجال للحلم.

وضعت غريس يدها على مرفقه وسألته على نحو أخرق:

- أتمنى ألا تكون إصاباتك لا تزال تؤلمك.

فأجابها بلهجة تكاد تكون فظّة وعدوانية:

- إنّني على خير ما يرام كما ترين، ما رأيك في مباراة اسكواتش؟

- أكرّر لك مرّة أخرى إنني آسفة يا سام!

فأجابها محتدّاً:

- كفّي عن ترديد إنك آسفة! تقتحمين حياتي وتخبرينني بأنّ المرأة التي أحبّ ستلقى حتفها وتريدينني أن أرقص السامبا لكي أعبّر لك عن فرحي!

- أنت محقّ.

كانا يرتعدان من البرد، ولكي يستدفئا، انساقا مع الحشود المتوجهة إلى رصيف عبّارات جزيرة ستاتن. وحاول سام أن يخفي عدم قدرته على المشي، وهو ما تنبّهت له غريس مع ذلك فأرادت أن تساعده، لكنّه صرفها.

كان ثمّة على الرصيف مركب راسٍ متأهّب للانطلاق، وقرّرا أن

يستقلاه دون أن يتبادلا كلمة واحدة: ذلك أنّ العبور كان قصيراً ومجانياً، والمركب دافئاً.

كانت العبّارة ممتلئة تقريباً. ورغم البرد، أخذ سام مكانه على ظهر السفينة، وما لبثت غريس أن لحقت به. وعلى غرار لقائهما الأوّل، مدّت له كوب قهوة:

- يبدو أن هذا هو أسوأ ما في نيويورك: إنّها تغلي طيلة اليوم في صهاريج معدنية ضخمة...

أمسك سام الكوب، ورشف منه جرعة وقال:

- إنّه أمر غريب حقّاً.

كانت القهوة من النوع الرديء، لكنّها قد تصلح على الأقل لتدفئة اليدين.

بقيا جنباً إلى جنب صامتين وهما يرتشفان المشروب الساخن ونظراتهما تائهة في ألق الأفق الأزرق الصافي. وراحت غريس تحدّق في جزيرة إليس وأرصفة بروكلين كما لو أنّها تراهما لأول مرّة، في حين أشعل سام سيجارة ونفث دخانها طويلاً، وعلى بعد منهما كان تمثال الحرية يرفع مشعله عالياً في وجه الرياح.

وبعد دقائق من الصمت، حاولت غريس أن تستأنف الكلام:

- اسمع يا سام، حتّى لو رفضتُ إنجاز المهمة سيبعثون غيري لتنفيذها.

- غيرك؟

- مبعوث آخر لكي يصلح الخطأ...

- يصلح الخطأ! ألفت انتباهك إلى أنّك تتحدّثين عن حياتي وحياة جولييت!

- أنا واعية بذلك، لكنّني شرحت لك الأمر سابقاً: ينبغي أن

تموت جولييت، ولهذا بعثوني. لم أطلب قطّ القيام بهذه المهمّة. صدّقني إن قلت لك بأنّني لا أنفّذها مبتهجة.

وانبرى سام من جديد للدفاع عمّن يحب:

- أكره فكرة القضاء والقدر هذه، وقد ناضلت كلّ حياتي لكي لا أكون محكوماً بحتميّة القدر. ولدت في أحد أسوأ أحياء هذه المدينة، وكلّ شيء كان يهيّئني لأكون منحرفاً، لكنّني صارعت لأصير غير ذلك، ونجحت في تجاوز ذلك الوضع!

- لقد سبق أن تحدّثنا في كل هذا يا سام. لم أقل لك قطّ أنّ أفعال الإنسان محدّدة مسبقاً بكل تفاصيلها، وأنّ الحياة ليست سوى تمثيل لسيناريو مكتوب سلفاً.

ثمّ حدّقت في عينيه وأضافت:

- ما أريد أن أقوله لك بالمقابل هو أنّ هناك أشياء لا يمكن الإفلات منها.

نفذت حجج سام، وأدرك مساء أمس، لما التقى بغريس، بعد حادث إطلاق النار، بأنّه خسر المعركة مسبقاً، لكنّه أضاف مع ذلك بنبرة أقرب إلى الاحتجاج:

- ولكنني أحبّها!

نظرت إليه غريس بسماحة.

- أنت تعلم جيّداً أن الحبّ غير كافٍ للوقاية من الموت. كنت أحبّ ابنتي وأحبّ مارك روتيللي، لكن ذلك لم يمنع من أن أتلقّى رصاصة في الرأس...

ظلّت مستغرقة لحظة ثمّ أضافت وهي تخاطب نفسها:

- ... وأكثر ما ندمت عليه هو أنّني متّ قبل عشر سنوات دون أن أبوح له بحبّي...

أشعل سام سيجارة ثانية، لكنّها احترقت دون أن يدخّنها بسبب استغراقه في الإنصات لكلام غريس. ورست العبارة على مهل بمرفأ جزيرة ستاتن، لكن معظم الركاب بقوا في أمكنتهم على متنها لكي يعودوا إلى مانهاتن.

وجد سام نفسه الآن مضطراً لقبول حكاية غريس، ولم يتوقّف عن التساؤل عن طبيعة الحياة والموت. قضى جزءاً كبيراً من الليل وهو يفكّر في هذا الأمر، لكنّ هذه الأسئلة كانت تعود باستمرار بكيفية مقلقة ومثيرة في الوقت نفسه. هل لحياة الإنسان غاية؟ أم أنها مجرد ميكانيزم بيولوجي؟ والموت... أهي مجرّدة من المعنى؟ أم أنها تفتح سبيلاً نحو حياة أخرى، إلى مكان آخر سنذهب إليه جميعاً؟ منذ أن أطلق النار على أحد الأشخاص في شبابه، لم يقبل قطّ موت الآخرين، ورغم مهنته، كان يشعر بنفسه في كلّ مرّة أكثر عجزاً. حاول أن ينكر الموت، لكنّها كانت تلحق به دائماً. كان يرى في مخيّلته وجه فيديريكا التي عجز عن إنقاذها، ثمّ وجه الطفلة أنجيلا، المريضة الصغيرة التي فقدها مؤخراً، بل إنه تذكر حتّى العقاب الذي لازمته صور موته العنيفة. أين هم الآن؟

كثيراً ما تحدّث مع المرضى الآسيويين الذين يعتقدون أنّ شيئاً ما في أنفسنا لا يموت أبداً، ويواصل دورته في هيئة أخرى. وفي أحيان أخرى كانت تُربكه حكايات أولئك الذين عاشوا تجربة الإشراف على الموت: النفق المضيء والشعور بالسعادة، لقاء المفقودين... لكنّه لم يقتنع قطّ بكلّ ذلك ولا حتّى بكلام الأب هاثاواي الجميل الذي كان يدعوه في صغره إلى البحث عن الربّ والمراهنة على وجوده.

لكن لقاءه مع غريس اليوم فتح له أفقاً جديداً، لأنها كانت قد عبرت إلى الجانب الآخر، وسيكون بوسعها أن تكشف له السرّ

الكبير. لذلك سألها بمزيج من الفضول والتوجّس:

- ما الذي يقع من بعد يا غريس؟

- بعد ماذا؟

- إنك تدركين جيّداً قصدي.

لم تُجب غريس فوراً. أجل، كانت تعلم ما يقصده سام، وكانت تتوقع أن يفاتحها في هذه المسألة طال الأمد أم قصر.

- بعد الموت؟ أنا آسفة على تخييب ظنك لأنّني لا أذكر شيئاً.

- أجد صعوبة في تصديقك...

- لكنّها الحقيقة مع ذلك.

- ألا تذكرين شيئاً من السنوات العشر الأخيرة؟

- في ذهني، كأنّ هذه السنوات العشر لم توجد قطّ.

- هكذا هي الموت إذن: ثقب أسود عظيم...

- ليس الأمر كذلك، كوني لا أذكر شيئاً لا يعني أنّ ليس ثمّة شيء، وإلا ما كنت لأوجد هنا. أظنّ بالأحرى أنّ المبعوثين لمّا يرسلون إلى الأرض، ينبغي أن يظلّ لغز الموت قائماً، حتّى بالنسبة إليهم. لأنّ البشر لا يمكنهم أبداً خلال حياتهم أن يطّلعوا على ما يوجد بعد الموت. كلّ ما أعرفه هو أنّنا لا نوجد على الأرض بالصدفة.

ولما لاحظت اضطرابه أضافت بصوت هادئ:

- لا تظنّ أن هذا لا يشوّشني أنا أيضاً! أشعر بنفسي عزلاء وعاجزة، لن أخفيك، فأنا خائفة من العودة إلى هناك، لكنّني أعرف بالمقابل أمراً هو أنّ لدي مهمة ينبغي أن أنفّذها، وباستثناء هذا، لا يمكن أن أتدخل في حياة الناس.

- لمّا تعلّق الأمر بإنقاذ ابنتك، لم تتردّدي!

ردّت غريس موافقة:

- هذا صحيح. بمحاولة إنقاذ جودي حُدت نسبيّاً عن مهمّتي...

هزّ سام كتفيه. وبينما كانت العبّارة تناور لكي تدخل إلى المرفأ رنّ هاتفه المحمول.

- من؟

كانت جولييت هي من تكلّمه، لكنّ الاستقبال كان رديئاً، وبدا صوتها بعيداً. كان الريح يهبّ بقوة على ظهر السفينة، غير أنّ سام التقط بعض الكلمات: «أنا متشوقة لـ...»، «أحبك...»، «انتبه لنفسك من البرد...» هذا فضلاً على سيل من الأسماء الجديدة: «جورج، مارغو، أبولين...»، ثمّ زاد تشوّش الاتصال كما لو أنّ جولييت شرعت تفلت منه.

وبينما بدأ الركاب في النزول، قرّر سام أن يلعب آخر أوراقه. ذلك أنّه كثيراً ما فكّر خلال الأيام الأخيرة في هذه الإمكانية دون أن يقرّ بها. فمنذ المساء الذي شاهد فيه صور أنجيلا والرسالة التي تحملها، أدرك جيّداً بأنّ عواقب لقائه بغريس لن تكون حميدة. ورغم إنكاره لنبوءتها، واستعراض كلّ الإمكانات التي قد تنقذ جولييت، والمَنْفذ الوحيد الذي بدا له ممكناً يرتبط بالسؤال الذي طرحه على غريس:

- إذا لم يكن بدّ من أن تعودي بأحدهم، فيلزم أن تحترمي ترتيب الأمور هذا...

- ماذا تقصد؟

- في هذه الحالة خذيني أنا! خذيني معك على متن عربة الكوابل عوض جولييت.

تفرّست غريس عينيه. كانت نظرتها في منتهى اللطف، كما لو أنّ اقتراح سام لم يفاجئها.

ظلّت صامتة لبضع ثوان، وهمّ سام أن يقول شيئاً، لكنّه أحجم.

وأجابت أخيراً:

- إنّ الأمر يتعلّق بحياتك، وهو قرار لا ينبغي أن تستخفّ به، فقد تندم في آخر لحظة.

- لقد فكّرت فيه ملياً. فلإنقاذ فيديريكا سابقاً، ارتكبت جريمة قتل، لكنّني لم أنقذها في آخر المطاف، وأضعت نفسي. أما اليوم فأنا أدرك أنّني لا أملك خياراً آخر لإنقاذ جولييت غير التضحيّة بحياتي في سبيلها. أتوسّل إليك ألا تأخذيها.

- طيّب ما دمت أنت من تريد ذلك، لا أمانع.

ونفخت هبّة قوية، وحاول سام ألا يُظهر انفعاله، لكنّه شعر بركبتيه ترتعشان.

- نلتقي بعربة كوابل روزفلت آيلند، أليس كذلك؟

- نعم، غداً على الساعة الواحدة زوالاً.

- وإذا رغبت في الاتصال بكِ قبل هذا الموعد؟

- أنا من سأتّصل بك.

قال وهو يُخرج هاتفه المحمول:

- كلا يا غريس، انطلاقاً من هذه اللحظة لم تعودي أنت وحدك من يحدّد قواعد اللعبة.

وقبل أن تجد الوقت لكي ترفض، وضع سام الهاتف في جيبها قسراً وغادر العبّارة.

بقيت على ظهر العبّارة لدقائق، وراحت تتابع ببصرها الطبيب من أعلى وهو يبتعد.

لقد سارت الخطة إلى حدّ الآن حسبما توقّعت تماماً.

29

نتوق للعودة إلى صفحة الحبّ، لكن صفحة
الموت تكون قد حلّت بين أصابعنا.

لامارتين

بداية الظهيرة - مستشفى سان ماتيوس

كانت غرفة جودي كوستيللو الصغيرة غارقة في العتمة. انفتح الباب بلا حسّ، وأطلّ رأس غريس. وبعدما تأكّدت من أن الطفلة تغطّ في النوم، اقتربت من السرير بلا ضجّة.

وضعت برفق يدها المرتعشة على جبين ابنتها، ومكثت بجوارها مشوشة الذهن بينما انهملت الدموع في صمت على خدّيها. كان شعوراً لم يسبق أن أحسّت به من قبل: الفرح العارم للقاء جودي من جديد، ولكن أيضاً الألم العميق من عدم قدرتها على التحدّث إليها. وفي لحظة كادت توقظها لكي تعبّر لها عن مقدار حبّها لها، ومدى أسفها على ما وقع، لكنّها تنبّهت إلى أنّ ذلك ليس من حقّها وغير مستحب: فجودي بحاجة إلى السّكينة لا إلى صدمة عاطفية أخرى، فاكتفت إذن بأن همست لها:

- سامحيني إن كنت تخلّيت عنك لكلّ هذه السنوات...

ثمّ أمسكت بيدها:

- أتمنّى أن تتحسّن أمورك من الآن فصاعداً.

كانت جودي تنام نوماً خفيفاً، فتحرّكت في سريرها وغمغمت ببضع عبارات غير مفهومة. وتعرّفت غريس فوق منضدة السرير على الصورة التي تحملها هي نفسها في حافظة نقودها.

وهي تذكر جيّداً اليوم الذي التُقطت فيه، في بداية التسعينيات...

كان يوم أحد من أيام الخريف الجميلة، إذ قرّرت هي ومارك روتيللي الاستمتاع بشمس جزيرة نانتوكيت جنوب بوسطن. تركا حقيبتيهما بماداكيت، وهو الشاطئ المفضل لهواة التزلج على الماء. كانت جودي التي احتفلت بعيد ميلادها الأوّل تلهو في الرمل بجانبهما وهي تقضم قطعة بسكويت أوريو.

وكانت تنبعث من جهاز مذياع قديم أغنية لسيمون وغارفانكل تتحدّث كلماتها عن متانة الروابط الصادقة. أغلقت غريس عينيها وشعرت بنفسها على خير ما يرام: رائقة، يهدهدها صوت الأمواج، ويداعبها نسيم صيفي عليل.

ثمّ تغذّيا في الهواء الطلق: ساندويتشات شرائح سمك أبي سيف وفطائر الدجاج، وإرضاء لجودي جلبا فطائر توت مسقيّة بشراب القيقب.

في هذا اليوم أيضاً تحدّثا عن مستقبلهما في الشرطة. ذلك أنّ أحد زملائهما القدامى أنشأ شركة أمن خاصة، واقترح عليهما عملاً أكثر دخلاً وأقلّ خطراً من ذاك الذي كانا يشغلانه آنذاك. وإذا كان هذا العرض قد أغرى روتيللي - الذي أرهقه العمل بالشرطة - فإن غريس رفضته رفضاً قاطعاً.

- أحبّ مهنتي يا ماركو. . . أحبّ الاشتغال في الميدان. . .

- أتحبين الاكتفاء بذاك الراتب البئيس، والتجوّل في السيارات المهترئة والعيش في شقّة قذرة؟

- لا داعي لهذا التصوير الكاريكاتوري. ثمّ إن شقتي ليست قذرة!

- على كلّ حال، فهذه المهنة بالغة الخطورة، لا سيما بالنسبة إلى امرأة!

- ها نحن نصل إلى هذه الحجج الذكورية!

- لستُ من دعاة التفوق الذكوري!

- أنا أحب هذه المهنة، ولا أرغب في عمل هادئ ساكن. أحبّ فكرة المخاطرة بحياتي لإنقاذ أرواح الآخرين. . .

- إنك تخاطرين بحياتك كثيراً يا غريس. أنت أمّ لطفلة الآن، وعليك أن تفكّري فيها قليلاً!

- أثق بحسن طالعي.

- سيتخلّى عنك الحظّ يوماً.

- سيتخلّى عنّي لمّا يحين الوقت. قد تسحقني سيارة وأنا أتسوّق في الشارع.

تناول روتيللي آلة التصوير ودعا غريس ليأخذ لها صورة مع جودي على الشاطئ.

قالت غريس وهي تتناول ابنتها بين ذراعيها:

- لن أترك هذا العمل أبداً.

- هذا لا يمنع من أنْ تتوخّي مزيداً من الحذر. فالإنسان لا يحيا إلا مرّة واحدة.

هزّت كتفيها وهي تبتسم له بتلك الابتسامة الرقيقة التي تزيدها سحراً.

- من يستطيع أن يتنبّأ بذلك يا ماركو؟ من يستطيع؟

أعاد صرير الباب الذي انفتح غريس إلى الحاضر. واكتفت الممرّضة بالتأكّد من أنّ كلّ شيء على ما يرام بالنسبة إلى جودي، ثم غادرت الغرفة دون أن تبدي انزعاجها من وجود غريس.

تنفّست الصعداء، لكنّها كانت واعية بأنّها تجازف كثيراً، إذ لا ينبغي أن تظلّ هنا لفترة طويلة.

وتحرّكت جودي من جديد في سريرها كدأبها في الماضي، وغنّت لها غريس أغنية جيرشوين التي تشبه التهويدة، والتي كانت تحمل عنواناً موحياً: Someone to watch over me[1].

ولتوديعها، أحنت عليها ووعدتها بصوت مهموس:

- لست أعلم إلى أين سأذهب، ولا ما سيحدث لي، لكنّني أتمنّى أن يبقى شيء منّي معك، بالرغم من أنّك لا تستطيعين رؤيتي ولا سماعي...

عندئذٍ استيقظت جودي فزعة.

هناك شخص في غرفتها!

فتحت عينيها وأشعلت النور، لكن غريس كانت قد اختفت.

*

(1) شخص يحميني.

شلسي - 151 غرباً، الشارع الرابع والثلاثون

كان ماسي يشغل بمساحته البالغة مائة ألف متر مربع، وطوابقه العشرة، صفّاً من المنازل في الشارع السابع. فقد جاء سام وجولييت إلى هيكل التسوق هذا، الذي يعدّ من أكبر متاجر العالم، لقضاء ما تبقى من فترة ما بعد الظهر. وقد قضيا الساعات السابقة بين التّجوال في سوفو والاستمتاع بأكل القشدة المثلجة بسيرانديبيتي وهما يرسمان مشاريع المستقبل للخمسين سنة القادمة. اتّفقا حول أسماء أبنائهما الثلاثة، ولون نوافذ منزلهما، ونوع سيارتهما المقبلة والأماكن التي سيقضيان فيها عطلهما.

كانت جولييت متألقة من السعادة، تجوب ممرّات المتاجر الكبرى بخفّة، مفتونة بأسرّة الأطفال ولعبهم وألبستهم. ورغم اغتمامه، كان سام يحاول التظاهر بعكس ذلك. كان عليه أن يقضي فترة ما بعد الظهر بكاملها في الحديث عن سعادة لن يعرفها أبداً وهو يعلم أنّه يعيش آخر لحظاته. سيغادر هذا العالم غداً في مثل تلك الساعة، وهو ما كان يُرعبه، لكنّه لم يندم مع ذلك ولو للحظة عن العرض الذي اقترحه على غريس. فقد قام بذلك لإنقاذ جولييت، وهذه الفكرة وحدها كانت كافية لكي تخفّف عنه.

كان عليه ألا يخادع نفسه، فهو مسؤول عن موت رجلين، وحتّى لو كان الأمر يتعلّق بمروجي مخدرات، فإنّ الشعور بالذنب الذي لازمه منذئذٍ أفسد عليه حياته. بوسعه أن يكذب على نفسه، لكنّه كان يدرك في قرارة نفسه أنّ عليه أن يؤدي الثمن يوماً، وموت فيديريكا لم يكن كافياً لأداء الدين الذي عليه. لهذا السبب كذب على جولييت مساء لقائهما الأوّل، لأنّ وزر غلطته كان من الثقل بحيث كان يحول بينه وبين السعادة.

- سام!

كانت جولييت تومئ إليه وهي في الطرف الآخر من الممرّ متعجبة من دمية على هيئة ديناصور يتجاوز علوها خمسة أمتار، ردّ على ابتسامتها، لكنّ ذهنه كان شارداً.

كما لو أنّه كان قد مات منذ فترة.

اللعنة! إنّه يموت خوفاً! مع أنه كثيراً ما رافق المرضى خلال آخر لحظات حياتهم قبيل رحيلهم، وكثيراً ما شدّ على أيدي أناس بلا أسر محاولاً طمأنتهم ودفع الخوف عنهم، لكن حين تعلّق الأمر بحياته هو، فالأمر مختلف تماماً!

كان سام مغموماً. ففضلاً عن خوفه كان يشعر بمرارة حرمانه من رؤية مولوده، بل حتّى من معرفة ما إذا كان سيكون ذكراً أم أنثى، لن يعرفه.

لقد قضى سنوات وهو يحلم بإنشاء أسرة، تلك الأسرة التي حُرِمَها وتأذّى من حرمانه منها. كان يتوق لأن يكون له أولاد حتّى يرسخ وجوده في هذا العالم. كان يطمح، في هذا العالم العدواني اللاإنساني، إلى أن ينسج علاقات متينة، ويبني فضاء عاطفياً آمناً.

لكن الأمور لن تسير على هذا النحو. فهو سيختفي يوم غد، وستعود جولييت على الأرجح إلى بلدها، وستُعيد بناء حياتها. وربّما لن يسمع عنه ابنه قط. بعد كلّ شيء، ما الإرث الذي سيترك له؟ لم يكن يملك شيئاً: لا ثروة ولا شيئاً يذكّر بمروره على الأرض. من المؤكّد أنّه عالج مئات الأشخاص وأشفاهم، لكن من منهم سيذكر ذلك؟

وراودته فكرة مفاجئة: لماذا لا يتزوّج جولييت قبل موته؟ هذا هو الحلّ! هذا معناه أنّه سيعترف رسمياً بابنه. فكّر لحظة، ثمّ أخرج

الهاتف النقال الذي استعاره من جولييت واتّصل بسيتي هال لكي يستخبر عن الخطوات التي عليه اتّباعها. هل بإمكانه أن يتزوّج في ذلك المساء أم في صباح الغد؟ أجابوه بأنّه لا يوجد في لاس فيغاس حيث بإمكان المرء أن يتزوّج بهذه السهولة، وأنّ عليه في ولاية نيويورك أن يحصل على wedding license[1] التي يجب تقديم طلبها أربعاً وعشرين ساعة قبل حفل الزواج. الأمر معقول: كانوا يريدون أن يتلافوا الزيجات الناشئة عن نزوات عابرة. أنهى سام المكالمة والخيبة تعصر قلبه. لم تكن الأربع والعشرون ساعة المطلوبة في متناوله.

- هل ستثبت على حبّي إلى الأبد؟

كان سام مستغرقاً في أفكاره، ولمّا رفع رأسه تنبّه إلى جولييت التي كانت تقف أمامه على أصابع رجليها تنتظر قبلة، فأجاب وهو يقبلها:

- إلى الأبد.

كان يتمنّى لو يكون ذلك حقّاً، لكن هناك أشياء في الحياة لا يمكن الإفلات منها كما تقول غريس كوستيللو.

وبينما كانت جولييت تصعد إلى سيارة الأجرة، كانت فكرة تختمر في ذهن سام.

- ألا يزعجك أن تعودي إلى البيت من دوني؟ أريد أن أمرّ على المستشفى.

- لكنّني كنت أنوي قضاء السهرة معك!

- أرجو أن تقبلي، لن أتغيّب لأكثر من ساعتين. لديّ أمر في غاية الأهمية.

---

(1) رخصة الزواج. (المترجم)

مطّت شفتيها دلالة على التذمّر، ثمّ قالت وهي تغلق باب السيارة وتبعث له بقبلة:

- عدني بألا يستغرق غيابك عنّي أكثر من ساعتين!

لمّا وجد نفسه بمفرده، نظر إلى الساعة: لم يكن الوقت متأخّراً، لو أسرع لربّما فضل له الوقت. ودون أن ينتظر سيارة أجرة أخرى، ولج أقرب محطة مترو، لكن بخلاف ما قاله لجوليت، لم يتوجّه إلى المستشفى بل إلى البنك. ولمّا وصل، شرحت له موظفة الاستقبال:

- مستشارونا الماليون لا يستقبلون الزبائن إلا بناءً على موعد محدّد مسبقاً، ولكن من المحتمل أن يكون أحدهم متقدّماً في العمل بالنظر إلى مواعيده، انتظر قليلاً، سأستخبر.

انتظر سام في فضاء أشبه بقاعة انتظار حيث كان بوسعه أن يطّلع على المطبوعات الموضوعة رهن إشارة الزوار. وبهذا فعند دخوله إلى مكتب «إد زيك»، المستشار في الاستثمار، سيكون بإمكانه أن يحدد تفاصيل مشروعه.

- فيم يمكن أن أساعدك يا سيدي؟

- أودّ توقيع عقد تأمين.

- لدينا صيغة ممتازة، بسيطة ورخيصة لضمان مستقبل أقربائك.

هزّ سام رأسه داعياً إيّاه لمواصلة كلامه.

- لعلّك تعرف المبدأ الذي تقوم عليه عقود تأمين الوفاة؟ عليك أن تدفع مساهمة كلّ شهر. فإذا لم يحدث لك شيء، وندعو الربّ ألا يقع لك شيء، لن تستردّ المبالغ التي اشتركت بها، لكن في حال وفاتك، سندفع مبلغاً مالياً لأبنائك... أو لشخص آخر، كلّ هذا دون حاجة إلى أداء رسوم التركة.

- هذا بالضبط ما أبحث عنه.

هكذا، لم تكد تمضي نصف ساعة حتّى كان الرجلان قد اتّفقا على مبلغ قسط تأمين بمبلغ (750000 دولار) وعلى أنّ المستفيد من العقد هي (جولييت بومان).

أتمّ سام ملء استمارة، والتزم باجتياز فحص طبّي منذ الصباح مشفوعاً بتحليل للدم. وقد كانت الشكليات الطبية مخفّفة بالنظر إلى سنّه. ثمّ قدّم له «إد زيك» قائمة بعناوين المؤسسات المقبولة، والتي من ضمنها، لحسن حظّه، المستشفى الذي يشتغل فيه. هكذا فبوسعه أن يجتاز هذا الفحص الطبي صباح الغد. ومن ضربات الحظّ أيضاً أن زيك يعمل يوم السبت، واقترح عليه أن يصادق على الملف بمجرّد ما يحصل على الفاكس المطلوب.

وبينما كان سام يهمّ بوضع توقيعه، اقترح عليه موظف البنك، بلهجة من يبوح بسرّ، ضماناً إضافياً: مضاعفة القسط في حالة ما إذا كان الموت ناجماً عن حادثة.

قطّب سام حاجبه وتظاهر بالتفكير. فقد سبق أن استفاد من دروس في الاقتصاد الطبي، وهو يعرف حِيَل التسويق هذه. ذلك أنّ حالة موت واحدة فقط من أصل اثنتي عشرة أو ثلاث عشرة تنتج من حادث. وبذلك فإن المؤمّنين لا يتحمّلون إلا قليلاً من المخاطر الإضافية في هذه الحالة، بينما ترفع الزيادة في المساهمة كثيراً هامش أرباحهم.

أجاب سام وهو يفكّر في حادثة عربة الكوابل التي ستؤدي بحياته:

- حسناً.

مدّ له «إد زيك» يده مصافحاً وهو يبتسم ابتسامة عريضة، مقتنعاً بأنّه قد نجح في الاحتيال على هذا الزبون المثالي.

قال سام في نفسه وهو يودّعه: لن تضحك هكذا غداً، لكنّ ذلك كان أبعد من أن يؤاسيه.

لمّا خرج إلى الشارع كان الظلام قد بدأ يخيم، والبرد قارس، ولاحت له النجوم الأولى في السماء.

تنفس الصعداء. فهو قد ضمن لجولييت وابنه مستقبلهما المادي. لكنّه كان يعلم أنّ المال يشكل أحياناً حلاً خادعاً.

*

جنوب بروكلين - حي بنسونهورست - بداية المساء

ارتقى مارك روتيللي طابقي عمارة صغيرة من الطوب البنّي. فتح باب شقّته لكنّه لم يشعل النور فوراً. كانت ستائر النوافذ قد بقيت مرفوعة فسلط البدر على الغرفة نوراً خافتاً لطيفاً. وبخلاف ما قد يتوقّع المرء، فقد كان المسكن البسيط العادي نظيفاً وأنيقاً.

لم يكن روتيللي قد عاد إلى بيته منذ يومين، ذلك أنّه قضى الليلة السابقة بالمستشفى بعدما قضى كلّ يومه في الخدمة. كان يشعر بنفسه على أحسن ما يرام طالما أنّ العمل يشغله، لكنّه الآن يخشى أن يجد نفسه وحيداً. وضع قرصاً في جهاز قراءة الأقراص: سمفونية لبروكوفييف. كان مولعاً بالموسيقى الكلاسيكية وعارفاً بها. ولم يعد الناس يتعاملون معه إلا منذ فترة قصيرة، إذ كانوا يعتبرونه سكّيراً أجلف، ولم يكن هو يبذل أي جهد لجعلهم يغيّرون نظرتهم إليه، لكن من سبق أن تعاملوا معه يعلمون أنّه مثقّف ورهيف الإحساس.

استحمّ ثمّ حلق ذقنه وارتدى ملابس نظيفة: سروال جينز أسود وقميصاً أزرق فاتحاً كانت غريس قد أهدته إياه منذ زمن بعيد، ولم يلبسه منذ سنوات. ثمّ نظر إلى نفسه في المرآة، وهو ما لم يجرؤ على

فعله منذ شهور. لم يكن يحبّ في العادة أن يرى نفسه، لكن منذ أن أنقذ جودي، صار يشعر بأنّ شيئاً ما تغيّر فيه، وبدا راضياً على الصورة التي عكستها له المرآة.

توجّه إثر ذلك إلى المطبخ وفتح الثلاجة ليتناول منها حزمة من ست علب بيدوايزر، وهي حصته أو بالأحرى جرعته اللازمة لكي يجد النوم طريقاً إلى جفنيه. كان يعرف جيّداً ما سيحدث: سيشرب حتّى يثمل فيداهمه نوم مضطرب سيمتدّ حتّى الثالثة صباحاً. عندها سيستيقظ منزعجاً ومرتعشاً، ولكي يعود إلى النوم حتّى الصباح، سيكون بحاجة إلى قدح فودكا مليء.

وضع علب الجعة الست على المائدة، لكنّه لم يلمسها.

لماذا هذا اللعب؟ أنت تعلم بأنك ستشربها في آخر المطاف.

فتح العلبة الأولى من دون أن يشرب منها.

لعلّك تتسلّى بإقناع نفسك بأنّ المسألة ليست سوى مسألة إرادة!

سكب محتوى هذه العلبة في حوض المطبخ، ثمّ محتوى العلبة الثانية والثالثة والرابعة والخامسة.

لم تبقَ غير واحدة الآن، هيّا، واصل إراقتها لترى.

كانت شهوته في الشرب لا تقاوم، لكنّه سكب العلبة الأخيرة بكاملها، وفتح الصنبور ليطرد الرائحة.

أشعل سيجارة وخرج إلى الشرفة. سيذهب غداً إلى سام غالواي ليطلب مساعدته، وسيواظب على العلاج إنْ لزم الأمر. ولأوّل مرّة بدا له أنّ هذا الأمر يستحق العناء. سيُقلع عن الشرب من أجله هو ومن أجل جودي.

نفخ في يديه لكي يدفئهما، لأنّ البرد كان قارساً ولاسعاً. وبينما كان يهمّ بالدخول إلى الغرفة، سمع وقع خطوات وراءه.

- مرحباً ماركو.

استدار فجأة وقد اعتراه الذهول من نبرة الصوت الذي كلّمه.

كانت غريس واقفة على بعد ثلاثة أمتار منه، وكانت متألّقة وهادئة تماماً كما يحتفظ بها في ذكرياته.

بدا روتيللي مبلبلاً من أثر الانفعال.

اللعنة، لم أشرب قطرة كحول منذ يومين...

لعله فقد صوابه. تقدّم نحوها وهو يحاول أن يكلّمها، لكن صوته تهدّج:

- لسـ. . . ت أفهـ. . . م. . .

قالت له وهي تضع أصبعها على فمه:

- ليس ثمّة شيء ذو بال تفهمه.

طوّقته بذراعيها، فطاوعها.

ظلا متعانقين لفترة طويلة، ووجد روتيللي رائحة بشرة زميلته كما كانت في السابق، مزيجاً من الحليب والفانيلا، وهي رائحة لم تبرح ذاكرته قطّ.

قال معترفاً:

- لقد اشتقت إليك كثيراً.

- وأنا أيضاً اشتقت إليك يا ماركو.

وسمع روتيللي قلبه يدقّ بشدة من الانفعال والقلق. كان يمسك بيد غريس، شاداً عليها بقوة كما لو أنّه خائف من أن يفقدها ثانية.

قال بعد جهد:

- لقد عدت أخيراً.

حدّقت في عينيه ووضعت يدها على خدّه.

- نعم يا ماركو. . .

توقّفت وقد أخذ منها الانفعال مأخذه هي أيضاً، وقالت:

- . . . لكنّني لن أمكث.

انطفأ الألق البادي في عيني روتيللي فوراً. ووضعت غريس رأسها على كتفه.

- سأشرح لك كلّ شيء.

*

بعد ساعة كانت غريس قد حكت لروتيللي قصتها العجيبة.

لمرّات عديدة قطّب حاجبيه استغراباً، لكن لم يكن بوسعه إلا الرضا بما حكته له زميلته. ورغم أنّ هذه القصة تقوّض كلّ المعالم التي كان يرتكز عليها، فإنّه أدرك أن غريس صادقة. ومن شدّة سعادته بعودتها، لم يثقل عليها بأسئلة كان يعلم بأنها ستظلّ من دون جواب إلى الأبد.

والغريب هو أنّ غريس هي من كانت تسعى للاستخبار. قالت وهي تمدّ له حزمة من الأوراق:

- لعلك تستطيع مساعدتي.

فتح روتيللي الحزمة وانتبه إلى أنّ الأمر يتعلّق بتقرير تشريح جثّتها. كان قد قرأه لمرّات عديدة، لكنّه راح يتفحّصه من جديد بعناية.

- ألا تجده غريباً؟

- ماذا تقصدين؟

- أقصد آثار الهروين يا مارك! من أين أتت؟ فأنا لم أكن أتناول المخدّرات!

تنهّد روتيللي وأثر الانزعاج ظاهر عليه.

- ألا تذكرين؟

- كلا.

شعرت غريس في هذه اللحظة بالخوف ممّا سيقول. لم تعُد واثقة من أيّ شيء. أيّ شخص كانت؟ أكانت لديها أمور تُخفيها؟

- لقد اقترحت عليك شعبة محاربة المخدرات منصب عميل مندسّ...

- أكنت أتظاهر بالاشتغال في المخدرات؟

هزّ روتيللي رأسه موافقاً:

- لما قتلوك، كنت تحاولين اختراق عصابة تجّار مخدّرات.

- هذا هو ما يفسّر وجود آثار المخدرات...

- أنت تعرفين النفاق الذي يسود في مثل هذا النوع من الأعمال...

حرّكت غريس رأسها مؤيّدة، فقد شرعت تتذكّر. فقد كان على عملاء الشرطة المندسين أن يحقنوا أنفسهم بالمخدرات في كثير من الأحيان أمام أفراد العصابات وذلك من أجل التمويه والتظاهر بأنهم معهم. وغريس تعلم أنّ العديد منهم كانوا يصيرون مدمنين بدورهم، فيغيّرون المعسكر.

قال روتيللي مؤكّداً:

- ثقي بأنّني حاولت إقناعك برفض هذا المنصب، لكنّك كنت لا تزالين شابّة، جسورة ومندفعة، بالغة الوثوق فيما تعملين.

- كنت أرغب في أن أكون نافعة للمجتمع، وأمنح ابنتي عالماً آمناً.

- أجل، لقد كنت عنيدة، وواضح إلى أين قادك عنادك!

فقالت معلّقة وهي تفكّر فيما آلت إليه جودي:

- الحياة قاسية في كثير من الأحيان.

فقال روتيللي موافقاً:

- أجل قاسية وقصيرة.

وخيّم على الشرطيين فجأة حزن عميق، تنبّهت له غريس ولامت نفسها على بثّ الفتور في حرارة لقائهما، فاقترحت قائلة لكي تعيد المرح لجلستهما:

- لا داعي لإفساد هذه السهرة يا ماركو. خذني لنتعشّى في مكان ما.

- حيث تريدين.

فقالت بمكر:

- إلى مطاعمنا المألوفة.

استقلا السيارة لبضع دقائق باتجاه الشمال، وركناها عند بروكلين هايتس، على بعد خطوات من ريفر كافيه. كان المطعم الشهير ذي الصيت العالمي يقدّم منظراً فريداً لمانهاتن وبروكلين بريدج. لماً كانا يقومان بجولات في الحيّ في الماضي، كانا يقولان دائماً بأنّهما سيُهديان نفسيهما يوماً وجبة فاخرة في هذا المطعم الراقي إن توفّر لهما المال. وفي انتظار أن تواتيهما الفرصة لتحقيق هذا الحلم، كانا يشتريان بيتزا لدى غريمالديس، ويعودان إلى سيارتهما لكي يأكلاها. فما كانا يسميانه مطعمهما المألوف هو التهام البيتزا داخل السيارة، وهو بديل أقلّ كلفة من ريفر كافيه. قد يكون أقل أناقة، لكن المنظر لم يكن يقلّ جمالاً على الأقل.

بقيت غريس لوحدها بينما ذهب روتيللي لشراء الطعام. نقر على النافذة واندفع إلى داخل السيارة حاملاً علبة من الكرتون.

- إنّها بيتزا ديل ماري، ما زلت أذكرها!

- لديك ذاكرة قوية!

وكما كان الأمر في الماضي، أكلا وهما ينصتان للمذياع، ونظراتهما ساهمة في الجانب الآخر من جسر بروكلين. وعلى المذياع كان نيل يونغ يعزف على غيثارته أبدع ألحان هارفيست مون. وكانت ناطحات سحاب لاوور مانهاتن تمتدّ أمامهما، وانتابهما من جديد شعور بأنّهما يملكان المدينة. لقد قضيا هنا ساعات وساعات في النقاش والشجار والمزاح وإعادة تشكيل العالم.

بعد صمت ثقيل، طرح روتيللي السؤال الذي تلافاه منذ مدّة:

- ألا تستطيعين البقاء لفترة أطول؟

هزّت غريس رأسها ببطء.

- كلا يا ماركو، يكفي أنّ ما أقوم به الآن فيه كثير من اللامسؤولية...

- لكن، متى سترحلين، وكيف؟

حكت له ما كان سيقع في اليوم الموالي بعربة كوابل روزفلت آيلند، فتملّكته كآبة عميقة جعلت غريس تحاول إقناعه:

- ينبغي أن تكفّ عن النظر إلي نظرة مثالية. عليك أن تتعلّم العيش من دوني.

- لا أستطيع.

- لكنّك تستطيع، فأنت لا تزال شاباً، ولديك العديد من المزايا. تستطيع أن تعيد بناء حياتك، وتؤسّس أسرة وتحيا سعيداً. وما أطلبه منك من فضلك، هو أن تعتني بجودي.

التفت روتيللي بغتة نحوها وهو يقطّب حاجبيه:

- و... أنت؟

ردّت غريس بلطف:

- أنا ميّتة.

لكن مارك روتيللي لم يستطع قبول هذه الحقيقة.

- كان عليّ أن أرافقك في ذلك المساء الذي اغتالوك فيه. كان عليّ أن أكون هناك لحمايتك، وألا أتركك أبداً!

- كلا يا ماركو! كلا! لا تلُم نفسك، هكذا جرت الأمور، وهذه هي سنّة الحياة!

لكن روتيللي لم يتزحزح عن رأيه:

- كان كلّ شيء سيسير في اتجاه مخالف.

ساد صمت ثقيل، وانطوى كلّ منهما على نفسه إلى أن مسحت غريس على شعره وقالت هامسة:

- عليك أن تسلّم بالواقع، وتقبل به نهائياً.

واكتفى روتيللي بأن هزّ رأسه.

- افعل هذا من أجلي. حطّم جدار الوحدة والإدمان الذي ضربته على نفسك.

- آه لو علمت مدى حاجتي إليك يا غريس.

انقطع صوته فأدار وجهه حتّى لا ترى دموعه. ردّت وهي تنحني عليه:

- أنا أيضاً أشعر بالحاجة إليك.

نسيا عندئذٍ كلّ شيء وانخرطا للمرّة الأولى أخيراً في قبلة طويلة.

عادا إلى بنسنهورست بعد منتصف الليل بقليل. وبالوصول إلى أسفل العمارة، ظنّ روتيللي بأنّ لحظة الفراق قد أزفت، فانقبض قلبه.

- اسمعي، عليك أن تعلمي حقّاً...

لكن غريس قاطعته بلطف:

- أعلم يا ماركو، أعلم.

كانت تبذل قصارى جهدها حتّى لا تترك العواطف تستبدّ بها. لهذا قالت بنبرة هازئة:

- ألا تدعوني لنشرب آخر كأس؟ كنت أظنّك تعرف كيف تتودّد للنساء...

صعدا الدرج مرتبكين، لكن ما إن أغلقا الباب، حتّى زال ارتباكهما، وتعانقا بلهفة أصابتهما بالدوار. كانا يعلمان معاً بأنّ هذه الليلة ستكون ليلتهما، وأنّها ستكون الأخيرة.

استمتعا إذن بكل ثانية من هذا اللقاء، ولم يعد للزمن وجود بالنسبة إليهما. كلّ ما كان ثمّة كائنان ولهانان، يتحابّان كما لو أنّ الفراق لن يعرف إليهما سبيلاً.

استيقظ روتيللي عند الفجر على هديل الحمام وتغريد الزرزور. كانت الشقّة مضاءة بنور أزرق خافت. وكانت أوّل حركة قام بها هي الالتفات إلى الوسادة: حدث ما كان يتوقعه. لقد اختفت غريس، وهو يعلم بأنها لن تعود أبداً. قام واقفاً يتنفّس ونظر عبر النافذة إلى الفجر.

فكّر طويلاً في كلّ ما قالته له إلى أن ألحّت عليه فكرة كما لو كانت أمراً بديهياً. قلّبها من كل جوانبها، ثمّ أخذ قراره.

ولمّا أغلق النافذة، كان قلبه مفعماً بالسكينة.

30

لمّا أفكر في كل ما وقع لي، لا أستطيع أن أنزع من ذهني فكرة أنّ ثمّة قدراً عجيباً ينسج خيوط حيواتنا برؤية للمستقبل بالغة الوضوح، دون أن يأخذ في اعتباره رغباتنا ومشاريعنا.

عن ماتيلد أسانسي، بتصرف

- سأنصرف يا حبيبي.

استيقظ سام فزعاً، فقبّلته جولييت النضرة الأنيقة في عنقه وهي تضع صينية الفطور وسط السرير.

انتصب جالساً باندفاع، وسألها وقد راعه تأهّبها للخروج:

- إلى أين أنت ذاهبة؟

- الفتاة التي كانت تقتسم معي الشقّة، كولين، تنتقل إلى مسكنها الجديد اليوم. سأذهب لمساعدتها هذا الصباح.

نهض واقفاً في لمح البصر وقد ساءه تأخّره في النوم. كيف استغرق في النوم العميق مع ما يشعر به من كرب؟ ثمّ غمغم:

- ولكنّني... كنت أظنّ أنّنا سنقضي الصباح معاً...

- لن أتغيّب إلا لبضع ساعات. يمكن أن نتغذّى معاً في بداية الظهيرة.

في بداية الظهيرة سأكون قد متّ!

مدّت له فطيرة مدهونة بالمربّى، ولم يعُد يستطيع تحويل بصره عنها. نظرت إليه وهي تبتسم مسرورة بكلّ هذا الاهتمام الذي يوليه لها. كان كلّ شيء فيها متألّقاً. فالياغورت (اللبن) الذي نسيت أن تمسحه عن فمها يرسم فوق شفتيها شارباً دقيقاً أبيض، وأشعة الشمس المسلّطة على شعرها جعلته يبدو بلون الذهب.

وتعالى تحت النافذة صوت بوق سيارة، فقالت جوليت وهي تنظر من خلال زجاج النافذة:

- إنّها كولين. فقد طلبت منها أن تلحق بي هنا.

زرّرت معطفها، وتناولت وشاحها الملوّن. وبينما كانت تهمّ بالخروج، بادرها سام قائلاً:

- انتظري لحظة!

لحق بها قرب الباب وأمسك يدها. قبّلته فحشر رأسه في حضنها ليشمّ عطرها الذي يعبق برائحة الزهر والمشمش.

وقالت ساخرة بلطف من تلهّفه:

- لن أتغيب إلا لبضع ساعات يا حبيبي.

أما أنا فسأتغيّب إلى الأبد.

ها هي تفلت منه، ولن يراها ثانية. لم يخطر على باله أنّ الأمر سيجري على هذا النحو، وبهذه السرعة. أيّ ذكرى ستحتفظ بها عنه؟ لم يُمضيا معاً إلا فترة قصيرة للغاية. ودّ لو يقول لها أشياء كثيرة، لو تتعرّف عليه أكثر، ودّ. . .

لكن، لعلّ الأمر سيكون أخفّ عليها هكذا. ثمّ انتهى به الأمر إلى أن استسلم وترك يدها. فتحت الشابة الباب ونزلت الدرج، وتعقّبها سام إلى أن بلغت الشارع حيث اندفعت داخل سيارة كولين

القديمة، وانطلقت السيارة وانعطفت عند ركن الشارع. لوّحت جولييت عبر الزجاج بهاتفها المحمول، وتمكّن سام من فهم جملتين من خلال حركات شفتيها:

الأولى هي: سأهاتفك.

والثانية: أحبّك.

*

بعد أن اغتسل ولبس، هرع سام إلى المستشفى لإجراء الفحوصات المطلوبة للتصديق على عقد التأمين. فقد أخطر في اليوم السابق جانيس فريمان بزيارته، فرتّبت له كلّ شيء بحيث لم يستغرق منه ذلك أكثر من ساعة. وبينما كان يبعث بنتائج الفحوصات عبر الفاكس، تنبّه بمرارة إلى أنّه سيموت وهو في تمام الصحة والعافية. لو كان الأمر بيده، لظلّ هناك يعمل بحيث يشغل الساعات القليلة المتبقية من حياته بشيء نافع. فمنذ أن استيقظ وهو يشعر بغمّ عميق يلازمه، وصار يخشى أن يبقى بمفرده، لكنّ جانيس فريمان التي كانت تجهل عذابه أمرته بالانصراف ناصحة إياه بالاستمتاع بعطلته القسرية.

كانت المدينة في الخارج تبدو متوهّجة من أثر انعكاس أشعة الشمس على الثلج. ولمّا سار على الرصيف، كان يتعمّد ملامسة المارة، وشعر بنفسه كنقطة ماء تسبح في موجة، أيّ كإنسان بين البشر. هذا التوحّد الحسّي وسط الحشود هدّأ من روعه، وبدّد مخاوفه. كان يسرع في المشي حتّى يستدفئ، مستمتعاً بصوت طقطقة الثلج تحت قدميه. توقّف عند مقهى بورتبيلو، وجلس إلى إحدى الموائد وطلب كابوتشينو.

وقبل أن ينصرف، بقي أمامه أمر مهمّ عليه أن يقوم به: الوفاء

بوعد. ركّب على هاتفه المحمول رقم باتيرفالي سنتر هارتفورد، وهو مركز لعلاج الإدمان، متخصّص في التكفّل بالمراهقين. وكما كان يتوقّع، كانت لائحة الانتظار طويلة، تغطّي أشهر السنة الستة المقبلة، وكان ولوج هذا المركز يكلّف أكثر من عشرة آلاف دولار، لكنّ سام لم يدّخر جهداً في الدفاع عن جودي، ملحّاً على المحنة التي مرّت بها، وضرورة قبولها على وجه الاستعجال في البرنامج. وما هي إلا عشرون دقيقة حتّى كانت مريضته قد قُبلت، لكن بشرط أداء مصاريف العلاج كاملة في اليوم نفسه. هكذا هاتف سام مصرفه فوراً وطلب منهم موافاته بالمبلغ الموجود في حسابه. كان دخله من منصبه كطبيب في المستشفى زهيداً بالنظر لما كان يمكن أن يكسبه من العمل في القطاع الخاص، وهو قد انتهى بالكاد من تسديد القرض الذي حصل عليه لمتابعة دراسته.

أخبره موظف البنك قائلاً:

- بقي في حسابك أحد عشر ألفاً وثلاثمائة وعشرين دولاراً.

تردّد سام، ثمّ أمر بتحويل هذا المبلغ إلى حساب بايترفالي سنتر، وترك رسالة لمصالح المستشفى الاجتماعية ليخبرهم بما قام به من إجراءات.

وقال في نفسه وقد اعتراه شعور بالضيق: إنّه آخر عمل أقوم به كطبيب.

وأجهد نفسه مع ذلك حتّى لا يفكّر في هذا الأمر كثيراً، ثمّ جال ببصره في القاعة.

لم يضجر هذا الصباح من النظر إلى الناس الذين يحيطون به. كان بودّه لو يقف ويقول كلمة لكلّ منهم. وبدت له كلّ التفاصيل، حتّى أصغرها، محمّلة بالدلالة والجمال: أشعّة الشمس التي تخترق

زجاج النافذة، الضحكات المتعالية حول الموائد، روائح القهوة والحلويات... لماذا كان يلزم أن يقف على عتبة الموت لكي ينتبه لتلك الأشياء الصغيرة التي تمنح الوجود طعمه ويقدّرها حقّ قدرها؟

رفع عينيه نحو الساعة الجدارية قلقاً أمام هذه الدقائق التي تنقضي بسرعة الواحدة تلو الأخرى. أهي النهاية قد حلّت إذن؟ ماذا رأى من الحياة؟ لا شيء ذا بال. فكّر في البلدان التي لم يزُر، وفي الصفحات التي لم يقلّبها بعد، وفي كل المشاريع التي أجّلها...

غادر المقهى والكآبة تعصر قلبه. كانت تمرّ في مخيّلته صور الأيام الأخيرة بسرعة فائقة، وحاول أن يجد معنى لما وقع فيها من أحداث. لماذا يشعر بأنّه أغفل شيئاً مهمّاً؟

وبينما هو يفكّر في ذلك، تذكّر حادثاً بسيطاً شوّشه، ولم يُعره ما يكفي من الانتباه. وبلغ إلى ملتقى الشارع الثاني والشارع الرابع والثلاثين حيث كانت مجموعة من سائقي سيارات الأجرة في انتظار الزبائن، فأومأ بيده ليوقف أحدهم.

كان يرغب في أن يزور شايك باويل لآخر مرة.

*

لم يتفاجأ شايك لمّا رأى سام يترجّل من سيارة الأجرة. وبقدر ما كان ينتظر زيارته من يومين كان يهابها. كان يشحن صناديق مؤن في شاحنة صغيرة بمساعدة أحد المتطوّعين.

- هل أنتما بحاجة إلى مساعدة؟

- هذا عمل لا يقدر عليه ضعاف البنية مثلك.

فأجابه سام وهو يمسك بأثقل صندوق:

- أنت تعرف ما يقدر عليه ضعيف البنية!

وراح الرجال ينقلون الصناديق في صمت، وما هي إلا لحظة حتّى كانت صناديق المؤونة قد أخذت مكانها على الشاحنة، ثمّ أضاف شايك بعض الأغطية وحقيبة أدوات تنظيف وصاح وهو يرى الشاحنة القديمة تبتعد:

- انطلق يا مولو!

فأجابه المتطوّع بتزميرتين من بوق السيارة. إثر ذلك التفت شايك نحو سام وقال له:

- ماذا بك يا رجل؟ تبدو سيئ الحال.

- هيّئ لي كوب قهوة.

صعدا إلى الشقّة، وبينما كان شايك يهيّئ القهوة أمام آلة الإكسبريسو القديمة، مضى سام ينظر مستغرقاً إلى الصليب الموشوم على ساعد صديقه، وقال بصوت يشي بالغضب:

- لم يسبق لي أن رأيته.

فردّ شايك وهو يقدّم له القهوة:

- من تقصد؟

- أقصد إلهك. لم يسبق لي أن رأيته لا في الحي لمّا كنت طفلاً ولا في المستشفى، ولا حتّى في أيّ من البلدان التي زرتها، والتي تعاني من ويلات الحرب...

فأجابه القسّ وهو يفتح النافذة:

- وهو مع ذلك حاضر معنا، عليك أن تتعلّم كيف تراه يا رجل.

وألقى سام نظرة عبر النافذة.

كان ثمّة طفلان، بنت وولد، يلعبان في ملعب كرة السلة. هو أسود وهي آسيوية، وهما دون العاشرة. رسمت مربعات بالطباشير

لتلعب الحجلة بينما كان هو يتمرّن على رمي الكرة في السلة. وما هي إلا دقائق حتّى حلّ أطفال أكبر منهما وأقوى، فاستولوا على الملعب وطردوهما، لكنّهما ظلا يشغلان الملعب لبعض الوقت. كان الولد بديناً وقصير القامة بحيث تبدو الكرة ضخمة بين يديه لمّا يمسكها. ورغم ما بذله من جهد فإن رمياته لم تنجح حتّى في إصابة الإطار، وهو ما لم يمنع صديقته الصغيرة من تشجيعه بودّ. قضى دقائق على هذه الحال إلى أن أثمرت جهوده، فجلس رغم البرد على الجدار القصير الذي يحيط بالملعب، وأخرج من محفظته فطيرة بالشوكلاتة اقتسمها مع رفيقته التي راحت تضحك بصوت عالٍ.

التفت سام إلى صديقه وقال:

- إنّه أمر جميل، لكنّه غير كافٍ.

- غير كافٍ؟

- كلا.

كان الجواب جلياً وحادّاً، فتنهّد شايك:

- ماذا تريد أكثر من هذا؟

- أن أفهم.

- تفهم ماذا؟

معنى كلّ هذا: الحروب السخيفة والأمراض المعضلة والاعتداءات التي تضرب بشكل عشوائي...

- إنّ كلامك يصيبني بالقرف يا سام. الإنسان حرّ في السراء والضراء، فلا تحمّل الرب ثمن هذه الحريّة.

قام شايك وأشعل سيجاراً أدرك سام من رائحته أنّه لم يكن يحتوي على التبغ فقط.

- ماذا أصابك.

- إنني خائف يا شايك.

- لماذا؟

- لأنني سأموت.

- كفّ عن هذه الترّهات.

صفق الريح النافذة، فنهض سام ليغلقها. كانت الشمس قد اختفت، وشرعت غيوم سوداء تصعد مسرعة نحو الشمال، فأغرقت الغرفة في الظلام، ممّا جعل شايك يهمّ بإشعال مصباح، لكن الزجاجة انفجرت.

- عليّ أن أنصرف.

بينما كان سام يهمّ بنزول السلم، أمسك شايك بكمّه.

- انتظر!

- ماذا؟

- لم أقل لك كلّ شيء في المرّة السالفة...

جلس سام في أعلى الدرج. ورغم أنّه خاف ممّا سيبوح له به صديقه، بادر بالقيام بالخطوة الأولى.

- لعلّك تعرفها، أليس كذلك؟ لهذا هتفت لي بالمستشفى.

- غريس كوستيللو؟ نعم، لقد سبق لي أن لقيتها.

- متى؟

- منذ عشرة أعوام.

- سنة وفاتها؟

حرّك شايك رأسه مؤيّداً.

- اعتقدتَ خلال تبادل إطلاق النار مع داستفاس بأنّك قتلت أحد زبنائه. أليس كذلك؟

فردّ سام موافقاً:

- نعم. كان المكان معتّماً، ولم ألمحه إلا من الخلف، لكنّني أذكر أنّه كان يعتمّ بقبعة.

- لم يكن رجلاً يا سام.

لم يفهم الطبيب شيئاً.

- ماذا تقصد؟

- بعد مرور ثوانٍ على إطلاقك النار، فرّ داستفاس عند سماع هدير السيارة. ظنّ الشرطة وصلت، غير أنّني أنا من وصل. ذلك أن فيديريكا قلقت عليك، فأخبرتني عبر الهاتف.

- أعلم كل هذا.

كانت ذكريات الرجلين تومض في ذهنهما بدقّة مدهشة. وباسترجاع هذه الأمسية المؤلمة، شعرا من جديد بأجوائها وبالخوف الذي انتابهما حينئذٍ.

تابع شايك:

- بدخولي إلى الغرفة فهمت فوراً بأنّ الأمور اتّخذت منحى سيّئاً، وأردتُ أن أحميك يا سام.

فقال سام بألم والشعور بالذنب يفتّت قلبه:

- طلبت منّي أن أهرب بسيارتك، فلم أشأ، عندها استشطت غضباً، فما كان منّي إلا أن انصعت لطلبك.

- ذلك ما كان ينبغي أن تفعل. فسجن شخص مثلك عشرين عاماً أمر يدعو إلى اليأس من هذه الحياة. كان من اللازم أن تنهي دراستك، وهي أولويّة آنذاك، ليس لك أنت فقط، بل لفيديريكا ولنا جميعاً.

- ربّما...

واسترسل شايك يقول:

- ظللتُ بمفردي في تلك الحجرة. شعرت أنا أيضاً بالخوف، لكنّني كنت أعلم بأنّني قادر على تدبّر الأمر. كان عليّ التخلّص من الجثّة. جثوت على ركبتي قربها، وكانت ممدّدة ووجهها إلى الأرض، فقلبتها. كانت جثة امرأة...

أصيب سام بالذهول.

- فتّشت جيوبها: لم تكن معها أوراق، لكنّني عثرت على مفتاح سيارتها. خرجت من الشقّة، وتعرّفت بسرعة على السيارة. كان عليّ ألا أتركها في الشارع نفسه، وإلا فإنّ الشرطة ستحقّق في بيدفورد. حملت جثّة المرأة إذن إلى سيارتها، وانتقلت بها بعيداً من هنا حتّى أضمن ألا يصلوا إليك أبداً.

ظلّ سام معقود اللسان، غير قادر على النبس بكلمة، فواصل شايك:

- ولم أتعرّف على هوية تلك المرأة إلا بعد يومين بينما كنت أقرأ الجريدة: كانت تدعى غريس كوستيللو، وهي من الشرطة. واستنتجت من ذلك أنّها ربّما كانت تشتغل عميلة، وكانت تودّ اختراق شبكات المخدرات لتسقط أفرادها في يد الشرطة.

بدت ملامح شايك منهكة كما لو أنّ نبش هذه الذكريات جعله يبدو أكبر من عمره بسنوات. أمّا سام فكان لا يزال تحت وقع الصدمة، وكانت فرائصه ترتعد وقلبه يخفق بسرعة. وضع شايك يده على كتفه وقال:

- أتعلم لماذا قصصت لك هذا المقال من جريدة **النيويورك تايمز**؟ حتّى أعرضه على أطفال الحي وأنا أقول لهم: «أتعرفون ذلك

الشخص الذي صار طبيباً، هو أيضاً ولد في هذا الحي مثلكم، نشأ في هذا المكان المقرف. كان يتيم الأب، وأمه اختفت منذ ميلاده، ومع كل ذلك نجح. نجح لأنّه وفّر لنفسه سُبل النجاح، ولأنّه لم ينصت لأولئك الأنذال الذين حاولوا صرفه عن الطريق الذي رسم لنفسه. هذا الشخص يدعى سام غالواي، وهو صديقي».

ردّ سام:

- شكراً.

فقال شايك بهمّة:

- لقد فعلنا معاً ما اعتقدنا أنّ علينا فعله. لست أعرف أحداً نحن مدينان له بشيء.

- مدينان لها يا شايك، لغريس كوستيللو...

ورنّت هذه العبارة في رأس سام كمنبّه ذكّره بالموعد.

نظر إلى ساعته: لقد ضربت له غريس موعداً على الساعة الواحدة زوالاً، والساعة تشير إلى الثانية عشرة تقريباً. فقال باستعجال:

- ينبغي أن أنصرف.

خرج إلى الشارع جارياً، وحاول شايك أن يستبقيه قليلاً:

- إلى أين؟ أنت ذاهب للقائها، أليس كذلك؟

من حسن حظّ سام أنه كان قد طلب من سائق التاكسي أن ينتظره. صعد إلى المقعد الخلفي للسيارة، فقال له القسّ بلهجة حازمة:

- سأرافقك.

- كلا يا شايك، هذه المرّة سأذهب بمفردي!

صفق سام الباب وفتح النافذة وقال بنبرة مطمئنة:

- لا تقلق عليّ، سأتصل بك.

انطلقت السيارة كالسهم نحو مانهاتن تاركة شايك باويل واقفاً أمام باب الكنيسة وهو يتساءل عن معنى تلك العبارة الأخيرة.

31

الكون يحيّرني، ولا أستطيع أن أتصوّر
هذه الساعة بدون ساعاتيّ.

فولتير

الساعة الثانية عشرة ودقيقة

كانت سيارة الأجرة تقطع جسر بروكلين ببطء، فقال سام للسائق:

- أسرع!

هزّ السائق كتفيه وهو يومئ لطابور السيارات التي بالكاد تتحرّك بسبب سوء الأحوال الجويّة.

ذلك أن نيويورك كانت تتأهّب للمرّة الثانية لمواجهة عاصفة ثلجية هوجاء. كان الريح عاصفاً، ومن يرى الغيوم الداكنة المتراكمة فوق ناطحات السحاب لن يصدّق بأنّ الشمس كانت مشرقة في الصباح.

فتّش سام في جيوبه بحثاً عن علبة السجائر، ولم يجد فيها غير سيجارة واحدة. فقال في نفسه وهو يشعلها: إنّها السيجارة الأخيرة التي يدخنها المحكوم بالإعدام. نبّهه السائق إلى لوحة تشير إلى منع التدخين.

- من فضلك يا سيدي!

فتح سام النافذة دون أن يطفئ السيجارة.

كانت اعترافات شايك قد زلزلته، لكنّها وضّحت له أيضاً بعض الأمور: فهو مَن قتل غريس، وعليه أن يموت بدوره. وإذا كانت هذه الحقيقة قد آذته كثيراً، فإنّه قد فهم أخيراً بأن ما عليه أن يؤدي من ثمن هو جزاء الجريمة التي ارتكب. ذلك أن غريس قد عادت لتنتقم منه، وهو أمر يبدو منطقياً، لكن عليه أن يتثبّت من ذلك.

سأل السائق:

- ألديك هاتف نقال؟

كرّر السائق الباكستاني متظاهراً بأنّه لم يفهم.

- هاتف نقال؟

- نعم، هاتف خلوي.

- كلا يا سيدي.

تنهّد سام وهو يُخرج من حافظة نقوده ورقة من فئة عشرين دولاراً ألصقها على الزجاج الذي يفصل بينهما.

- لا أريد غير مكالمة واحدة.

التقط السائق الورقة المالية ومدّ له هاتفاً صغيراً فضيّ اللون أخرجه من علبة القفازات.

قال سام وهو يُمسك بالهاتف: المال يفتح كلّ الأبواب.

ركّب رقم هاتفه، فأجابته غريس كما توقّع:

- لعلّك لم تنسَ موعدنا يا سام...

- لا تقلقي بهذا الشأن...

كان غاضباً عليها، وهو أمر لم يُخفه عنها:

- كنت تعلمين بأنّ الأمور ستنتهي على هذا النحو، أليس كذلك؟

- عمّ تتحدّث؟

- كلّ تلك الحكاية التي نسجتها حول جولييت لم تكن سوى ذريعة، وسيلة لكي تجذبيني إليك. منذ البداية كنت تعلمين بأنّك جئت إلى هنا من أجلي، لكي تنتقمي...

- أنتقم ممّاذا يا سام؟

ألقى الطبيب من خلال زجاج النافذة نظرة مشوّشة. اصطبغت السماء بلون الرماد، وشرعت ندف الثلج الضخمة تتساقط. أكانت غريس تتظاهر بالاستغراب، أم أنها تجهل حقّاً هويّة قاتلها؟ فقال ملحّاً:

- كفّي عن التمثيل، أنت تعلمين علم اليقين لماذا اختاروك لهذه المهمّة.

فقالت مؤكّدة:

- كلا!

فهم سام بارتعاب من نبرة إنكارها أنّها لم تكن تكذب، وأنّه هو من سيضطرّ لإخبارها بذلك.

لكنّه لم يكن يعرف كيف يفاتحها بالأمر. لن يفعل ذلك بالهاتف! كان يتمنّى أن تكون قبالته لكي ينظر في عينيها، لكنّه لم يكن يستطيع الانتظار، لذلك بادرها بصوت متهدّج:

- الشخص الذي أطلق عليك النار قبل عشر سنوات... الشخص المسؤول عن مقتلك وعن كل المصائب التي لحقت أقربائك...

ثمّ توقف هنيهة كما لو أنّه يريد التقاط أنفاسه، قبل أن يقول أخيراً:

- هذا الشخص... هو أنا.

وبما أنّها ظلّت صامتة، أضاف قائلاً:

- كنت أرغب في إصابة داستفاس لكي أنقذك، لكنّني أخطأته.

وسمع سام تنهيدة على الطرف الآخر من الخط.

- أنا آسف يا غريس! أنا آسف على كلّ ما لحقك!

تسارعت أنفاسها، ثمّ امتزجت بالنحيب. لم تقلْ شيئاً، لكن سام كان بإمكانه أن يلمس اضطرابها، فكرّر مرّة أخرى: «آسف».

ثمّ انقطعت المكالمة.

الساعة الثانية عشرة وسبع دقائق

توقّفت السيارة عند مدخل مانهاتن بسبب الثلوج. كانت السيارات تسير الواحدة تلو الأخرى متلاصقة تقريباً وسط أصوات الأبواق المتعالية. حاول سام أن يتّصل ثانية بغريس، لكنّها كانت قد أطفأت الهاتف. نظر إلى ساعته: كان يفصله عن الواحدة بعض الوقت. ففي أسوأ الأحوال إذا لم تتحسن حركة المرور، سينزل إلى إحدى محطات المترو، لكن كان ثمّة شيء آخر يزعجه: إذا لم تكن غريس قد عادت لتنتقم، فلماذا وافقت بسهولة بالغة على اقتراحه بأن تأخذه هو عوض جولييت؟

كان يشعر بأنّ جانباً من اللغز يغيب عنه، لكنّه لا يعرف ما هو. وممّا زاد الطين بلّة أنّه شعر بصداع رهيب منذ أن فارق شايك. وضع رأسه بين يديه وسدّ أذنيه بإبهاميه وحاول أن يفكّر. كان يعلم أنّ الشرّ كلّه يكمن في التفاصيل. استرجع بأناة أبرز الأحداث التي وقعت في الأيام الأخيرة: لقاءه الأوّل مع غريس في سانترال بارك ثمّ المقال الذي نُشر في اليوم الموالي، والذي أعلن عن نجاة جولييت، وحديثهما عن هذا القدر القاسي الذي من العبث الوقوف ضدّه، ثمّ هناك الرسالة التي نقلتها له أنجيلا بواسطة رسومها، وحادثة عربة

الكابلات تلك التي أشارت لها برقية إخبارية على ذلك الموقع الإخباري الزائف، وتلك الجملة التي ألحّت عليها غريس: هناك أمور لا نستطيع أن نغير منها شيئاً.

هذا ما كان يزعجه: إذا كان المرء لا يستطيع أن يغيّر شيئاً في مجرى الأشياء، فلماذا قبلت غريس بأن تعود به هو عوض جولييت؟ إنّه أمر لا يستقيم.

وتذكّر فجأة شيئاً، لمّا أرته غريس صفحة الإنترنت التي تتنبّأ بحادثة عربة الكوابل، كان واثقاً تقريباً بأنّ الساعة المذكورة في البرقية هي الثانية عشرة والنصف، في حين أن غريس ضربت له موعداً على الساعة الواحدة!

ها هي الأمور بدأت تتّضح: فقد نجحت غريس في مراوغته بأن ضربت له الموعد في غير ساعة الحادثة لأنّها كانت تعلم بأنّه لن يترك جولييت، وأنّه سيفعل ما بوسعه لكي يتجنّب مقتلها. فلكي تشغله، أوهمته بأنّها تقبل أن يعوّض جولييت، فصدّقها، لكنّها لم تفِ بوعدها.

إن جولييت الآن في خطر.

الساعة الثانية عشرة والدقيقة الثانية عشرة

إنْ كانت الحادثة ستقع على الساعة الثانية عشرة والنصف، لم يفضل لها بالكاد إلا عشرون دقيقة.

تناول من جديد هاتف السائق دون استشارته...

- يا هذا! لقد وعدت بإجراء مكالمة واحدة فقط!

... ليركّب رقم هاتف جولييت.

رنّ الهاتف للمرة الأولى

والثانية

والثالثة.

«مرحباً، إنكم تتصلون بهاتف جوليت بومان، اتركوا لي رسالة وسـ...»

اللعنة، إنه جهاز الردّ الأوتوماتيكي.

الساعة الثانية عشرة وأربع عشرة دقيقة

نظر إلى ساعته من جديد. فات الأوان. لن تكفيه أبداً ربع ساعة ليكون هناك في الموعد، حتّى وإن استقلّ المترو.

كانت سيارة الأجرة لا تزال عالقة، ولم تكن قد تجاوزت ساحة أستور بسبب الثلج الذي كان يسقط بغزارة متزايدة، وهو ما أصاب سام بالذعر والإحباط، ولم يعُد يدري ما يفعل. مدّ ورقة خمسين دولاراً للسائق، وترجّل ليمشي على الرصيف. عندئذٍ أومض البرق عدّة ومضات في السماء، وعقبه هدير الرعد. رفع بصره مندهشاً من هذا الرعد الثلجي. حتّى الجوّ جنّ جنونه هذا اليوم!

نظر حواليه، كان عليه أن يفعل شيئاً ما، ولكن ما هو؟ فلفتت انتباهه دراجة نارية صغيرة قادمة تتزلّج متعرّجة بين السيارات، ودون أن يفكّر، ارتمى وسط الطريق، فوقف سائق الدراجة أمامه تماماً، بحيث انزلقت عجلة سوزوكي الخلفية، وسقطت. فصاح به السائق:

- أأنت مخبول؟!

تقدّم منه سام، ولكن عوض مساعدته، دفعه إلى الخلف ليفقده توازنه، وقال له معتذراً:

- أنا آسف حقّاً، لا وقت لديّ لكي أشرح لك.

وفي رمشة عين، ركب الدراجة وشغّلها ثمّ انطلق.

فصاح به السائق:

- إنّها لا تزال في طور الترويض أيها الأبله.

لكن سام كان قد ابتعد.

الثانية عشرة وسبع عشرة دقيقة

كانت الدراجة خفيفة وسهلة القيادة، تتسلّل بين السيارات بسرعة مذهلة. كان سام ينظر يُمنة ويُسرة بتركيز محاذراً من وقوع أيّ حادثة. فقد صار يحسب منذئذٍ حساب كلّ ثانية، وراح يفكّر فيما سيفعل وهو منتبّه للقيادة. لم تعُد أمامه إلا فرصة واحدة لإنقاذ جوليت، لكن بشرط أن يعثر عليها فور وصوله.

الثانية عشرة وتسع عشرة دقيقة

قالت له إنها ستبقى مع كولين حتّى بداية الظهيرة. ينبغي إذن أن يبحث عنها هنالك. تذكّر العنوان الذي أعطته إيّاه: بناية صغيرة في طرف حديقة مورنينغ سايد. نظر في المرآة، ثمّ شغل الوامض وزاد من السرعة ليتجاوز العديد من السيارات وينطلق نحو الشمال.

لمّا كان في السادسة عشرة من عمره، اشترى شايك دراجة نارية 125 قديمة، فساعده سام في تصليحها، وبذلك قضيا الصيف كلّه وهما يركبانها ويجوبان الحي.

هذا ما كان يفكّر فيه وهو يعبر برودواي مستديرة كولمبوس وسانترال بارك.

الثانية عشرة وواحدة وعشرون دقيقة

لمّا بلغ مورنينغ سايد، لم يجد صعوبة في التعرّف على العمارة

التي تفطن بها كولين. ألقى نظرة لكي يفحص الأسماء المسجّلة على صناديق البريد، فوجد أنّها تسكن في الطابق السادس. هل هناك مصعد؟ كلا، ينبغي أن يصعد الدرج. ارتقى السلم رغم إصابته بسرعة فائقة، مستعيداً شيئاً فشيئاً الأمل. ولمّا وصل إلى الشقّة، طرق طرقاً شديداً كما لو أصابه مسّ، ففتحت كولين الباب وهي تحمل في يدها فرشاة. كانت ترتدي قميصاً ووزرة جينز، وتتدلّى من تحت قبعة البيسبول الموضوعة فوق رأسها ضفيرة شقراء.

صاح بها وهو يمسك بكتفيها:

- أين جولييت؟

فنظرت إليه باستغراب:

- ماذا أصابك يا سام؟

فكرّر وهو يهزّها:

- أين جولييت؟

ردّت وهي تدفعه:

- لقد ذهبت.

- متى؟

- لست أدري... لحقت بها امرأة يبدو أنّها تعرفها، وذهبتا معاً.

- كيف هي تلك المرأة؟

- سمراء في حوالي الخامسة والثلاثين من عمرها، ترتدي سترة جلدية و...

إنها غريس!

- إلى أين ذهبتا؟

- لا علم لي.
اللعنة!

الثانية عشرة وأربع وعشرون دقيقة

نزل السلم بسرعة أكبر من صعوده. ركب الدراجة النارية وهو يلهث، وتوجّه صوب العربات ذات الكوابل.

لقد تأكّدت مخاوفه: جاءت غريس تبحث عن جولييت لكي تأخذها معها. كانت يداه متصلّبتان على المقود وهو يقود بأكبر سرعة يستطيعها. كان قد تخلّص من معطفه، فشعر بالبرد القطبي ينفذ إلى عظامه. وكانت تعلق في شعره ندف الثلج وتدور في دوامات أمام عينيه. كان وهو يقود يخمّن الطريق أكثر ممّا يراها.

الثانية عشرة وخمس وعشرون دقيقة

التفّ على سنترال بارك شمالاً، ثمّ نزل على طول الشارع الخامس. تجاوز «موما» ثمّ انعطف لكي ينخرط في طريق ظنّه مختصراً، لكنّه اكتشف أنّه أحادي الاتجاه. هكذا نزل الشارع في الاتجاه المعاكس على مدى بضع عشرات من الأمتار وهو يسير مرّات عديدة على الرصيف، ممّا جعل السائقين ينبّهونه بأبواق سياراتهم، قبل أن يعود إلى سرعته الجنونية.

كانت أرضيّة الطريق زلقة كحلبة تزلّج، ممّا جعله يخشى الفرملة.

الثانية عشرة والدقيقة السادسة والعشرون

وصل إلى ساحة غراند آرمي وهو يسير بسرعة تتعدّى مائة كيلومتر في الساعة، وهناك دفعه الريح دون أن يفقده توازنه. شرعت

سيارة شرطة تلاحقه، لكنّه قرّر عدم الوقوف. كان على وشك الوصول. وما كاد ينحرف إلى الشرق عند ترامب تاوور حتّى شرع يسقط على المدينة وابل من البرَد، وما هي إلا دقائق حتّى تراكمت على الأرض كميات من الجليد، بعجت هياكل السيارات، وكسرت زجاج واقياتها الأمامية، وأحدثت خسائر كبيرة بمصابيح الإنارة العمومية وواجهات المحلات التجارية.

هكذا تحوّل الشارع في دقيقة إلى ميدان تزلّج، وهو ما لم يتحمّله توازن الدراجة النارية. حاول سام أن يفرمل، فانزلقت الدراجة على مدى بضعة أمتار قبل أن يصطدم بسيارة متوقّفة.

الثانية عشرة وسبع وعشرون دقيقة

قام من سقطته. كان سرواله ممزّقاً، وهو يتلوّى من الألم بمرفقه وكتفه اللذين أخذا ينزفان، لكنّه كان لا يزال قادراً على المشي. ترك الدراجة النارية مرميّة على الرصيف وقطع المائة متر الأخيرة بأقصى ما تسمح به قدماه من سرعة.

الثانية عشرة وثمان وعشرون دقيقة

نزل سام بسرعة إلى رصيف عربة الكوابل عند ملتقى الشارع الثاني والشارع الستين.

في الأوقات العادية، يربط ترام روزفلت آيلند المعلّق بين مانهاتن وجزيرة روزفلت الواقعة في وسط نهر إيست ريفر. لكنّهم أقاموا شريطاً أمنياً حول المنصّة، مع لوحة عريضة صفراء رسمت عليها جمجمة.

ومع ذلك كانت ثمّة عربة أخيرة تتأهّب للانطلاق في الأجواء...

الثانية عشرة والدقيقة التاسعة والعشرون

استطاع سام أن يميّز بوضوح، انطلاقاً من المكان الذي كان يقف فيه طيف راكبتين، فصاح وهو يتقدّم نحو الرصيف:

- جولييت! غريس!

لكن الأوان كان قد فات، إذ انغلق البابان الآليان، وشرعت العربة في الارتفاع.

صرخ محاولاً التغلّب على ضجيج الريح والبَرَد:

- ينبغي وقف هذه العربة!

لكن لا أحد سمع نداءه.

تملّكه الشعور بالعجز فجثا على ركبتيه وهو يراقب العربة التي راحت ترتفع في السماء...

وهدر الرعد بعد ومضات البرق، وامتزجت على نحو غريب ندف الثلج بحبّات البرد التي كانت لا تزال تسقط بغزارة. حلّق الترام فوق إيست سايد ليصل إلى علو سبعين متراً فوق مقر الأمم المتحدة.

كان قلب سام يتقافز في صدره، وحاول للحظة أن يطمئن نفسه. ماذا لو أنّ غريس اختلقت كلّ هذه الحكاية؟ ثمّ، لماذا ستقع الحادثة لهذه العربة بالذات؟ إنّه أمر لا معنى له. لا أحد يستطيع التنبؤ بالمستقبل، وبذلك لن يحدث شيء...

الثانية عشرة وثلاثون دقيقة

وبينما كانت تجول بذهنه هذه الخواطر، نفخت هبّة ريح عاتية هزّت العربة وأفقدتها توازنها، مزيحة إياها عن سكّة الكوابل التي

تحملها لتُطوِّح بها على برج أسلاك في الأسفل، محدثة بذلك ضجّة صاخبة.

تطاير الشرر، وانطفأ النور داخل العربة، وبدت لبرهة كما لو أنّها توقفت تماماً، لكن عصفة ريح جديدة حركتها وألقت بها في النهر.

32

ما العالم سوى جسر، اعبُره دون أن تبني فيه مسكنك.

هين، الأناجيل المنحولة، 35.

كان الثلج الذي يتساقط بلا انقطاع يخنق المدينة تحت رداء من البياض الناصع.

وهام سام على وجهه في الشوارع مسحوقاً تحت وزر الندم والشعور بالذنب. لقد أخفق للمرّة الثانية في إنقاذ المرأة التي يحبّ، وهذه المرّة لا عذر له لأنّ الموت لم يباغته، بل كان يملك ما يكفي من الوقت ليراه قادماً.

وبينما كان يشقّ طريقه في بارك أفنيو، لمح صورته في واجهة أحد المتاجر، فراعه ما رأى: سرواله ممزّق وقميصه مطليّ بالدم ووجهه الذي ازرقّ من البرد صار أشبه بقناع شاحب.

استأنف مسيره متألّماً ومرتعشاً من البرد وهو يفكّر في المساء الذي استعرض فيه رسوم أنجيلا لمّا تراءى له ذلك التحذير: غريس تقول الحقيقة.

فعلاً، لقد قالت غريس الحقيقة: لن تعود إلا مصحوبة بجوليت، وهذا ما وقع.

أخلت العاصفة والبرد الأحياء من المارّة. وتنبّه سام في هذا

الفضاء الأبيض إلى أنّه يترك وراءه خطّاً من الدم، وأرغم نفسه على تفحّص جرحه. ذلك أنّه لمّا سقط بالدراجة النارية، انغرز مسند القدم الحديدي في ساعده. فما كان يظنّه مجرّد جرح سطحي هو في الحقيقة جرح غائر مزّق العضلة وبلغ العظم.

لكن جسمه الجريح لم يكن شيئاً أمام تحطّم روحه. كان يشعر بفراغ بداخله، ويعلم أنّه لن يستطيع تجاوز هذه المحنة، وأنه لم يعد ثمّة شيء يشدّه لهذه الحياة الدنيا.

مرّ أمام المقهى الفرنسي الصغير بـ«يونين سكوار» حيث رافقته جولييت بعد أول ليلة قضياها معاً. ففي هذه القاعة ذات الطابع العتيق تمازحا وأكلا الخبز المدهون، وهنا تعلّق بها حقّاً.

لمّا رآها تضحك وتترنّم بالأغاني القديمة، تأكّد من أنّها هي: المرأة التي كان يحلم بالعيش معها إلى الأبد، المرأة التي سيبذل ما في وسعه ليحميها، وهي أيضاً ستحميه بدورها. كان الأمر كما لو أنّ السماء بعثت له بملاك يخلّصه من عذاباته.

ثمّ اكتسحه شعور جارف باليأس وهو يتذكر مقدار السعادة التي شعرا بها طيلة عطلة الأسبوع تلك. لماذا يطلب القدر هذا التعويض القاسي بعد أن وهبه تلك السعادة؟

لكنّه كان يعلم تماماً بأنّه لن يتلقّى جواباً عن هذا السؤال. وهكذا استسلم بعد أن شعر بالإنهاك والهزيمة، فانهار في الثلج على بعد أمتار من بيته ولم يحاول النهوض، وصار منذئذٍ أقرب إلى الموت منه للحياة.

كم بقي مستلقياً هكذا على الثلج؟

طويلاً...

إلى أن أبصرها في الطرف الآخر من الشارع، شفّافة وخياليّة.

جولييت.

خطت بضع خطوات مخترقة سحابة ندائف الثلج السميكة المتساقطة، ثمّ رآها تجري نحوه في صمت.

كان الأمر كما لو أنّ السماء بعثت له ملاكاً لينتزعه من عذاباته...

خاتمة

بعد مرور يوم...

بعد أربع وعشرين ساعة من الجوّ العاصف، زالت العاصفة بالسرعة نفسها التي حلّت بها. تلاشى الضباب فأرسلت شمس العشيّ أشعتها من خلال ناطحات السحاب.

وبدأت الحياة تسري من جديد في كلّ مدينة نيويورك. راحت كاسحات الثلوج تزيل الثلج من الشوارع، وتسلّح الناس بالمجارف لكي يزيحوا الثلج من مداخل منازلهم، وأخرج كثير من الأطفال ألواح التزحلق.

كان ثمّة طائر فضي الريش، آتٍ من العدم، يحلّق فوق ميدتاون، ثمّ نزل عمودياً في غمرة الضوء البرتقالي المنعكس على ناطحات السحاب، ثمّ حطّ على حافة نافذة من نوافذ مستشفى سان ماتيوس.

هناك، في الغرفة 606 كان يرقد سام، مستلقياً على السرير ورجله مثبتة في طبقة من الجبس، وكتفه محاط بطبقة سميكة من الضمادات، وإلى جواره تكوّمت جوليت على الأريكة تراقب أبسط حركاته وسكناته. لمّا استعاد وعيه، كان ثمّة مذياع على منضدة السرير يسرد آخر الأخبار بصوت خافت.

يبدو أنّ العاصفة العنيفة التي ضربت مانهاتن هدأت، واستعادت

مدينتنا سكينتها، لكن الخسائر ثقيلة. فقد سقطت العديد من الأشجار بسنترال بارك، وامتلأت الشوارع بشظايا الزجاج، والسيارات المتضررة لا يحصرها العدّ...

استسلم سام لعذوبة الصوت، ولمّا فتح عينيه أخيراً، لمح جولييت إلى جواره تبسم له.

انتصب جالساً وهو متردّد بين الأمل واليأس، غير قادر على فهم ما يقع له. وضعت جولييت يدها على خدّه وانحنت عليه لتلامس شفتيه. وسمع صوت المذياع يسترسل قائلاً:

... ظلت فرق الإنقاذ تشتغل طيلة اليوم، وامتلأت المستشفيات...

وازدحمت الأسئلة في رأس سام.

- ألم تكوني في العربة ذات الكوابل؟

حرّكت جولييت رأسها بالنفي.

شعر سام بالارتياح، لكن ثمّة شيء ما زال لم يستوعبه. فهو واثق من أنّه رأى طيفين في العربة. فإذا كانت غريس قد عادت من دون جولييت، فمن كان يرافقها إذن؟

وجاءه الجواب عبر الأثير:

...على إثر حادثة أمس المأسوية، سيظلّ ترام روزفلت آيلند المعلّق مغلقاً لعدّة أيام قصد إجراء الإصلاحات الضرورية. وحسب الشهود، كان بالعربة شخصان لحظة الحادثة، وما زال الغطاسون يجوبون النهر بحثاً عن الجثتين، ولكن دون نتيجة حتّى اللحظة. فقد تمكّنوا من إخراج العربة، لكن المحقّقين لم يعثروا فيها إلا على شارتي شرطة، إحداهما للضابط مارك روتيللي من الدائرة الواحدة والعشرين، والثانية لمفتشة ماتت منذ عشرة أعوام...

لم يستطع سام إخفاء ألمه. لقد اختار روتيللي الموت برفقة

غريس تعبيراً منه على تعلّقه بها. تناولت جولييت يده وسألت:

- يتعلّق الأمر بغريس كوستيللو، أليس كذلك؟

حدجها بنظرة استغراب.

- كيف عرفت ذلك؟

- لأنّها زارتني لدى كولين، وتركت لك هذا.

مدّت جولييت يدها نحو المنضدة وتناولت ظرفاً أخرجت منه رسالة ومدّتها له.

سام

لمّا شاءت الأقدار أن نلتقي للمرّة الأولى قبل عشر سنوات، انتهى لقاؤنا بمأساة رهيبة، لكنّك لم تكن مسؤولاً عن ذلك، بل أعتقد أنّنا لو التقينا في سيّاق آخر غير ذاك، لكنّا صرنا صديقين.

أشكرك على تسليطك الضوء على لغز وفاتي، فأنا أعرف الآن جواب الأسئلة التي كانت تعذبني.

على أنّني لم أعد واثقة من المعنى العميق لمهمّتي. ماذا لو أنّني أخطأت منذ البداية بخصوص ما كان منتظراً منّي؟ أكانوا يرغبون فعلاً في أن أعود بجولييت أم أنهم بعثوني لأنقذ ابنتي وأتصالح معك؟ أسئلة ليس عندي جوابها.

كلّ ما أعرفه هو أنّني لن أحرمك من المرأة التي تحبّ.

وإذا ما ذكرتني أحياناً، فاذكرني من دون ألم ولا شعور بالذنب. قل إنّني لست ربّما بعيدة، ولا تقلق عليّ.

بالمقابل توجد في إحدى غرف المستشفى الذي تشتغل به مراهقة في الخامسة عشرة من عمرها قسَت عليها الحياة. لها جسد امرأة، لكنّها لا تزال طفلة صغيرة، وهي أعزّ ما لدي في الكون، وقد

أنقذتها مرّة، غير أنّها لا تزال بحاجة إلى مساعدتك وثقتك. أرجو أن تستمرّ في العناية بها.

لقد آن الأوان لكي أنصرف.

لست أعرف ماذا ساجد في الجانب الآخر، ولا ماذا ستكون عواقب أفعالي. لا أخفيك، يساورني شيء من الخوف، ولكن في لحظة انصرافي، أريد أن أعتقد بأنّهم منحوني الاختيار. أنصتُّ إلى قلبي فامرني بأن أترك لك جولييت.

ألي الحق في اتخاذ هذا القرار؟ لست أعلم، وهو أمر لا أهمية له...

... مهما يكن، فالسماء تستطيع الانتظار.

غريس

غيوم ميسو

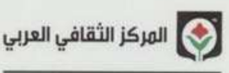
أنقذني

لا شيء يهيئ جولييت وسام للّقاء، فكيف بقصة حب!

كان لقاؤهما محتدماً وساحراً. وكانت عطلة آخر الأسبوع في نيويورك كافية ليتعلّقا ببعضهما، إلا أن كلاً منهما كذب على الآخر. ادّعى سام بأنه متزوج، وزعمت جولييت بأنها محامية. وعندما جاء وقت عودتها إلى باريس، رافقها إلى المطار، وكانت تلك اللحظة كفيلة بتغيير مصيرهما، لكن لا أحد منهما تجرأ وباح بالحقيقة.

وما هي إلا نصف ساعة حتى حلّ الخبر: انفجرت الطائرة التي تقل جولييت في الجو، وهو خبر أغرق سام في اليأس، لكنه لم يكن يعلم أن قصتهما لم تنته هنا... بل هي أبعد ما يكون عن ذلك!

كعادته، يقدم لنا غيوم ميسو في هذه الرواية الجديدة حكاية خلابة مليئة بالإثارة والخيال والتشويق والعشق...



الدار البيضاء: ص. ب. 4006 (سيدنا)
بيروت: ص. ب. 113/5158
markaz.casablanca@gmail.com
cca_casa_bey@yahoo.com



